عبد العزيز البدري

الإسلام بين العلماء والحكام



منشورات المكتبة العلمية
لصاحبها محمد نمنكاني
المدينة المنورة

الاسلام بين العلماء والحكام

الإسلام
بين
العلماء والحكام

عبد العزيز البدري



منشورات المكتبة العلمية
لصاحبها محمد نمنكاني
المدينة المنورة

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

الإهـــداء

الى العلمـاء العاملين ... موعظة للعلماء غير العاملين الذين رضوا لأنفسهم طريق الكسل والخمول والقعود .

والى الحكام الصالحين ... تذكرة للحكام غير الصالحين .

الذين انحرفوا عن حكم الاسلام وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

اهدي هذا الكتاب موعظة وذكرى ...

عبد العزيز البدري

المقـــدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوة الاسلام ، حتى قيام الساعة .

.. حفلت الدولة الاسلامية ، في تاريخهـا الطويل ، بمآثر جليلة سجلها العلمـاء في مواقفهم الخالدة والفذة مع الحكام ، تلك المواقف التي اتسمت بالصدق والجرأة ، والاخلاص لله ولدينه الحنيف ، فكانوا نجومـاً وضّاءة يهتدي بهم الحكام والمحكومون في ظلمات الحياة ..

لقد أظهر العلماء في تلك العصور ، عزة الاسلام ، وأبانوا فيهـا حقيقة الشريعة الاسلامية الغراء ، صافية نقية مكينة ، في صلابة موقفها من الحكام المنحرفين عنها ولو قيد أنملة ، وفي معالجتهـا لجميع شؤون الدولة التي يرأسها الحكام ويخضع لسلطانها المحكومون ، كاشفين للعالم أجمع أثر صلابة الايمـان بالشريعة الغراء في النوازل والخطوب ، متحملين بصبر وشجاعة ، مـا ينتج عن الجهر بكلمة الحق عند سلطـان جائر ، غير هيابين سلطان الحكام ، ولا قوة الدولة ولا صولة الجند ...

ولا غرابة في ذلك ، فهم أهل لهـــذه المواقف لأنهم حملة لواء الشريعة الاسلامية الحقيقيون .

إن الحكام الظالمين الذين تولوا أمر الاسلام حيناً من الدهو ، لم يستطيعوا البتة تسخير العلماء الأبرار لتنفيذ أهوائهم أو السير في ركابهم المعوج مع مـا أوتوا من قوة بأس وشدة جبروت ، وتمكين في النيل .

وكيف لا يكون ذلك ، وقد نهي العلماء والمسلمون أجمع ، أن يركنوا إليهم لقوله تعالى :

(ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) [1] .

لذلك نجد منهم المحاسبين للحكام ، المنكرين عليهم سوء أفعالهم ، وقبيح تصرفاتهم وفساد أقوالهم .

كما نجد منهم ، الناصحين لهم ، الرافضين منحهم ، الصابرين على محنهم.

ومنهم المعرضون عن مواجهتهم ، والساعون لهذه المواجهة بقصد إسماعهم مقالة الاسلام صريحة جريئة لا غموض فيها ولا كنايات !! ولا استعارات ولا ذبذبة !! حيث لا يخافون لومة لائم .

ثم نراهم الركع السجد في سجون الحكام . يلتمسون رحمة الله ، وطلب رضاه . يكتبون ويؤلفون ويهدون الناس الى الطيب من القول ، خدمـــة للاسلام ورعاية للمسلمين . وهذا ما ينفعهم في دنياهم واخراهم .

مستحضرين قول رسولهم القدوة الحسنة ﷺ :

(اذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث ... أو علم ينتفع بـه ... الحديث) [2] لأنهم شموع تضيء وسرج تنير أينما حلوا .

---

(١) آية ١١٥ هود .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد صالح يدعو له) رواه مسلم .

أما في الجهاد ومقاتلة الاعداء، فهم في مقدمة الجند وعلى رأس النفيضة .

وهكذا أثبت العلماء من قبل ، أن وجودهم هو من اجل الاسلام وحده، وأنهم حقاً (ورثة الأنبياء) وسيرى القارىء الكريم ، صدق هـــذا القول جلياً في حوادثهم ومواقفهم مثبتاً بين طيات هذا الكتاب .

ذهبت الدولة الاسلامية : إذ استطاع الكافر المستعمر ان يقضي عليهـا – في غفلة من الأمة – بوسائله الاستعمارية الماكرة، وخيانة أبناء من أمتنا ، الذين انطبعوا بثقافته الاستعمارية الكافرة ، واستجــابوا لإغرائه ، وصدقوا وعوده البراقة : « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » [1] .

بعد ان كانت هذه الدولة : الدولة الأولى في العــالم ، قرابة الف سنة او تزيد ، حيث انتزعت زمام القيادة من دواقي الفرس والرومان ومن شايعهما ودار في فلكهما . حتى وصلت الى درجة انها ان اشارت الى الشرق يطأطىء وان أشارت الى الغرب يومىء،وأضحت زهرة الدنيا حضارة ومدنية ورقياً، فاتجهت اليها الأنظار ، وارتحل اليها أبناء الأقطار، يرتشفون من معينها الذي لا ينضب ، ويستظلون بلوائها ، الى ان ترك المسلمون – حكاماً ومحكومين – حمل رسالتهم الخالدة ، وتقاعس العلماء عن اداء مهمتهم ، وتباطأوا عن حمل لواء شريعتهم بعد ان وقع اللواء...فانتقلوا من مركز القيادة الى درك التبعية وصار المسلمون – حكاماً ومحكومين – يرددون مــا يقوله اعداؤهم الحاقدون الكافرون المستعمرون الملحدون من شرق وغرب ، عن اسلامهم ، دون أن يقف علماؤهم الموقف المطلوب شرعاً من ذلك .

ان الاسلام اليوم : يريد من المسلمين – خصوصاً معشر العلماء – وهم على مفترق الطرق ، أن يبذلوا أقصى الجهد ومنتهاه ، في بيان أحكامه بصراحة

---

(١) آية ١٢٠ سورة النساء .

وجرأة وحمل الدعوة اليه ، جاعلين وجودهم قائماً على أساسه . فـــاذا هم لا ينصرون حقاً ولا يمنعون باطلا، ولا يأمرون بمعروف، ولا ينهون عن منكر، ولا يحاسبون حكاماً ولا ... فما فائدة وجودهم اذن ..؟ وكان بطن الأرض خيراً لهم من ظهرها .

والعلماء الذين قصروا تجاه اسلامهم ، فهزموا في المعركة معركة الاسلام والكفر ، عليهم أن يقتفوا اثر السلف الصالح من العلماء العاملين ليجعلوا من الفشل الذي حـاق بهم نصراً مبيناً ليعيدوا الى الاسلام سيرتـــه الاولى باستئناف حياة اسلامية ، يعز بها الدين وعلماؤه واتباعه ، ويخذل بها الكفر وجنده وانصاره .

ولنعد جميعاً الى الله تعالى اولاً فمنده النصر المبـين ان اخلصنا النية له ، واتبعنا شرعه ، ثم نقوم مستفرغين كل جهودنا لحمـل راية الاسلام ، واقامة حكم القرآن، مضحين في سبيل اعلاء كلمة الله، ولو كره الظالمون والكافرون. ولنبتعد عن الكسل ، ونذهب عن نفوسنا الاستكانة ونـــنزع عنها حب السلامة التي سيطرت على بعضنا . فليست تلـك والله من شيم العلماء الابرار حملة الشريعة السمحاء ، واتباع سيدنا محمد بن عبد الله . ﷺ .

وليكن علماؤنا اليوم حقاً ورثـة الانبياء . يوزعون على المسلمين حكاماً ومحكومين ميراث نبيهم الكريم بالقسطاس المستقيم . لا ظالم فيه ولا مظلوم.

ان الاسلام اليوم ، يريـد من الحكام ، الذين تولوا امر المسلمين في بلادهم من اقصاها الى اقصاها ، ان يعودوا الى انفسهم فيحاسبوها على ما فرطت في جنب الاسلام ..

وليعلموا ان حكمهم مهما طال ، فانــه قصير في عمر امتهم الطويل وايام العمر تمضي سراعاً ، وضمة القبر بفتنته وسؤاله آتية لا ريب فيها ، وحساب

الله عسير. وعليهم ان يرجعوا الى الاسلام الذي يدعون الايمان به والانتساب اليه فالايمـان يعني التقيد بأوامره . وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، وتطبيق احكامه في جميع شؤون حكمهم ، وحمـل الدعوة اليه ، والقتال في سبيله ، والا كان ايماناً لا ينفع لا في دنيا ولا في اخرى .

وصدق فيهم قوله تعالى (ومن الناس مـن يقولوا آمنا بالله وباليوم الآخر ومـا هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا ومـا يخدعون إلا انفسهم وما يشعرون)[1] .

لقد اعتز العلماء والحكام بالاسلام ، حينما ادى كل منهما واجبه نحوه .

ولكن حين ضيع الاسلام بالقعود عن حمل الدعوة اليه ، والتضحيـة في سبيله . وبالاعراض عن تطبيقه ، والحكم بغيره ، صار حالنا ما نرى اليوم في جميع دنيا الاسلام ، من ذهاب عز ومجد ، وفقدان كرامة وسيادة، حتى طمع فينا اراذل القوم ..

وبعد : فقـد كانت (الاستراحة) الجبرية التي فرضت عليّ في داري والتي امتدت الاولى سنة بالتمام والكمال[2] من نعم الله تعالى عليّ ، فقـد شغفت بالتفتيش في بطون كتب السير والتاريخ والتراجم والطبقات، لمعرفة مواقف علماء السلف الصالح مع الحكام . طيلة وجود الدولة الاسلامية ، منذ ان اقامها سيدنا الرسول الكريم ﷺ في مدينته المنورة الى ان استطاع الكافر المستعمر ان يقضي عليها سنة ١٣٤٣ هـ . فدفعتني هذه المعرفة الى تسجيل تلك المواقف بجزئياتها وكلياتها وجمعها مما تيسر لي ووفقت اليه . ولـمـا جاءت الاقامة

---

(١) آية ٨ و٩ سورة البقرة .

(٢) كانت في عهد الطاغيـة عبد الكريم قاسم في يوم ٢ / ١٢ / ١٩٥٩ م ورفعت في ٢/١٢/١٩٦٠ م .

الجبرية الثانية (١) قمت مستعيناً بالله تعالى الىتنسيقها والاختيار منها والتعليق عليها وكتابة ما يدور في فلكها ولا يخرج عن نهجها . بكتاب فجاءت كما سيرى القارىء الكريم .

ان تلك المواقف التي اقتطفتها من سير العلماء والحكام لمأقصد بها التاريخ اذ ليست من التاريخ ببعيد . بل هي منه في الصميم .

ولم أقصد بهـا ذكر تراجم العلمـاء والحكام . من الذين مضوا الى ربهم سبحانه .

وانما قصدت إلقاء أضواء على تلك المواقف التي اثبت فيهـا العلماء – كما قلت – انهم حقاً ورثة الانبيـاء ، فهي اذن صور لا سير . ليس فيهـا من التفاصيل بقدر ما فيها من ابراز مواطن العبر والاستبصار .

وليس الذين ذكرتهم هم جميع العلماء الذين كانوا قائمين بواجبهم الشرعي ، محافظين على ميراث النبي الكريم ﷺ وانما هناك علمـاء وعلماء . منهم من ذكرهم التـاريخ ومنهم من نسيهم وطوتهم السنون ، ولن يخلو عصر من أمثالهم حتى تقوم الساعة ان شاء الله .

وأود هنا ان أذكر القارىء الكريم الى نقطـة مهمة جديرة بالالتفات اليها ، هي ان مواقف علماء السلف الصالح رحمهم الله جميعاً ، من حكامهم ، في غلظـة الكلام ، وشدة الانكار وعظيم المحـاسبة – من الذين سنذكر حوادثهم – ومن وصف العلمـاء لبعض حكامهم بالظلم والجبروت والغرور وبشيء من الابتعاد عن شريعة الاسلام . التي امروا ان يحكموا بهـا حكمهم

---

(١) وذلك يوم ١٩٦١/٨/٧ ورفعت في اليوم المسمى بيوم العفو العام ١٩٦١/١٢/٤ الذي شمل جميع السياسيين بل السراق والمجرمين .

وسلطانهم ، وان كان قد وقع من بعضهم ذلك ، الا انه قـد حصل بهم من الخير الكثير للمسلمين ما لم يحصل مثله بمن جاء بعدهم ، أي والله .

وهؤلاء الحكام الذين عاصروا علماءنا الأبرار : ما كانوا يكرهون الاسلام ولا يستكبرون عن حكمه وتحكيمـه ، بل كانوا يطبقونه . ويرعون شؤون المسلمين على اساسه ، وأعلنوا الحرب على أعدائه ، ودافعوا عن بيضة المسلمين وحموا حمى الاسلام . ولكن مع ذلك ، فقد نالت الدنيـا من بعضهم ، بعض الشيء ، فحملهم على اتبـاع الهوى في بعض الأمور . حرصاً على الحكم والسلطان . وما اعظم فتنـة الحكم والسلطان !! فلم يخلُ حكمهم من مظالم بارزة وسيئات ظاهرة جعلت العلماء يقفون في وجوههم منكرين عليهم تلك المظالم عاملين على رفع تلك السيئات بذلك . وقالوا عنهم مـا قالوا .. لأن العلماء أرادوا منهم ان يكونوا على مثل ما كان عليـه الخلفاء الراشدون – اذ هو المطلوب شرعاً من كل حاكم مسلم في كل حين – ووزنهم بمن كان قبلهم. فخفوا في الميزان ، فظهر التخلف وانكشف التنكب ، فلا يتوهم احـدنا ان الذين سنذكرهم من الحكام وموقف العلماء منهم ، انهم من أعداء الاسلام ، او من الكارهين له .

فكان ما كان مع أمر العلماء معهم .

وان كان أمر العلماء السلف الصالح مع هؤلاء الحكام وهم على مـا ذكرنا فكيف يكون أمر علماء اليوم من حكامهم وهم على ما هم عليه ؟؟

ان تاريخ العلماء والحكام من سلف الأمـــة ، حافل بمواقف الاستبصار ومواطن الذكرى ومملوء بالدروس النافعة الرائعة ، فنحن معشر العلمـــاء ، في جميع أنحاء البلاد الاسلامية ، أحوج ما نكون اليوم الى الاتعـاظ بمواقف سلفنا من السادة العلماء رحمهم الله تعالى الذين تحلوا بصفة العلم والعمل ، والتقى والزهد ، والجرأة في الحق ، والصلابة في التمسك بالعدل والمحافظة على حدود الشرع ، وحمل الدعوة الى الاسلام لإقامة شرعه في الارض وتحكيم أنظمته في

الدنيا والوقوف في وجه الحكام الظالمين الذين اعرضوا عن الله فأعرض الله عنهم . وبئست عاقبة الظالمين ، لنعيد الى الاسلام سيرته الاولى ولنستأنف حيــاة اسلامية كريمة ، يعز بها الدين وعلماؤه وأتباعه ويخذل بها الكفر وجنده وأنصاره، ولتكون كلمة الاسلام هي العليا ، وكلمة الكفر هي السفلى ، والله بما تعملون خبير .

وما أحوج حكام اليوم في بلاد المسلمين الى الاتعاظ بمن هلك من الحكام الظالمين والتأسي بمن افضى الى ربه مرضياً بعد إسلام حكم به ، وعدل اقامه وخير نشره .

ان حكام اليوم بحاجة أكيدة الى من يذكّرهم ، ويبصارحهم بحالتهم ، ويدلهم على مواطن الداء ونافع الدواء بعد هـذا الذي صرنا اليه – انه والله مآل ما كان يطمع بمثله عدو لئيم وأثيم ، وكافر مستعمر عنيد . والمسلمون ايضاً ما احوجهم الى معرفة شيء عن غيرة اسلافهم على الدين وأحكامه ، ووقوفهم في وجه حكام زمانهم .

ان مسؤولية الاسلام تقع عليهم كذلك ، ولن ينجوا من الاثم ان قصروا في جنب الاسلام وأهملوا حملة الدعوة اليه . قال تعـالى : « فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسألن المرسلين » [1] عسى ان تكون هـذه المعرفة محفزاً لعزائمهم الفاترة التي كادت ان تموت ، وأخيراً وليس آخراً فان هذا الكتاب كما ذكرت كتب في فترة – الاستراحة – الجبرية لذا فهو يعبر عن انطباعات خاصة وإحساسات معينة يدركها القارىء اللبيب .

و « قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

عبد العزيز البدري

بغداد ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥/١٢/١ م

---

(١) آية ٦ سورة الاعراف .

العلماء والحكام في العصر الإسلامي

لم ترفل الأمة الاسلامية بالسعادة الحقة والرفاهيــة والأمن ، ولم تشعر بالعزة والسيادة الكاملتين في الارض إلا في ظل حكم الاسلام – ما في ذلك شك – ولم ترتح هذه الامة من حكام بمثل مـا ارتاحت حين تولى أمرها حكام مسلمون ، آمنوا بالله واليوم الآخر وحافظوا على كتاب الله وسنة رسوله ، ووقفوا عند حدودهمـا ، والتزموا بأحكامها . حضروا المساجد مع الرعية ، وفتحوا لهم الأبواب ، يكرمون الزائر ، ويحترمون العـالِم ويجلون الفقيه ، يسمعون منهما النصح والارشاد، ويتقبلون المحاسبة والانكار، أما الجهـاد في سبيل الله فقد كان رائدهم ، لم يتخلوا عنه في أحلك الظروف التي مرت بهم ، لأنهم آمنوا بقول الصديق الأعظم سيدنا ابي بكر رضوان الله عليه « ما ترك قوم الجهـاد إلا ذلوا » لذلك كثرت الفتوحات الاسلامية في زمانهم ، وكانوا قادة الفتح الاسلامي العظيم ، تلك الفتوحـات التي انقذت البلاد المفتوحة من جور الاديان وظلم الحكام وفساد المجتمع ، ولا زالت آثار تلك الفتوحات العظيمة قائمة في العالم ، وتلك حقائق ثابتة لا ينكرها إلا من خبثت طويته وفسد عقله وكان ذيلا لأعداء الاسلام يردد ما يقولون ويصدق ما يفترون . كل ذلك من اجـــل الاساءة الى الاسلام والطعن بحكمه العادل الذي ارتضاه المولى الكريم سبحانه وتعالى لعباده المسلمين .

إن بعض المؤرخين من سلف هذه الامة، ذكروا حوادث لمظالم اقترفها بعض الحكام وإساءات ارتكبوها أثناء تطبيقهم لأنظمة الاسلام ، لذا قام العلماء بواجبهم الشرعي فأنكروا تلك المظالم وعملوا على إزالة تلك الإساءات، ووقفوا المواقف الجريئة أمامهم في هذا السبيل ، لأن العلمـاء ، وهذا شأنهم في كل زمان ، يريدون من الحكام أن يكونوا مطبقين لأحكام الشرع محسنين في تنفيذ أحكام الاسلام ، فلا ظلم يقع ولا إساءة تحدث .

فإذا أحدث حاكم اساءة او ارتكب مظلمة سواء أكانت عن سوء قصد او عن نية حسنة ، فإن من واجب العلماء ان ينكروا عليهم ذلـك وأن يحاسبوهم عليه ، حفظاً على بيضة الاسلام ، ورعـاية لشؤون المسلمين ، بل يعتبرون ذلك نصرة لهم مصداقاً لقول الرسول الأعظم ﷺ « أنصر أخاك ظالماً او مظلوماً قلت يا رسول الله انصره مظلوماً فكيف أنصره ظالمـاً ؟ قال : تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه »[1] .

ولم ينج الحكام من محاسبة العلماء لهم وإنكارهم عليهم ، رغم مـا كانوا عليه في احوالهم بصورة عامة تجاه الإسلام ، من تطبيق احكامه ورعـاية المسلمين على اساسه ، والقيام بفريضة الجهاد ، ولم يشفع ذلك لهم .

إلا ان بعض الحكام كانت تضيق صدورهم لهـذه الافكار ، ولم يستسيغوا مواقف العلماء معهم ، حرصاً منهم على هيبة الحكم وحباً في السلطان ، او لغفلة ينسون الله فيها . وسبحان من لا يغفل . ولا يخطىء .

لذا فان الحكام الذين عاصروا علمـاءنا الابرار من الذين ذكرت اخبارهم وسطرت حوادثهم ، وموقف العلماء منهم ، قـد حصل بهم خير كثير للاسلام وفضل عظيم للمسلمين اذ كانوا يطبقون الاسلام عقيدة ونظامـاً ، والدليل على ذلك :

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

ان الذي يطبق نظام الاسلام ويرعى عقيدته عملياً ، همـــا شخصان في الدولة ، الاول القاضي الذي يفصل الخصومات بين الناس ، ويخبر بالحكم على سبيل الالتزام ، والثـــاني الحاكم الذي يحكم الامة سواء سمي هذا الحاكم امير المؤمنين او الامام او السلطان .

أما القاضي فمن الثابت بشكل قطعي ان جميع القضاة الذين تولوا القضاء منذ عهد الرسول الاعظم ﷺ الى انتهاء الحكم الاسلامي في الدولة العثمانية ، كانوا يفصلون الخصومات المعروضة امامهم وفق احكام الاسلام ، سواء أكان ذلك في القضايا الجزائية أم الحقوقيـة أم في قضايا الزواج والميراث ممـا سمي بالأحوال الشخصية . أم في البينات وسائر المعاملات ، وكانت محكمة القضاء واحدة تقضي في كل الأمور حسب أحكام الشرع ، ولم يرو أن محكمة قضائية في طول بلاد الاسلام وعرضها ، قضت بقضية واحدة على غير أحكام الشرع ، وأقرب دليل هو السجلات الخاصة بتلك المحاكم ، والتي ما زالت محفوظة في العراق ومصر والشام والقدس واستانبول . وبقي الحال كذلك الى أن فصلت المحاكم الى شرعية ومدنية ، وعند ذاك أخذت القضايا والخصومات المعروضة أمام المحـاكم تقضي بغير أحكام الاسلام ، وذلك في سنة ١٣٣٦ هـ ١٩١٨ م حين سقطت آخر دولة اسلامية على يد الكافر المستعمر حتى ان القوانين التي بدأت تدخل بلاد المسلمين في سنة ١٨٥٧ م كقانون الجزاء وقـانون التجارة وقانون الحقوق فانها لم توضع موضع التطبيق الا بعد ان نالت موافقـة شيخ الاسلام – كبير العلماء – وأفتى بجوازها بأنها لا تخالف الاحكام الشرعيـة حتى ان العلمـــاء لم يروا أي مبرر لإدخال القانون المدني الى البلاد الاسلامية ولذلك وضعت (المجلة) كمواد قـانونية في المعـاملات مستندة على الاحكام الشرعية حسب فهم واضعيها ، كل ذلك يدل بوضوح على ان المحاكم القضائيـه وقضاة المحـاكم كانوا يحسمون جميع القضايا على أساس أحكام الاسلام ، ولا زالت البلاد التي لم يدخلها الكافر المستعمر بجيوشه وان دخلها بنفوذه تقضي محاكمها بأحكام الشرع .

اما الحاكم فقد كان يطبق انظمة الاسلام ويبرز هـذا التطبيق في خمسة امور ، في الناحية الاجتماعية ، والناحية الاقتصادية ، والناحية التعليمية ، والناحية السياسية داخلياً وخارجياً ، وناحية الحكم ، وهـذه طبقت جميعها من قبل الحاكم في مختلف العصور الاسلامية ، أمـا الناحية الاجتماعية وهي علاقة الرجل بالمرأة بالزواج والطلاق والنفقة وجميع ما يتصل بهـذه العلاقة وهي التي سميت (الأحوال الشخصية) فانها لا تزال قائمة وموجودة في جميع البلاد وان غير بعض الحكام جزيئات فيها ، رغم ابتعاد الحكام عن الاسلام كنظام وعدم تطبيق احكامه في نواحي الحياة .

أما الناحية الاقتصادية ، فانها تبرز في مسألتين ، الاولى كيفية اخـذ الدولة للمال من الأمة والثانية كيفية انفاق هذا المال ، أما من حيث أخذه ، فكانت الدولة الاسلامية تأخـذ الزكاة على الاموال والاراضي وعروض التجارة والمواشي والزروع والثمار ، باعتبار الزكاة عبـادة ، لتقوم بتوزيعها على الذين لهم حق بها ، من الاصناف الثمانية المقررة شرعاً ، كما تأخذ الخراج والجزية وضرائب الكمارك بحكم اشرافها على التجـارة في الصعيدين الداخلي والخارجي ، وكانت تقوم على ادارة مـا هو داخل في الملكيـة العامة ، او ملكية الدولة ، كالمعادن والقنوات وغيرها من موارد بيت المال ، امـا من حيث انفاق هذه الاموال فانها كانت توزعها حسب الاحكام الشرعية ، وقد طبقت احكام النفقة على العاجز وحجرت على السفيه والمبذر ، وأوجـدت اماكن لاحكام الفقراء والمعسرين ، ونفذت احكام العمل والعمال ، ومنعت الاحتكار والغش والاستغلال وكل وسائل الكسب غير المشروع .

ومن الحق أن نقول ان بعض الحكام كانوا يسيئون تطبيق احـكام الشرع في هـذه الناحية وكان البعض الآخر يحسن غاية الاحسان في رعاية هـذه الناحية ، تبعاً لنفسية الحاكم ومدى التزامه بالاحكام الشرعية ، وموقف الامة منه خصوصاً العلماء، فـاذا حصل لبعض الحكام أن يقصر ويسيء فلا يعني هذا عدم التطبيق .

أما الناحية التعليمية فــان الاساس الذي كان قائماً على هذه الناحية هو الاسلام بتركيز العقيدة الاسلامية حين التعليم ونشر الاحكام الشرعية المتعلقة بشؤون الحياة . وتعليم الثقافـــة الاسلامية والعلوم الأخرى . حتى اصبحت البلاد الاسلامية الخاضعة لحكم الاسلام موئلاً للعلوم ومقراً لدراسة المعارف . وكانت جامعاتها والمعاهد العلمية سواء اكانت في المساجد او في دور خاصة ، محط انظار العلماء واهل المعرفة ورواد العلوم وكان لتلك الجامعات والمعاهد الاثر العظيم في توجيه التعليم ونشر الثقافة في مختلف العلوم ، ومن هذه المعاهد والجامعات تخرج كبار العلمـاء والفلاسفة والمفكرون الذين لا زالت ابحاثهم ودراساتهم ومؤلفاتهم ، موضع الاكبار ، ومن معينها يستقي المفكرون ويورد المربون اليوم ، وكل الذي حصل من تقصير في هــذه الناحية هو ما كان قائماً في العصور المتأخرة من قلة المدارس ونضوب العلم والمعرفة .

أما السياسة الخارجية والداخلية ، ففي الناحيـــة الداخلية كان يطبق نظام الاسلام على الأمة ، وهذا قائم ما دامت الدولة الاسلامية قائمة ، واذا حصلت اساءة في تطبيق بعض تفصيلات نظام الاسلام فـــلا يعني هذا عدم وجوده ، حيث ان المسلمين لم يرتضوا بغير الاسلام نظاماً لهم ، كما لم يستوردوا نظاماً ولم يسمحوا بدخول نظام اجنبي ، بــل لم يترجموا اي نظام في الوقت الذي ترجموا الفلسفات الاجنبية والعــلوم والمعارف ، وفي الناحية الخارجية كانت علاقة الدولة الاسلامية بغيرها من الدول قائمـــة على اساس الاسلام ، وكانت الدول في العالم تنظر الى الدولة القائمـــة في العالم الاسلامي ، دولة اسلامية فاحكام المعاهدات والجهاد وسائر الاعمال السياسية كانت تستنبط من ادلة الشرع وقد خلف العلماء ثروة هائلة من الافكار الاسلامية في هــذه الناحية وغيرها .

أمـــا نظام الحكم المطبق في العصور الاسلامية ، فقد كان نظام حكم اسلامي ، فكان جهازه اسلامياً حيث قام على سبعة اركان (١) الخليفة وهو

رئيس الدولة (٢) المعاونون للرئيس في الحكم (٣) الولاة في الاقاليم (٤) القضاة (٥) الجيش (٦) الجهاز الاداري (٧) مجلس الشورى ، وهـذا الجهاز كان قائماً . وتفصيل ذلك :

إن الأمة الاسلامية من لدن حياتهم في المدينة المنورة، حتى سنة ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م كان عليهم خليفة، وان سمي في بعض العصور بالسلطان او الملك[1] والمعاونون وهم الهيئة التنفيذية فقد كانوا موجودين في جميع العصور وان وصفوا بلقب الوزراء في بعض العصور كالعصر العباسي أمـا الولاة والقضاة والجهاز الاداري فقد كانوا موجودين كذلك ولا زالت هذه المناصب موجودة في بعض الاقطار في العالم الاسلامي .

اما الجيش فوجوده لا يحتاج الى دليل إذ هو صاحب الفتوحات الاسلامية العظيمة وهو القوة الجبارة التي كانت ترهب الكفار في العالم .

أما مجلس الشورى فإن من الأمانة في البحث ان نقول انه لم يعن به من قبل الحكام عناية حقة إلا في زمن الخلفـاء الراشدين رضي الله عنهم . فقد كان غير هؤلاء يكتفون بأخـذ المشورة من افراد معينين وثقوا بهم ، وهم الذين سموا بأهل الحل والعقد في بعض العصور ومنهم من اتخـذ من معاونيه او من معاونه الأقدم سبيلاً لتحقيق الشورى ، وان كان من الواجب ان يكون هذا المجلس قائماً لأنه من حق الامة على الخليفـة ، لذا فالذي حصل في العصور المتأخرة في مسألة الشورى تقصير ، ومع ذلـك فان الحكم كان اسلامياً ، ولأن الشورى هي لأخذ الرأي بخلاف المجالس النيابية في النظـام الديمقراطي فهي للحكم .

---

(١) الملك حسب واقعه الذي كان قائماً يختلف عن مفهوم نظام الملكية في النظم الديمقراطية في الوقت الحاضر . ولذلك لا تصح هذه التسمية على خليفة المسلمين بعد ان عرف وشاع مفهوم الملك في الوقت الحاضر .

وكل الذي يؤخـــذ على جمهرة الخلفاء هي مسألة بيعـة الخليفة ومسألة استعمال القوة المادية في تولي الحكم . امـا البيعة يومئذ فقد كانت تؤخذ لابن او أخ او من اسرة الخليفـة القائم في حياته ، ثم تجدد لذلك الشخص بعد فقدان ذلك الخليفة وهذه إساءة لتطبيق حكم البيعة ، إذ البيعة شرعـاً تعقد للرجل الذي ترضاه الامة وتختاره بعد فقدان خليفتها ، وإساءة تطبيق حكم البيعة هذه هي الشبهة التي حسبها البعض بأن نظام الحكم الاسلامي كان وراثياً في جل العصور الاسلامية وهو ما يعبر عنه بالنظام الملكي ، وهذا يتنافى مع احكام الاسلام في نظام الحكم . والحقيقة ان ولاية العهد او الحكم الوراثي لا صلة له بالاسلام ، وبالتالي لم يطبق في جميع العصور الاسلاميـة ، حيث ذكرنا آنفاً ان الذي حدث في تلك العصور هي ان الخليفة كان يقوم بنـاء على بيعتين الاولى في حياة الخليفة القائم والثانية بعد وفاتـه ، ولم ينصب خليفة دون بيعة ، فكانت البيعة تؤخذ في تلك العصور من اهـــل الحل والعقد ، ثم أُخذت من شيخ الاسلام – كبير العلمـاء – وهذا يتناقض مع مفهوم الوراثة او ولاية العهـد ، لوجود البيعة الثانية وهي الاصل ، والاولى كانت على سبيل الترشيح الالزامي ، ولو اكتفى بالاولى لصح القول وكانت تلك الشبهة ، حقيقة قائمة لا شبهة، والبيعتان هاتان لا يقرهما الاسلام ، وانما بيعة واحدة تعلن فيها الأمة عمن تريده خليفة عليها بدون ضغط او إكراه ، يبايعها هو على تطبيق الاسلام وتبايعه هي على السمع والطاعة .

اما استعمال القوة المـادية في تولي الحكم ، وفرض شخص معين نفسه على الامة ، وهي لا تريده ولا ترضاه حاكماً عليهـــا ، فهذا لا يجوز شرعاً ولا يقره الاسلام ، ولو ان هذا الشخص اعلن انه يطبق الاسلام ويرعى الامة على اساسه ، إذ الأمـــة هي صاحبة السلطان ، ولها الحق كل الحق ، ان تختار شخصاً معيناً ليكون نائباً عنها في الحكم وتولي السلطان .

وهناك شبهة اخرى ، وهي حدوث بعض الاساءات، ووقوع بعض المظالم

من قبل بعض حكام الدولة الاسلامية، فحكم البعض على هذه الوقائع التأريخية، بعدم تطبيق الاسلام في ذلك الحين ، ان هذه الشبهة ستزول حتما اذا لوحظت هذه الامور .

اولاً : ان تأريخ الحكم الاسلامي ، وأحوال الحكام ، لا تؤخذ من أعداء الاسلام او من المبغضين له ، او من الذين دخلوا في الاسلام نفاقـاً ، لتحقيق مآرب خاصة ؛ وانما يؤخذ هذا التأريخ من ثقاة المؤرخين المسلمين المؤمنين ، مع التحقيق الدقيق في ذلك اذ ان كثيراً من الحوادث نقلت بزيادة فيهـا ، وان بعض المؤرخين لم ينصفوا بعض الحكام ، وان عامـل الاختلاف المذهبي كان له اثرة في كتابة الحوادث، ومنهم من خضع لأهواء الحكام حين الكتابة عن الذين سبقوهم في الحـكم ، فضلا عن انه لم يكتب تأريخ المجتمع الاسلامي كتابة تمحيصية دقيقة ، وان الذي كتب هو أخبار الحكام ، وهذه لا تعطي صورة واضحة عن المجتمع الاسلامي ، ولا عن حكم الاسلام .

ثانيـــاً : ان الباحث المدقق لا يجوز له ان يستعمل القياس الشمولي عن المجتمع ، من تأريخ بعض افراده او حكامه ، كما لا يجوز له أن يحكم على نواحي المجتمع كلها بالفساد ، لفساد حاكمه ، او لفساد ناحية فيه ، فليس من الصواب ان يحكم على المجتمع في العصر الأموي من تأريخ يزيد بن معاوية ، او الحجـاج بن يوسف الثقفي ، او يحكم على المجتمع في العصر العبـاسي بالفسق والمجون والجواري الحسان ، من قراءة كتاب الاغاني لأبي الفرج الذي ألـف عن اخبار اهل الهوى والمجون والشعراء ، وانما الصواب أن يحكم على المجتمع بالصلاح او بالفساد من دراسة جميع نواحي المجتمع .

ثالثاً : ان معرفة احوال المجتمع وحياة أهل العصر تكون بمعرفـة نوعية النظـام الذي كان مطبقاً ومدى تطبيق الحاكم والمحكوم له ، وهـذه المعرفة تكون بدراسة ناحيتين والاطلاع على سيرهما بدقة .

الاولى – معرفة مصادر النظام المطبق في الحياة في ذلك العصر .

الثانية – معرفة مصادر التاريخ الذي يذكر كيفية تطبيق النظام .

أما النظام فتعرف نوعيته وتفهم صحة معالجاته لمشكلات الحياة ، ويحكم على صلاحه وسلامته او على فساده وخطئه من معرفة مصادره الفقهية التي استند عليها .

ومصادر نظام الاسلام هي الكتاب والسنّة وما استند عليهما وأرشد اليهما، وهذه المصادر مفصلة مع الاحكام المستنبطة منها في الكتب الاسلامية، التي تعرف بكتب الفقه . وعلى هذا الاساس نجد ان النظام الذي كان مطبقاً في المجتمع في العصور الاسلامية كلها هو نظام اسلامي محض ، حيث لم يوجد ولا نص فقهي واحد من غير الاسلام مما يدل على أن الاسلام كان مطبقاً وحده ، ولو لم يكن كذلك ، لذكرت نصوص او نص واحد لمعالجة مشكلة من غير الاسلام .

أما مصادر التاريخ وهي التي تذكر كيفية تطبيق هذا النظام من قبل الحاكم او المحكوم وتذكر احوال المجتمع وحياة اهل العصر فإنها تكون بدراسة الأمور التالية :

كتب التاريخ : ان بعض هذه الكتب التي بين أيدينا اليوم خضعت للظروف السياسية وكانت تحشى بالتزوير والبهتان مدحاً او ذماً وبالزيادة والنقصان اما بجانب الذين كتبت في ايامهم واما ضد الذين كتبت عنهم في ايام غيرهم (*) ، ومن البديهي ان هذه لا قيمة لها من الناحية التاريخية الموثوقة

(*) واقرب دليل على ذلك تاريخ الاسرة الهاشمية في العراق فانها وصفت قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بخدمة الامة ورعاية الدين والنزاهة في الحكم وغير ذلك من الاوصاف المذكورة في الكتب التي ألفت في عهدهم، ولكن بعد ثورة ١٤ تموز وصفت بالخيانة والمروق من الدين وفساد الحكم وألفت في ذلك كتب ، ومثل ذلك تاريخ اسرة حميد الدين في اليمن وتاريخ الاسرة العلوية في مصر .

وعلينا بالكتب التاريخية المعتبرة التي لا يتطاول اليها الشك ، ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة انه منحها مؤرخين يندر ان نجد امثالهم في العالم كله لما بذلوه من جهد صادق في تحري الحقائق بكل أمانة واخلاص .

واذا درسنا هذه الكتب بنزاهة علمية وقلبنا أوجه حوادثها وربطنا بين تلك الحوادث تاريخياً وواقعياً نجد أن المجتمع في العصور الاسلامية ، كان مجتمعاً اسلامياً وان اهله من حكام ومحكومين كانوا يطبقون الاسلام . ولم يطبقوا غيره ، بل لم يترجم العلماء نظام غيرهم ولو للاطلاع والرد كما فعلوا في الفلسفة ، لأنهم كانوا في غنى عن ذلك .

الآثار : والآثار مصدر مهم من مصادر التاريخ ، وهذه اذا درست بدقة فإنها تعطي حقائق تاريخية ، ومن يتتبع آثار المسلمين في بلادهم لم يجد أثراً غير اسلامي بل ان المسلمين تركوا لنا آثاراً عظيمة دلت على ذوقهم الاسلامي السليم ، وعلى نفسيتهم الرائعة وعلى عقليتهم الاسلامية المبدعة .

الرواية : الرواية من اصح المصادر التي يعتمد عليها في نقل الحوادث والوقائع وذلك كشأن كتب الحديث التي نقلت سنة الرسول الكريم ﷺ وكتاريخ الطبري وتاريخ ابن كثير ، ومن مجموع هذه المصادر الثلاثة ١ – الكتب ٢ – الآثار ٣ – الرواية ، مع معرفة مصادر النظام ، يكون الحكم على النظام وعلى كيفية تطبيقه ، وإذا لاحظ الدارس المدقق ذلك كله ، يحصل على نتيجة طيبة ، ويحكم على ان المجتمع في كل العصور الاسلامية التي كانت تحكمه الدول الاسلامية ، كان الاسلام مطبقاً وقائماً .

ومن الجدير بالذكر اننا لا ننكر حدوث اساءات او وقوع مظالم في بعض العصور الاسلامية ، وفي ظل دولة الاسلام ، بل ان حوادث كتابنا هذا التي قام عليها الكتاب لتدل دلالة واضحة على عدم الانكار ، ولكن نقول ان حوادث الظلم ووقائع الجور من قبل بعض الحكام لا تعني ان الحكام فساق

فجار كافرون مـارقون كما يتصور البعض او يصور البعض ، ولا نعني ان المجتمع غير اسلامي .

وإنمـا نعني ان الأمـــة الاسلامية كانت في تلك العصور من اسعد الأمم لتطبيق احكام الاسلام عليها ، وتلك سعادة الامة في كل حين ، وان لواء الاسلام كان خفاق البنود في الارض ، وان دولة الاسلام كانت زهرة الدنيـا وكانت أمنية الشعوب المظلومة ان تستظل بلوائها ، وان الحكام كانوا مسلمين وان وقعت اساءات منهم ، ولذلك وقف العلمـاء من بعضهم موقفاً صلبــاً وشديداً لوقوع اساءات منهم لم تصل الى حد تغيير أحكام الشرع او تبديل حكم من احكام الاسلام ، موقفاً لم يعرف الخور والاستكانة ، بل منهم من قدم رأسه لمقصلة السياف او ظهره للسياط والجلاد ، حسبة لله تعالى، وقياماً بالواجب الذي فرضه الله تعـالى على العلمـاء حملة الشرع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومـا نهى بعضهم عن مداخلة الحكام وتحريم التودد اليهم الا لحمـــاية صوت العلماء في وجه كل طاغية مما قد يصيبه من ضعف آت من تلك المداخلة ، ومنهم من تعاون مع الحكام في اقامـة الحق ونشر الخير عن طريق تولي المناصب القضائية ووظائف الدولة ، ومع هذا وذاك فقد وجـد منهم – العلماء – من يلبس البـــاطل ثوب الحق ويزين للحاكم مظالمه ويبرر سيئاتـه ان هؤلاء اشتروا الدين بعرض زائل من الدنيـا فعليهم وزر صنيعهم ولا غرابة في ذلك لأنهم من البشر وليسوا ملائكة وهم يخطئون لأنهم من بني آدم (كل بني آدم خطـاء وخير الخطائين التوابون).

سياسة العلماء والحكام

من أخطر المفاهيم الغربية ، التي أدخلها الكافر المستعمر في بلاد المسلمين، عن طريق غزوه الثقافي: مفهوم – رجال الدين – ومن أخبث التهم وأكذب الحديث التي روجها هذا العدو اللئيم ، ان يشبه خليفة المسلمين بالبابا ، ويشبه

الحاكم المسلم الذي يطبق الاسلام بالحاكم البابوي الذي له القداسة المطلقة ، وله الحكم الفصل في كل أمر وقضية .

إن كلمة (رجال الدين) تحمل مفهوماً خطيراً ، ومعنى فاسداً سقيماً ، وقد استطاع الكافر المستعمر ان يركزه عند المضبوعين بثقافته ، فأصبحنا نسمعه منهم في كل مناسبة بل وصل الامر ان رددها بعض علمـاء المسلمين اليوم ، دون ان يدركوا مفهومها وحقيقة معناها .

إن هذه الكلمة (رجال الدين) اصطلاح اجنبي ، أطلقه الغربيون على القسس والرهبان والأساقفة ، وصفاً لهم ، وتقريراً لواقعهم ، وذلك حينما قامت الثورة الفكرية فيأوروبا تطالب بالاصلاح والتحرر من سيطرة الكنيسة ورجالها ، تلك الكنيسة التي كانت تقف في وجه كل دعوة اصلاحية حسب المفاهيم الغربية وتتهمها بالمروق من المسيحية، الأمر الذي ادى الى بقاء اوروبا قروناً عدة وهي واقعة تحت سيطرة الكنيسة وظلم رجالها ، مما أدى الى التأخر والفساد وشيوع الاضطراب النفسي والفكري وبالتالي المادي .

فرجال الكنيسة كانوا يرون أن الانسان فيه السمو الروحي والنزعة الجسدية ، وان السمو الروحي لا يلتقي مع النزعة الجسدية ، وان المادة منفصلة عن الروح ، ومن هنا نشأ التناقض ، فكان الفصل عندهم بين المادة والروح .

ولما كان ترجيح احدى النزعتين ضغطاً لوزن الأخرى ، فقد حاول رجال الكنيسة التمسك بالسلطة الزمنية، اذ بها يستطيعون الاشراف على النزعتين ، وتحقيق التوازن بينهما ، فيعيش النـاس بهناءة وسعادة .... هكذا كانوا يزعمون .

ولكن لم يستطع رجال الكنيسة الابقاء على السلطة الزمنية بأيديهم ، فقد نازعهم فيها رجال الفكر فانتزعوها من أيديهم ، وتركوا لهم أمور

العبادة والطقوس الدينية يديرونها كيفما يشاؤون، وحسبما يريدونها ، وقد رضي رجال الكنيسة بهذا الحال ووافقوا على هذا الواقع ، ووجدوا في القول المأثور عندهم « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » خير عزاء وسلوان ..

والخلاصة فقد استقل رجال الكنيسة بالسلطة الروحية ، واحتفظ السياسيون بالسلطة الزمنية ، ونتج عن هذا الاستقلال فصل الدين عن الحياة، وفصل الدين عن الدولة والحكم والسياسة وعن شؤون المجتمع وعلاقات الدولة .

وأصبح من جزاء هذا الفصل ، أن صار للدين مفهوم ضيق هو تدبير شؤون العبادة المسيحية ، داخل الكنيسة ، وصار لهذا الدين بهذا المعنى رجاله الخبيرون بشؤونه المتفرغون لخدمته ولتنظيم طقوسه وتراتيله ثم أطلق على هؤلاء — دون غيرهم — كلمة — رجال الدين — وصار مفهوماً ومعلوماً لدى الجميع ان رجال الدين لا شأن لهم في الحكم والسياسة ولا في شؤون الدولة وعلاقاتها ، ولا في أفعال رئيس الدولة وتصرفاته ، وإنما شأنهم وكل عملهم هو في العبادة ، وهو كل الدين ، ومن عمل منهم بخلاف ذلك فقد خرج على سلطان الكنيسة ، وأصبح مارقاً منها منبوذاً من قبل رجال الاكليروس .

كما كان من اثر هذا كله ان صار للدنيا رجال هم رجال السياسة والدولة ، عرف عملهم وخصص منهج تفكيرهم بأنه لا علاقة له بالدين ولا برجال الدين، وبهذا يكمن الخطر وتكون الخطورة لهذا المفهوم وقد ركز فصل الدين ورجاله عن الدنيا ورجالها ، واصبح لرجال الدين ادارة تابعة للكنيسة كما عرفوا بلباس كهنوتي معين تختلف اشكاله وألوانه حسب درجات العلم الكهنوتي كما لهم القابهم الخاصة من مطران وشماس وقس وراهب واسقف وبطريرك وكردنال ثم بابا .

وهنا لا بد من الاشارة الى أن رجال الثورة والسياسيين في اوروبا من

حقهم أن يفعلوا مـا فعلوا تخلصاً من سيطرة الكنيسة وظلم رجالها ، ففصلوا دينهم عن الحياة وشؤونها ومنها الحكم والسلطان ، لأن الدين المسيحي كما هو واقعه ، وكما هي حقيقته دين اخـلاق وعبادة فقط ، لا دين نظام وتشريع لشؤون الحياة كلها ، فليس فيه انظمة للحكم ولا للاقتصاد ولا للسياسة .. الخ وليس فيه دولة تطبق تعاليم المسيحية ، وترعى شؤون الناس في الحياة حسب هذا الدين ، ولكنهم – والحق يقال – ليس من حق رجال الثورة أن يمنعوا القس والرهبان الخ .. من رعـايـة شؤونهم وشؤون الناس ، ويبعدونهم عن الاشتغال بالسياسة والمشاركة في الحكم وما له صلة بالدولة ، لأن من حق كل انسان أن يرعى شؤونه بنفسه لا أن ترعى شؤونه وهو بمعزل عن ذلـك ، ولكن ما الحيلة وقد رضي بذلك القس والرهبان .. فلهم رأيهم وعليهم وزر ذلك، هذا من الناحية النظرية البحتة المقررة التي يحاولون اشاعتها بين المسلمين وفي ديارهم لابعادهم عن الاسلام ولكن هذه الناحية لما لم تكن عملية ومخالفة لفطرة الانسان وغير منسجمة مع حياته فقد خرج عليها الأسقف مكاريوس حين تولى رئاسة الجمهورية في قبرص .

أما الاسلام فليس فيه رجال دين ولا رجال دنيا فكل مسلم هو رجل من رجال الاسلام ، ومن يعتقد بالاسلام يسمى مسلماً والمسلمون جميعاً أمـام دين الاسلام سواء .

وليس في الاسلام سلطة دينية بالمعنى الكهنوتي ولا سلطة زمنيـة منفصلة عن الدين ، بل السلطة واحـدة ، تقوم على اساس الاسلام وتطبق الاسلام وحده ، لأن الاسلام دين والدولة جزء منه ، والسياسة – وهي رعاية شؤون الناس – حكم شرعي من احكامه ، ولأن الاسلام عقيدة ونظام ، اما كونه عقيدة فلأن اساسه يقوم على الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر. وتلك هي عقيدة ، وقد انبثقت عن هذه العقيدة، أنظمة الاسلام في الحـكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، والعقوبات والبينات

والمعاملات الخ .. وهذه الأنظمة احكام شرعية ، استنبطها المجتهدون من الأدلة التفصيلية من الكتاب الكريم والسنة المطهرة وما استند عليهما وأرشد إليهما .

وقد سمى الاسلام الذين تخصصوا في فهمه بالعلماء والفقهاء والمجتهدين ، أما العلماء فلقوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) [١] . وقوله عليه الصلاة والسلام (أن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ... الحديث) [٢] . أما الفقهاء فلقوله تعالى (ليتفقهوا في الدين) [٣] ، وقوله ﷺ (من يرد الله بـه خيراً يفقهـه في الدين ويلهمه رشده) [٤] . وأما المجتهدون فلاقراره ﷺ لقول معاذ بن جبل حينما بعثه الى اليمن حين سأله ﷺ بم تحكم إن لم تجد في الكتاب ولا في السنة فقال : (أجتهد رأيي ولا آلو) [٥]

ولم يشترط الاسلام لباساً معيناً للعلماء فكل من يفهم الاسلام يكون عالماً به مهما ارتدى من لباس ، وكل من توسع في فهم الاسلام يكون فقيهاً وكل من كان قادراً على استنباط الاحكام الشرعية من أدلتها يكون مجتهداً .

أما ما نراه على رؤوس العلماء من العمائم فهو لباس جميع المسلمين في العهد الاسلامي الزاهر ، فالعلماء في ذلك العصر لم يتميزوا بلباس ليعرفوا به ، وإنما عرفوا بالعلم والعمل ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إمام العلماء وسيدهم كان جالساً مع اصحابه فجاء اعرابي فقال: أيكم ابن عبدالمطلب؟

---

(١) الآية ٢٨ فاطر .
(٢) رواه مسلم والبخاري وأصحاب السنن .
(٣) الآية ١٢٢ التوبة .
(٤) رواه الترمذي وابن ماجة والبيهقي .
(٥) رواه ابو داود والبغوي في مصابيح السنة .

فقالوا : هذا الابيض المتكىء ، فقال الرجل الاعرابي : يا ابن عبد المطلب ، فقال النبي الكريم : (قد اجبتك).. فهذا الخبر [1] ، وأمثاله كثير ، يدل على انه عليه الصلاة والسلام لم يتميز على اصحابه بلباس معين ، ولكن لم يبق لباس العمامة زياً للمسلمين وإنما تبدل بأزياء اخرى اقتبسوها من الآخرين وقلدوهم فيها تقليداً ، إلا أن العلماء ظلوا على زيهم الاول – وان اختلفت اشكال العمامة – فهم اذن لم ينفردوا بزي وإنما بقوا على زيهم السابق ، ولكن تغيير لباس المسلمينَ لأزيائهم جعل زي العلماء الثابت متميزاً عليهم . وليس من بحثنا هنا بيان الزي الذي يجوز والزي الذي لا يجوز ، وانما نريد ان نبين فقط ان العلماء لم يبتدعوا هذا الزي الذي هو عليهم اليوم وانما هو لباس المسلمين الاولين جميعاً او هو شبيه به ، وليس من الواجب شرعاً ان يرتدي العمامة والجبة كل عالم، على ان هنالك رواية تشير ان القاضي ابا يوسف رحمه الله اول من خصص للعلماء زياً معيناً .

أما الفصل بين دوائر المحاكم الشرعية والمحاكم المدنية فلم تكن في الاسلام. ولا يجوز أن تبقى ما دامت تشعر بفصل الدين عن شؤون الدولة . فالمحاكم واحدة تحكم بالاسلام وحده ، كما ان الاسلام لا يقر كل دائرة تشعر بهذا الفصل .

لذلك كان في الاسلام فقهاء وعلماء ومجتهدون وليس فيه رجال دين بالمعنى المفهوم اليوم . ثم ان هؤلاء العلماء والفقهاء والمجتهدين مهمتهم في الحياة حمل الدعوة الاسلامية الى الناس ، وبيان أحكام الله في كل مشكلة وحادثة ، ومن واجبهم مناقشة الحكام ومحاسبة المسؤولين وإبداء النصيحة لهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا هو العمل السياسي لأن السياسة، كما مر (رعاية شؤون الناس) ومنهم من تولى رئاسة الدولة واشترك في تولي

---

(١) رواه صاحب كتاب سراج الملوك .

المسؤولية في الحكم وهذا شيء اعتيادي يتفق مع طبيعة الاسلام، لأن الدولة تحكم بالاسلام ، وتتولى شؤون الرعية على اساسه ، بل من شروط الافضلية لرئيس الدولة الاسلامية ان يكون عالماً او مجتهداً .

وبعبارة اخرى إن العالم بالاسلام يقوم باداء العبادة ويعلمها كما يشتغل بامور السياسة ، ويدعو الى التمسك بالاخلاق الاسلامية كما يدعو الى المحافظة وحسن تطبيق انظمة الاسلام سواء بسواء يحاسب الحكام ويناقش المسؤولين ويعظ الرجال ويهدي الاطفال . والعالم في الوقت الذي يكون فيه حليف محراب وأليف تقوى ، يكون بطل جهاد وفارس ميدان ، وحين نراه واعظاً ومدرساً في المسجد نراه خطيباً ومرشداً في مجلس الشورى ، فيه الاستعداد الكامل ليكون جندياً وقائداً جامعاً بين الرحمة والشدة ، يفهم الحياة فهماً خاصاً يؤهله هذا الفهم المستنير أن يستولي على الدنيا بحقها وينال الآخرة بالسعي لها ، وما ينطبق على العالم ينطبق على كل مسلم لأن مسؤولية الاسلام تقع على عاتق كل مسلم ، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام (أنت على ثغرة من ثغر الاسلام فلا يؤتين من قبلك [1]) . فالمسلمون أجمع مشتركون في المسؤولية وان كانت مسؤولية العلماء اعظم واوثق ويؤيد عموم مسؤولية المسلمين قول النبي الكريم ﷺ (من اصبح – والخطاب عام – لا يهتم للمسلمين فليس منهم [2]) .

أما فيما يتعلق بالحاكم فقد ذكرنا نشوء السلطتين اللتين اصبحتا في اوروبا بعد ثورتها الفكرية ، السلطة الروحية وهي بيد رجال الدين والسلطة الزمنية الدنيوية وهي بيد رجال الفكر .

---

(١) رواه الحاكم ، فالرسول الكريم في هذا الحديث يشبه مسؤولية الاسلام كالسور الواحد الذي له ثغور وكل ثغرة يحرسها مسلم ، فــلا يمكن لمسلم أن يترك حراسة ثغرته ليحرسها مسلم آخر لأن الآخر له ثغرة يحرسها ايضاً .

(٢) رواه البيهقي في شعب الايمان ورواه الطبراني وابو نعيم .

واستمرت هاتان السلطتان في اتفاق وتكافل بينهما ، ولكن لم يمر عليهما وقت طويل ، حتى ادعى رجال السلطة الروحية حقوقاً وانتحلوا لهم صفات وبمرور الزمن استطاعت هـــذه السلطة أن تجذب الناس لها ، وتجمّع حولها الجموع ، فهيأت للأمر عدتـــه ، وحسبت الحساب لكل طارىء ، فاتخذت لهـــا جيوشاً واساطيل . وعند ذاك فرضت سلطانها وارادتها على السلطة الزمنية ، حتى اصبحت القيم والوصي عليها ، فـــلا يبرم امر إلا عن طريقها ولا ينفذ قول إلا إذا ارتضته واقرته ، ولكن لمـا ضاق بعض المـلوك ذرعاً بذلك فـــلم يتحملوا تصرفات تلك السلطة التي أخذت على أيديهم وشلت حركتهم وشاركتهم في الشؤون ، وتدخلت في كل الامـور ، أعلن هؤلاء المـلوك وهم على جانب عظيم من القوة ولا زالوا يتمتعون بسلطتهم ، أعلنوا المقاومة والثورة واستعملوا السلاح الحربي واطلقوا النيران ، وأخيراً تمكنت السلطة الزمنية من رفع يد تلك السلطة عنها بعد حروب طاحنة لم يشهد لها مثيل في ذلــك القرن ولكن بقيت تحمل الولاء للكنيسة وتنازعها استقلالها حتى تم لها النصر الأخير بحدوث الوحدة الايطالية ١٨٧٠ م ودخول جنودها الى المملكة البابوية .

فمثل هذه الاحداث الخطيرة لم تقع في بـلاد المسلمين اثناء حكم الاسلام ، ولن يسمح الاسلام بوقوعها يوماً ما ، لأنها خلاف طبيعته ، لأنه ليست فيـه سلطتان ، ولم يجعل الولاية على الأمة الاسلامية من قبل سلطتين ، بل السلطة واحدة وهي تعني الحكم والسلطان وهي بيد الأمة وحدها قال تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعمـــلوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم [١]) . فالله تعالى استخلف عباده المسلمين على الحكم والسلطان وقـال تعالى (ولقـد مكناكم في الأرض) [٢] ، (الذين ان مكناهم في

---

(١) الآية ٥٥ النور .
(٢) الآية ١٠ الاعراف .

الأرض[1]) ، أي جعلنا لكم فيها الحكم ، وأعطيناكم السلطان ، والامة تنيب عنها رجلاً منها ليتولى الحكم ، وليطبق الشرع ، ولا تجب طاعته إلا في حدود الاسلام ، فليست لهذا الحاكم قداسة ، كما ليست له السيادة ، وانما القداسة لكتاب الله وسنة رسوله والسيادة للشرع الاسلامي وحده ، (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم)[2] ، (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم)[3] أكمل هذه الآية الكريمة فقال (فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)[3] ، فأين قداسة الحاكم المسلم وأين سيادته ومن حق الامة ان تنازعه اذا اختلفت معه على شيء ، وهذا أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ، يقول في خطابه الاول للمسلمين بعد ان بايعوه على الخلافة والحكم « ايها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني .. الى ان قال .. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم »[4] .

وهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يقول يوماً على منبره : أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمه . فيجيبه أحدهم لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا ، فلا يزيد ان يقول الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه ، فأي قداسة لهذا الخليفة وأي سيادة لهذا الامير ، مع أنهما ابو بكر وعمر رضي الله عنهما ، والمسلمون والعالم كله يعرف من هو ابو بكر ومن هو عمر ..

ثم أن هناك فروقاً كثيرة بين منصب الخلافة الذي يتمتع به الحاكم المسلم وبين منصب البابوية الذي يتصف به البابا المسيحي.

---

(١) الآية ٤١ الحج .
(٢) الآية ٦٥ النساء .
(٣) الآية ٥٩ النساء .
(٤) ص ٢٤٥ ج ١ محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية . الخضري .

فالبابا ينتخبه الكرادلة وهم أرفع الرتب الكهنوتية في الديانة المسيحية الحالية ، وعددهم سبعون، ويبقى البابا في منصبه حتى الموت. والخليفة رجل من المسلمين تنتخبه الأمة وتبايعه على تطبيق الشرع الاسلامي وتستطيع الأمة أن تنزع منه البيعة وتقصيه عن منصب الخلافة في حالة عجزه عن رعاية شؤونها ، او مخالفته للشرع وإساءته اليه .

والبابا بيده النقض والابرام ، وخليفة المسلمين ليست بيده هذه الأشياء ، بل يقول خليفة المسلمين عمر بن الخطاب : « وددت أن اخرج – أي من الدنيا – كما دخلت لا أجر ولا وزر » .

والبابا من اختصاصه تفسير الكتاب المقدس ، وله صلاحية وضع حد للتفكير فيه والاستنباط منه كما حدث في (التكيفات الاسكولانية) في الفائدة (الربا) التي قام بها (توماس من) ومن جاء بعده من رجال الكنيسة ، وليس لخليفة المسلمين هذا وانما له ان يستنبط الأحكام الشرعية لمعالجة المشاكل الواقعة وحل المشاكل القائمة، على ان يكون ممن تتوفر فيه شروط الاجتهاد، وله وحده ان يتبنى الاحكام الشرعية الاجتهادية لجعلها قانوناً ينفذ،والخليفة يُرد اذا أصدر أمراً فيه مخالفة لنص شرعي ، وليس على الامة طاعته في هذه المخالفة ، لأن النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » [1] وقوله : « لا طاعة لمن عصى الله » .

وقد رد خليفة المسلمين وصحح فهمه ومن ذلك ان امرأة ردت سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في مسألة تحديد المهر ، وتلت عليه الآية الكريمة : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وأتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » [2].وقوله : « قنطاراً » يدل على اباحة التوسع في المهور فكيف

---

(١) رواه احمد والحاكم وابو داود .
(٢) آية ٢١ النساء .

يضع عمر حداً له ؟. هذا ما ردت به الامرأة ، أما سيدنا عمر فإنـه أجابها بقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

تلك فروق جوهرية بين منصب الخلافة والكرسي البابوي والتـاريخ في طيـاته يحفظ مكانة الخليفة وأعمـاله وخضوعه لحكم الشرع وتسليمه لأمر الاسلام ، كما يعرف البابا وقداسته .. وطاعته في كل أمر.... ولكن العداء للاسلام والصليبية الحاقدة لأمة المسلمين ، ولكن نهم . وجشع الكافر المستعمر وكيده ومكره ، استطاع أن يصور الحق الموجود بصورة البـاطل المعدوم وبشعوذته المشهورة قدر ان يقلب الحقائق بكل ما أوتي من قوة، وان يثبت الفرية العظمى وان يدخلها في اذهان المضبوعين بثقافته ويجعلها عندهم كقضايا مسلم بها ولا تقبل المناقشة ، حتى وصل الحـال بهؤلاء المضبوعين ان ينفروا من اسم الخليفة وتحمر وجوههم حنقاً من ذكر منصب الخلافة .

ولسنا الآن بصدد الرد على افتراءات المفترين فيما يدعون ، لأن قضية كون رئيس الدولة الاسلامية وهو خليفة المسلمين رئيساً سياسياً وكون الحاكم في الاسلام رجلاً من الأمة يخطىء ويصيب ، وليست له قداسة القديسين ولا طاعة البابويين ، قضية ثابتة مقطوع بهـا لا تقبل جدلاً ، ولا تكون موضع نقـاش لأن كل من له إلمام بسيط بأحكام الاسلام يعرف ذلك ، وانمـا نحن بصدد الكلام على اصطلاح (رجال الدين) الذي شاع في الغرب وجاء بـه الجهـال الى ديارنا تقليداً للغربيين ، وشجعه الكافر المستعمر دساً وخبثـاً ، بقصد ابعاد العلماء عن الاشتغال في السياسة وشؤون الحكم ومراقبة الحكام ، مع أن هذه من أحكام الاسلام، لا يمكن فصلها عنه بأي حال من الأحوال، وان صلة العلم الشرعي بالحكم وثيقة ، إذ وجوده قـائم على تطبيق احكام هذا العلم وصلة العالم بالحاكم وثيقة ايضاً لا يمكن فصلها . فالحاكم يطبق الشرع ويرعاه بالتنفيذ وهذه سياسته والعالم يرعى الشرع بالتوضيح والبيان ويحاسب الحاكم على أساسه وهـذه سياسته ، فالعالم العامل له القدح المعلى في توجيـه

سياسة الحاكم ومراقبة تصرفاته ، أما ان كان العالم سلبياً غير ايجابي ، يتوقف عن بيان حكم الشرع في تصرفات الحاكم ويكتم ذلك ويتباعد عن خوض معترك الحياة فلا يبالي ان أعرض الحاكم في شرع الله ولا ينبس ببنت شفة ان أساء آخر أو أخذ (ثالث) الأمة بالشدة والجبروت والظلم الفظيع ، فمثل هـذه الأحوال لا يرتضيها الاسلام لعلمائه وحملة شريعته وبالتالي عليه الاثم العظيم .

فالخلافة كما قال عنها فقهاؤنا رئاسة عامة في امور الدنيا اي لاقامة الحياة على نهج الاسلام . والخليفة يحرس الدين بتنفيذ احكامه ورعاية المسلمين على اساسه ويستمد سلطانه من مبايعة الأمـة له ، وانابتهم اياه على كتاب الله وسنة رسوله فـان خرج عن مقتضى هذه النيابة خرج عن مقتضى الخلافة وكان حقاً على الأمة عزله

فليس في الخلافة ما يخيف ولكن اعداء الاسلام صوروها على غير حقيقتها للتنفير عنها اولاً ، وعن الاسلام ثانياً ، مع ان من البديهي ان المسلمين لن يحيوا حياة كريمة تليق بمكانتهم وتحفظ كرامتهم ، بل لن يكون اسلام الأمة موجوداً وجوداً حقيقياً إلا إذا استظلتهم راية خلافـة الاسلام ، وكان عليهم خليفة .

وقد تبين من هذا ان العلماء سياسيون والحكام سياسيون ، كل في مجال عمله ونوعية واجبه ، الذي فرضه الله تعالى عليه ، وان مفهوم رجـل الدين صفة لا تنطبق على واقـع العالم المسلم وان الخليفة او حاكم المسلمين ليس بابا ولا قديساً .

العلمـــاء

الناس بـــلا علماء هم جهال ، تتخطفهم شياطين الانس والجن ، من كل حدب وصوب وتعصف بهم الضلالات والاهواء من كل جانب .

ومن هنا كان العلماء ، من نعم الله تعالى على اهل الأرض ، فهم مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ، وحجة الله في ارضه ، بهم تمحق الضلالة من الافكار وتنقشع غيوم الشك من القلوب والنفوس ، فهم غيظ الشيطان وركيزة الايمان ، وقوام الأمة ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدي بهم في ظلمات الحياة في البر والبحر ، اذا انطمست النجوم واذا اسفر عنها الظلام أبصروا .

قال رسول الله ﷺ (ان مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدي بها في ظلمات البر والبحر فاذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة) (١) .

وهم ورثة الانبياء قال عليه الصلاة والسلام (.. وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء ورثة الانبياء) (٢) وقال عليه السلام حينما ذكر له رجلان احدهما عابد والآخر عالم (فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم ان الله وملائكته واهل السموات والارض وحتى النملة في جحرها وحتى الحوت في الماء ليصلون على معلم الناس الخير) (٣) .

كل هذا الفضل للعلماء العاملين ، الجريئين في الحق ، المحبين للخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر المحاسبين للحكام الناصحين لهم ، والساهرين على مصالح المسلمين المهتمين بأمور الامة المتحملين كل أذى ومشقة في هذا السبيل.

نعم كل ذاك الاكرام ، للعلماء الذين يحرسون الاسلام ، الامناء على دين الله الداعين الحكام الى تطبيقه ، بلسان صدق ، وجنان ثابت ، الذين اتصفوا

---

(١) رواه الامام احمد .

(٢) رواه ابو داود والترمذي .

(٣) رواه الترمذي .

بخلق المرسلين ، فكانت أعمالهم ترجماناً لتعـــاليم القرآن والسنة ، يقولون للظالمين ظلمتم ، وللمفسدين أفسدتم ، وللعاصين لقد عصيتم الله ، يصلحون ما فسد ، ويقومون ما اعوج ، لا يخشون أحداً من الناس ، ولا يخافون لومـــة لائم ، يقولون للناس أجمع – حكاماً ومحكومين – تعالوا من هنـــا الدرب ، درب الاسلام ، طريق السلامة والنجاة صراط الله العزيز الحميد .

لا يهابون سلطاناً جائراً ، ولا حاكماً جباراً ، لأنهم آمنوا بقول رسولهم ونبيهم سيدنا محمـــد ﷺ ، الذي رواه السبط الجليل الامـــام الحسين بن علي رضي الله عنهما (من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير بقول ولا فعل كان حقاً على الله ان يدخله مدخله [1]) .

ولا يسكتون عن حق وجب اذاعتـه ، ولا يكتمون حكـــاً شرعياً في قضية او مشكلة سواء تعلقت بشؤون الأمة ام بعلاقات الدولة أم بتصرفات حاكم من الحكام ، لأنهم آمنوا بقول الله تعالى (ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد مـــا بيناه للناس في الكتـــاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون [2]) الى قوله : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه [3]) وقوله عليه الصلاة والسلام : (الساكت عن الحق شيطان أخرس) .

ذلكم هم العلماء الذين استحقوا هذه التسمية المباركة ، كما وصفهم الاسلام ، وكما ارادهم الله لحملة كتابه ودينه ، وكما ارتضاهم رسول الله ليكونوا ورثته في تبليغ رسالته الى الناس .

---

(١) رواه الطبري في التاريخ وابن الاثير في الكامل وغيرهما .
(٢) ١٥٩ سورة البقرة .
(٣) ١٨٧ سورة آل عمران .

وسيشاهد القارىء الكريم ، في الفصول التالية هـذه الصفات الكريمـة متمثلة في أقوال العلماء أنفسهم ومجسدةً في مواقفهم مع الحكام الصالحين منهم والظالمين وعندذاك سيدرك عملياً فضل العلمـاء على العابدين بل على النـاس أجمعين .

الحكام وآيات الحكم

قال تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون [1]) وقال : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون [2]) وقـال : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون [3]) .

هذه الآيات الكريمة نزلت في حق الكفـار ، ولم تنزل في حق المسلمين ، إلا أنه لما جاء لفظ (من) عامـاً وهو من ألفاظ العموم ، ثم ان خواتيم الآيات أفادت العموم ، فان ذلك يدل على انه يدخل فيهـا المسلمون ايضاً ، عملاً بالعموم الوارد في هذه الآيات .

والحاكم المسلم اذا حكم بغير ما أنزل الله لا يكفر ،إلا اذا اعتقد به ، والذي يدل على أن الاعتقاد بغير ما أنزل الله هو الذي يجعل الحـاكم كافراً لا مجرد الحكم قرائن كثيرة :

١ — إن الآيات الثلاث نزلت في حادثة واحدة ، فكون الله تعالى وصف حال من لم يحكم بما أنزل الله بقوله (فاسقون) و (ظالمون) قرينة واضحة تدل على أن وصفه لمن لم يحكم بما أنزل الله حين قال (كافرون) يراد منه ومن يعتقد ، اذ الموضوع واحد وهو الحكم بغير ما أنزل الله ، والموصوف متعدد

---

(١) الآية ٤٤ المائدة .
(٢) الآية ٤٥ المائدة .
(٣) الآية ٤٧ المائدة .

بثلاث وهو الكفر والظلم والفسق ، لذا كان لكل وصف من هذه الاوصاف الثلاثة حالة تحصل في موضوع الحكم .

فالاعتقاد حالة اذا وجدت مع الحكم بغير ما أنزل الله كان الحاكم كافراً او اذا لم يوجد الاعتقاد انعدمت صفة الكفر عنه ، وانطبقت عليه صفة الظلم والفسق ، فاذا حكم بغير ما أنزل الله ولم يعتقد به ولكنه لم يعط الحق حقه كان فاسقاً وظالماً ، فاسقاً لارتكابه معصية لأنه حكم بغير ما أنزل الله وظالماً لأنه ظلم صاحب الحق ، او بعبارة أخرى يكون كافراً إن أنكر ما أنزل الله اعتقاداً ويكون ظالماً لأنه حكم بخلاف ما أنزل الله وفاسقاً لأنه خرج عن ما أنزل الله ، لذا كان تعدد الموصوف لموضوع واحد قرينة دلت على أن قوله (كافرون) يراد منه الجاحدون اعتقاداً ، ومثله قول الرسول الاعظم ﷺ في تارك الصلاة (ومن تركها فقد كفر) فتارك الصلاة لا يكفر إلا إذا تركها غير معتقد بوجوبها .

٢ – ان الآيات الثلاث نزلت في اليهود وهم كفار، والتقسيم يكون على من كان مثلهم ، وحين الرجوع الى سبب النزول نجد انها نزلت حين رد اليهود حكم الله في رجم الزاني المحصن ، وأبدلوه بالجلد ، لذا كانوا كفاراً حيث ان حالهم فيه أمران : احدهما رد ما أنزل الله عليهم لأنهم يرونه غير صالح . وثانيهما حكمهم بخلافه ولذلك كان الرد لما أنزل الله هو الشرط الاساسي في اعتبارهم كافرين اذا حكموا بغير ما أنزل الله .

٣ – ان الحكم فعل وليس اعتقاداً ، والفعل ان كان مخالفاً لما أمر الله به كان معصية ، ولم يكن كفراً ، إلا اذا كان الفعل ذاته كفراً وذلك ان الفعل اما ان يكون مخالفاً لما أمر الله به من الاحكام ، او مخالفاً لما أمر الله به من الاعتقاد ، فان كان مخالفاً لما أمر الله به من الاحكام كان معصية ولا يكون كفراً ، إلا اذا جاء نص قطعي الدلالة قطعي الثبوت على انه كفر ، فطاعة

الوالدين قد أمرنا بالقيام بها ، ولا يتضمن الامر أمراً بالاعتقاد ، ولهذا كان عاق الوالدين عاصياً وليس بكافر ، بخلاف فعل السجود لله ، فانه قد أمرنا به على سبيل الاعتقاد ، وأمرنا بالعمل به تبعاً لذلك الاعتقاد ، لأن اصل العقيدة الاسلامية ان لا معبود إلا الله ، ومن هنا كان القيام بالسجود لغير الله كفراً ، فمخالفة أوامر الله لا تكون كفراً ، إلا اذا كانت مصحوبة بالاعتقاد ، أي بعدم الاعتقاد بها او عدم صلاحيتها ، فالشرع أمرنا بالاعتقاد وأمرنا بالعمل ، ويختلف حكم الامر بالاعتقاد عن حكم الامر بالعمل ، ولما كان الحكم بغير ما أنزل الله مخالفاً لأمر العمل وليس مخالفاً لامر الإعتقاد كان ترك ما أنزل الله معصية ، ولم يكن كفراً. على ان واقع الحكم بغير ما أنزل الله ليس عمل كفر وذلك لسببين ، احدهما ، ان الشرع لم يقل عنه انه كفر ، ولذلك لا يعتبر عمل كفر ، ويؤيد هذا ان بعض الخلفاء المسلمين حين أخذوا البيعة لأولادهم في حياتهم بالاكراه على مرأى ومسمع من بعض الصحابة وجلة العلماء وهو حكم بغير ما أنزل الله ، ولا نعلم احداً قال عن هؤلاء أنهم قد كفروا ، والسبب الثاني هو ان الحكم بغير ما أنزل الله ليس فرعاً عن العقيدة الاسلامية كالسجود للصنم والصلاة او الصلاة مع النصارى ، ولذلك لم يكن عمل كفر وانما هو نوع من مخالفة أمر الله ، وليس نوعاً مما أمرنا الله بالاعتقاد به

فلو أن حاكماً حابى احداً وهو سارق فحكم عليه بالسجن دون قطع اليد فهذا عاص أو ظالم وليس بكافر بخلاف ما لو حكم عليه بالسجن دون القطع راداً حكم القطع معتقداً خطأ قطع اليد وصواب الحكم بالسجن فهذا كافر بلا شك فكلا الحكمين حكم بغير ما أنزل الله وكلا الحاكمين حكما بغير ما أنزل الله ولكن قد فرق بينهما ، فكان احدهما عاصياً ظالماً والآخر كافراً ، والتفريق بينهما انما جاء بالاعتقاد ، فلو ان الحكم بغير ما أنزل الله عمل كفر لكان حكمها واحداً ؟!

لهذا وغيره فإن معنى الآية يكون ومن لم يحكم بما أنزل الله راداً له كما فعل اليهود الذين نزلت بحقهم هذه الآية ، حين حكموا بغير ما أنزل الله عليهم

رادّين ما انزل الله غير معتقدين بصلاحه لهم ، فهم كفار ، ومفهوم المخالفة ، أن من حكم بغير ما أنزل الله غير راد له فليس بكافر .

وهذا الرأي في فهم الآية هو رأي كبار المفسرين، قال الطبري في تفسيره (حدثني المثنى قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قال من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق ، ثم قال (فإن قال قائل فان الله تعالى ذكره قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصاً ، قيل ان الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم بكتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول عن كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر ، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ، لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه انه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه انه نبي) .

وقال القرطبي في تفسيره ما نصه (قوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، الظالمون ، الفاسقون ، نزلت كلها في الكفار ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء وقد تقدم وعلى هذا المعظم ، اما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقيل فيه إضمار أي من لم يحكم بما انزل الله راداً للقرآن وجحوداً للرسول الكريم فهو كافر ، قال ابن عباس رضي عنهما ومجاهد ، فالآية عامة على هذا قال ابن مسعود والحسن وهي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أي معتقداً ذلك ومستحلا له ، فأما من فعل ذلك وهو غير معتقد انه ارتكب محرم فهو من فساق المسلمين وأمره الى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلاً يضاهي افعال الكفر) .

وقال الرازي في تفسيره مـــا نصه (قال عكرمة قوله ومن لم يحكم بما أنزل الله إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أمـــا من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا إن أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ولكنه تارك له فعلا فلا يلزم دخوله تحت هــذه الآية وهذا هو الجواب الصحيح والله أعلم) [1] .

وقال البيضاوي (ومن لم يحكم بمـــا أنزل الله مستهيناً بــه منكراً له فأولئك هم الكافرون لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره ولذلك وصفهم بقوله الكافرون الظالمون الفاسقون فكفرهم لانكاره وظلمهم بالحكم على خلافه وفسقهم بالخروج عنه) [2]

وجملة القول أن كل حاكم حكم بغير مـــا أنزل الله ولم يعتقد بأحكام الكفر مؤولاً حكمه هذا فانه مسلم ظالم فاسق قد ارتكب معصية ، أما من حكم بغير ما أنزل الله معتقداً الصلاح بما يحكم هو بما يسن من قوانين وأنظمة وان ما انزل الله من احكام لاصلاح فيها فهو كافر بلا شك .

الحكـــام

إنما الامام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به

— حديث شريف —

وجود الحكام للناس أمر لازم لهم، لزوم الماء للحياة ، إذ لاسعادة للبشر الا بهم . ولا عدلاً قائمـــاً ، ولا حقاً ظاهراً إلا بسلطان الحكام ، فالناس فوضى بدونهم ، ولن يصلح الناس فوضى ، لا تقـــام فيهم احكام الشرع ، ولا تطبق عليهم حدود الاسلام ولا تنفذ انظمته ولا يأمن الناس على حياتهم ولا تحقق رفاهية ، ولا يدفع عدو طامع مع هذه الفوضى ، ولقد عبر سيدنا

---

(١) ص ٤١٠ جـ ٣ تفسير الرازي .

(٢) ص ١٢٥ تفسير البيضاوي .

الرسول الكريم ﷺ عن ذلك بقوله الجامع (انما الامام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به) [1] .

ومن اجل ذلـــك بوأ الله تعالى للحكام مكاناً علياً ، وأنزلهم منازل كريمة ، فكانوا ظل الله في الارض ، وأحبابه يوم القيامة ، قال النبي ﷺ (ان احب الناس الى الله يوم القيامة وادناهم منه مجلساً امام عادل ، وابغض الناس الى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلساً امـــام جائر [2] وقوله (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله امام عادل) [3] .

ذلكم هم الحكام الذي يستحقون هـــذه المنازل ، وينعمون بذلك النعيم المقيم ، وهم الذين وصفهم الامام العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه والامام التقي علي بن ابي طالب رضي الله عنه والعالم الصالح الحسن البصري وقاضي القضاة ابو يوسف بأوصاف خاصة .

أما عمر فيقول من كتاب له الى عامله ابي موسى الاشعري : (أما بعد فان اسعد الولاة من سعدت به رعيته وان اشقى الولاة من شقيت به رعيته واياك والتبسط ، فان عمالك يقتدون بك وانما مثلك مثل الدابة رأت مرعى مخضراً فأكلت كثيراً حتى سمنت فكان سمنها سبب هلاكها لأنها بذلك السمن تذبح وتؤكل) .

وقوله في كتاب وجهه الى عموم ولاته : « ايهـــا الناس ان الله عظيم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنـــتم مسلمون) [4] الا واني ابعثكم امراء لا

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) الآية ٨٠ آل عمران .

جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى ، يهتدي بكم فردوا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم » [1] .

أما علي فيقول من كتاب الى واليه على مصر مالك بن الاشتر النخعي : « اعلم يا مالك اني وجهتك الى بلاد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وان الناس ينظرون من امورك في مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وانما يستدل على الصالحين بما يجري الله على ألسن عباده ، فليكن احب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم اكلهم ، فانهم صنفان إما اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض عليهم العلل ، ويؤتى على ايديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب ان يعطيك الله من عفوه وصفحه فانك فوقهم ووالي الامر عليك فوقك والله فوق من ولاك » .

وإياك ومساماة [2] الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته فان الله يذل كل جبار ويهين كل مختال .

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى [3] من رعيتك ، فان لا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكان لله حرباً حتى ينزع او يتوب ، وليس شيء أدعى الى تغير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامة على ظلم فان الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد .

---

(١) الخراج لأبي يوسف .

(٢) المساماة : المباراة من السمو والعلو .

(٣) الهوى : الميل .

ولا تنقضن سنة صالحة عمل بها صدور هذه الامة ، واجتمعت بها الالفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنة تضر بشيء من مضي تلك السنن فيكون الاجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها .

وليكن أحب الامور اليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية [١]) أما الحسن البصري فيقول مجيباً حين سأله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ان يصف له الامام العادل (ان الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف وهو القائم بين الله وبين عباده. يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم ، وهو كالعبد الذي ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، وهو الذي لا يحكم في عباد الله بحكم الجاهلية ، ولا يسلك بهم سبيل الظالمين، ولا يسلط المستكبرين على المستضعفين ، فهو وصي اليتامى ، وخازن المساكين يربي صغيرهم ويمون كبيرهم [٢] .

أما قاضي القضاة أبو يوسف . فيقول في مقدمة كتابه الخراج الذي وجهه الى أمير المؤمنين هارون الرشيد : (.. وإن الله بمنه ورحمته وعفوه جعل ولاة الامر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور ، فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم وإضاءة نور ولاة الامر إقامة الحدود ورد الحقوق الى أهلها بالتثبت والأمر البين وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعاً ، فان احياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت ، وجور الراعي هلاك الرعية ، واستعانته لغير أهل الثقة والخير هلاك العامة) .

---

(١) ص ٩٤ و ٩٥ جـ ٣ نهج البلاغة .
(٢) ص ٣٧ جـ ٦ نهاية الارب ، والعقد الفريد ٣٩/١ .

تلك صفات عامـــة جاءت على ألسنة حاكمين عدلين وعالمين صالحين ، ينبغي للحكام أن يتصفوا بها ، اثناء حكمهم للأمة الاسلامية ، ورعايتهم لها ، من اجل احسان تطبيق الاسلام ، ولتعيش الامـة في حياة ، ملؤهـا العدل والانصاف ، والشعور بالاطمئنان النفسي والاستقرار الفكري .

أما الصفات الواجبة والمفروضة للحكام حتى يصح بهـا حكمهم شرعاً ، وتعقد بها البيعة الصحيحة لخلافتهم الاسلامية ، وهي مـا عبر عنها علمـاء الشريعة الاسلامية بشروط الخلافة ، فهي :

١ ـ أن يكون الحكام مسلمين ، فلا يصح أن يكون على المسلمين حاكماً غير مسلم ، وبالتالي لا تجب طاعته ، ولا ينفذ أمره ، لأن الله تعالى يقول : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً [١]) وتولي الحكم هو أعظم السبل للحـاكم على المحكوم ، ولقوله تعالى (وأولى الامر منكم) أي من المسلمين .

٢ ـ أن يكون الحكام رجـالاً ، فلا يصح أن يكونوا من النساء لقوله ﷺ (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة [٢] ونفى الفـلاح عمن يرضون بحكم المرأة ، نفي جازم وتحريم قـاطع لورود (لن) التي هي من صيغ النفي التأبيدي ـ ومن المعلوم أن سيدنا الرسول ﷺ نطق بهـذا حين سمع ان بوران بنت كسرى قد تولت الحكم بعد أبيها . وهذا مما يمين‌ان النفي الجازم والتحريم القـاطع هو لتولي المرأة الحكم .

٣ ـ ان يكون الحكام ممن بلغوا الحلم ، فلا يصح ان يكونوا دون ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : « تعوذوا من امارة الصبيان » [٣] (رفع القلم عن

---

(١) الآية ١٤١ النساء .

(٢) رواه البخاري واحمد والنسائي والترمذي .

(٣) رواه ابو داود .

النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق [١]) ومن رفع الله عنه التكليف والمحاسبة ومن كان لا يصح تصرفه إلا بأمر وليه الذي يرعاه فأنى يكون حاكماً يتصرف بأمور الامة ويرعى شؤونها وهو من أعظم التكاليف الشرعية التي يوجب عليها المحاسبة من قبل الله في الآخرة ومن قبل الامة في الدنيا ان قصر فيها .

٤ – ان يكون الحكام من العقلاء ، فـــلا يصح ان يكونوا مجانين او معتوهين ، لرفع القلم والتكليف عنهم كما مر في الحديث السابق ، ثم ان العقل مناط التكليف الشرعي ، ومن زال عقله سقط عنه وجوب التكليف ، وتولي الحكم من أكبر التكاليف الشرعية وأعظمها كما لا يخفى .

٥ – ان يكون الحكام عدولاً ، فلا يكونوا فسقة ، والفاسق هو الخارج عن طاعة الله جزئياً او كليـاً ، ثم ان الاسلام اشترط العدل في قبول شهادة الشاهد « واشهدوا ذوي عدل منكم » [٢] ، ومن كانوا أعظم من الشهود وهم الحكام أولى بالعدل . لذا يكونون من ذوي السيرة الحسنة والاخلاق الكريمة قال عليه السلام : « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » [٣] .

٦ – ان يكون الحكام احراراً غير عبيد، لأن العبيد ملك لأسيادهم فلا يملكون التصرف بأنفسهم ومن كان هذا حالهم فلا يملكون ولاية على الامة .

ومن فضل الله تعالى وخير الاسلام ان هذا الصنف من البشر قـــد زال وغير موجود بالحقيقة ، لتحرير الاسلام لهم ولسده الباب عمن يأتي بعدهم إلا بالمعاملة بالمثل فان استعبد منا العدو استعبدنا منه وإلا فلا ... قـــال تعالى : « إما مَنا بعدُ وإما فداءُ » [٤] .

---

(١) رواه احمد والحاكم والترمذي .
(٢) الآية ٢ سورة الطلاق .
(٣) رواه البخاري والبيهقي .
(٤) الآية ٤ سورة محمد (ص) .

تلك هي الصفات المفروضة في كل من يتولى أمر المسلمين ويصبح حاكماً عليهم ، نائباً عنهم في تنفيذ اسلامهم عقيدة ونظاماً ، وهي التي عبر عنها فقهاؤنا بشروط انعقاد الخلافة للحاكم .

وهناك صفات او شروط أفضلية فصلها العلماء وذكروا أدلتها منها ان يكونوا من العرب او من قريش، وأن يكونوا ممن لهم العلم والمعرفة بالشريعة الاسلامية التي وجدوا من أجل تطبيقها . سواء أكانوا مجتهدين او متبعين لحكم شرعي لمجتهد آخر اقتنعوا بصحته لانطباقه على أدلة الشرع المعتبرة ، وان يكونوا شجعاناً ومن ذوي الآراء المستنيرة والبصيرة الوقادة .

تلك أهم صفات او شروط الافضلية التي وردت بها السنّة والآثار على سبيل الافضلية لتولي الحاكم الحكم .

ومن هذا يتضح ان المطلوب شرعاً – والمفروض – ديناً – ان يتصف الحاكم بصفات الانعقاد الستة التي اشرنا اليها حتى يصح توليه لأمر الامة الاسلامية .

لذلك ان تعدد المرشحون للخلافة المتصفون بصفات الانعقاد لمنصب الخلافة والحكم فللأمة أن تختار من اتصف بصفات الأفضلية اتباعاً للأفضل .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الحاكم واحد على الامة الاسلامية – ومنها الشعب العربي – وفي البلاد الاسلامية – ومنها العربية – ولحكم الاسلام.

وهذه الوحدة في الحاكم وفي الامة وفي البلاد ولحكم الأسلام ثابتة بشكل قطعي . ويظهر ذلك من أحاديث سيدنا الرسول الاعظم ومن اجماع الصحابة الكرام ومن واقع المسلمين في العصر الاسلامي الزاهر الذي هو خير القرون .

فسيدنا الرسول ﷺ يقول(ومن بايع اماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه

فليعطه ان استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[١]

ويقول : (اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)[٢] وقتاله واجب إن كان لا يندفع إلا بالقتل .

أما اجماع الصحابة وهو من أدلة الشرع المعتبرة لان اجماعهم يكشف عن دليل شرعي فانهم رضوان الله عليهم أجمعوا على وحدة الحاكم او الخليفة مثل اجماعهم على وجوب وجوده . لذلك لا يجوز ان يكون للمسلمين اكثر من حاكم واحد ، كما لا يجوز ان تكون لدى المسلمين دول اسلامية متعددة ، بل الدولة الاسلامية واحدة ، وحاكم المسلمين واحد . كما كان عند المسلمين في عصورهم الاولى والتي اتبعتها باحسان .

ثم ان هذا البيان لصفات الحاكم ووحدته ساقنا الى جواب لسؤال متوقع في الذهن ، لا بد من ذكره . ولاننا لسنا من اولئك الذين يدعون الى الاسلام بشكل مفتوح وبطريقة غامضة ، لذا فانه لا بد من اجابة لهذا السؤال المتوقع ، بشكل واضح مفهوم بحيث يضع القارىء الكريم اصبعه عليه - كما قيل - .

كيف يتم نصب هذا الحاكم ؟ وكيف يوجد اليوم ؟.

ان نصب حاكم المسلمين يتم بالبيعة[٣] له .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) والبيعة عهد من قبل الحاكم على تطبيق الاسلام، ورعاية شؤون الامة على اساسه والبيعة من قبل الامة ، طاعة هذا الحاكم في غير معصية ، وتنفيذ امره فيما لا يخالف الاسلام واساس ذلك قول سيدنا الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره ، الا ان يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) رواه البخاري ومسلم : انظر تفصيل هذا في ص ٢٠٩ مقدمة ابن خلدون .

البيعة فرض على كل المسلمين رجالاً ونساء من البالغين ، لان الحاكم نائب عنهم في تولي الحكم والسلطان .

وهذه البيعة ثابتة بأدلة الشرع المعتبرة ، ومن بيعة الرسول الكريم،ومن أمره ﷺ لنا ببيعة الامام ، ومن المعلوم ان بيعة سيدنا الرسول الكريم لم تكن بيعة على النبوة ، لان النبوة تطلب ايماناً لا بيعة ، وانما البيعة تكون على الحكم والتنفيذ لا على الايمان والتصديق ، ولما كانت كذلك ، لذا نجد سيدنا الرسول الكريم ينيب عنه في تولي الحكم بالمدينة المنورة وهي عاصمة الدولة الاسلامية ، حين غيابه عنها ، فلو كانت بيعة على النبوة لما جازت هذه النيابة ، يقول عبادة بن الصامت الصحابي الجليل(بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره ... الحديث) [1] وقوله عليه الصلاة والسلام : (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم رجل على فضل ماء بالطريق يمنع منه ابن السبيل ، ورجل بايع اماماً لا يبايعه إلا لدنياه ان اعطاه ما يريد وفى له وإلا لم يف له ... الحديث)[2] .

وقوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف [3]) فأخبر عنهن أنهن مؤمنات وبين البيعة بطاعتهن له ان لا يعصينه في معروف .

فالبيعة بيد المسلمين، وهي من الحقوق الشرعية التي منحهم اياها الاسلام، وببيعتهم ينعقد الحكم للحاكم او الخلافة للخليفة، لان الحاكم – كما قلنا – نائب عنهم في تولي الحكم والسلطان .

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه البخاري .
(٣) ١٣ سورة الممتحنة .

اما طريقة اعطاء البيعة فانها تصح بكل وسيلة من الوسائل التي تحقق مفهوم البيعة كالمصافحة او الكتابة او النطق بها فردياً وجماعياً وغير ذلك .

إلا ان هذه البيعة ليست شرطاً ان يباشرها كل المسلمين وان كانت من حقهم جميعاً لانها فرض كفاية ، وفرض الكفاية اذا أتمه البعض سقط عن الباقين ، ولكن الشرط الاساسي فيها ان يمكن جميع المسلمين من هذه البيعة وان تنال رضاهم ، وهذا الرضا ان لم يكن اجماعياً يكون جماعياً ، فاذا عبر عنه اهل الحق والعقد حسب التعبير الفقهي وهم الذين يمثلون المسلمين او عبر عنه بمجلس الشورى المنتخب او المسلمين انفسهم صح كل ذلك .

اما طريقة قيام البيعة ، فان الدارس لطريقة نصب الخلفاء الراشدين التي سكت عنها جميع الصحابة وأقروها ، مع أنها من ألزم الامور واعظم الواجبات لانها يتوقف عليها كيان المسلمين واستمرار حكم الاسلام ، يصل هذا الدارس الى ان الخليفة المراد نصبه ، قد تناقشوا عليه قبل البيعة .

وحين يستقر الرأي على اشخاص ، يعرض هؤلاء على المسلمين ليختاروا رجلاً منهم ثم تكون البيعة ، لذلك كان الحكم الشرعي في ذلك بما هو آت :

ان الذين يمثلون الامة من اهل الحل والعقد ، او مجلس الشورى ، يلمناقشون بمن يصلح للخلافة ، والحكم وتترفر فيه شروطها ، ثم يحصرون المرشحين لها حيث ان الصحابة الكرام طلبوا من سيدنا عمر بن الخطاب ان يستخلف فاستخلف الستة المشهورين ، وهذا بمثابة حصر ، وقد رضي الصحابة بهذا الفعل فكان اجماعاً والاجماع من الادلة الشرعية المعتبرة وبعد الحصر يطلب من الامة ان تختار احدهم ، ومن ينال أكثرية الاصوات يصبح خليفة او حاكماً ثم تؤخذ له البيعة ويتحقق هذا بكل الاساليب التي تضمن الرضا والاختيار ، كأساليب الانتخابات المعروفة .

هذه هي الطريقة الشرعية في نصب الخليفة او ايجاد الحاكم الذي يتولى

امر المسلمين ، ويكون ذلك في حالة موته او عزله ، ويراد ايجاد شخص مكانه ، ويكون ذلك في دولة اسلامية قائمة .

وبهذا تم الجواب على السؤال الأول واعتقد بذلك كفاية لمن اراد العلم والمعرفة ، أما لمن يريد التفاصيل فعليه بكتب الفقه التي تعرضت لهذا الموضوع . ومن ذلك الاحكام السلطانية للماوردي او لأبي يعلى .

أما اذا لم يكن هذا الواقع موجوداً ، أي لم تكن هنا دولة اسلامية فلم تكن خلافة كما هي الحال منذ زوال الخلافة الاسلامية سنة ١٣٤٣ هـ و١٩٢٤م حتى يومنا هذا ، فان جميع الاقطار الاسلامية خصوصاً منها العربية ، فيها القابلية الكاملة والاهلية التامة ، لإيجاد هذه الدولة وإقامة هذا الخليفة على شرط ان تتوفر في هذه الاقطار هذه الامور :

١ - ان يكون القطر متحرراً من كل سيطرة أجنبية كافرة .

٢ - ان تكون حماية هذا القطر في الداخل والخارج تستند على قوة المسلمين .

٣ - ان يباشر الرئيس الأعلى لهذا القطر بتنفيذ الاسلام عقيدة ونظاماً وأن يستعد لحمل الدعوة اليه .

٤ - أن يكون هذا الرئيس ممن تتوفر فيه على الاقل صفات انعقاد الخلافة التي مر ذكرها ومتى توفرت هذه الامور بايع اهل القطر هذا الرئيس بيعة قائمة على الرضا به على اقل تقدير والافضل أن يعلن للأمة مستفتياً اياها فيمن تريد عليها خليفة ، واذا تمت له البيعة ، وجد الحاكم والخليفة وقامت الدولة الاسلامية ، وعند ذاك يصبح فرضاً على مسلمي الدنيا الانضواء تحت راية الدولة وطاعة رئيسها الخليفة والا كانوا آثمين عند الله تعالى .

أما إذا بويع لخليفة آخر في قطر آخر او في بلد من قطر ذلك الخليفة المبايع اولاً ، وجب على المسلمين أن يعلنوا تمسكهم بالاول ورفض ما سواه ،

وان أبوا قوتلوا وحوربوا لصريح قول سيدنا الرسول الاعظم ﷺ (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) وقوله (.. فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر) وقد مر الحديثان .

وبهذا حصل الجواب للسؤال الثاني .

وعليه فقد اصبح فرضاً على المسلمين أن يقيموا هذا الحاكم ويوجدوا هذا الخليفة اليوم لتكون دولتهم اسلامية والا كانوا آثمين ، فوق كون ان حياتهم لا تستقر ، وأوضاعهم لا تصحح ، ونفسياتهم لا تطمئن ، ولن يكون الفلاح والنجاح والسعادة نصيبهم في هـذه الدنيا ، مهما ابتدعوا من انظمة حكم ، واستوردوا من قوانين ، إلا بالرجوع الى الاسلام، واقامة حاكم وهو الخليفة يطبق عليهم شرع الله ...

صلاح الصنفين من الناس

نعم صلاح الناس بصلاح العلماء والحكام، وفسادهم بفساد علمائهم وحكامهم ذلك مـا نطق به الصادق المصدوق سيدنا محمد ﷺ (صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس واذا فسدا فسد الناس: العلماء والامراء)[1] وهذا ما اثبته الواقع العملي في كل عصر وفي كل مصر .

الناس فئتان ، فئة تتبع العلماء ، متأثرة بتوجيههم ، ومقتفية اثرهم في الطاعة والانقياد لله والرسول ، سائرة على نهجهم بالتقيد باحـكام الاسلام ، عاملة معهم في محاربة الكفر والمنكر ، وكل مـا لا يمت الى الاسلام بصلة ، مؤيدة اياهم في كل خير ونفع يعود للامة اجمع ، فيحصل بذلك الصلاح .

وفئة تخضع لسلطان الحكام ان كانوا صالحين ، فتخاف عقابهم وتحسب

---

(١) رواه ابو نعيم في الحلية .

حسابهم ، وتخشى بطشهم ان اساءت وظلمت وافسدت في المجتمع ، فتعمل الخير بما يأمروهم هؤلاء ، من طاعة ومعروف واحسان بين الناس ، فيحصل بذلك الصلاح . وبعبارة اخرى : الناس بين رجلين :

رجل يرى العالم قدوة له ، لأنه يشاهده طيب القلب حسن السيرة كريم الاخلاق يحب العـــدل ، ويكره الظلم ، يقول الحق ولو على نفسه ، يقارع الظالمين بسلطان فكره ، ويجابـــه المعتدين على احكام الشرع بقوي حجته ، إن رأى حاكماً جائراً انكر عليه وإن رأى حاكماً فاسقاً نصحه واعانه على الخير ، فيحصل الاصلاح ويصلح الناس .

ورجل يرى حاكمه تقياً مؤمناً ، ساهراً ليـله وقاضياً نهـاره ، في خدمة الأمـة ورعاية الخلق ، حارساً اميناً للاسلام ، يغضب إذا انتهكت حرمات الله ، ويحزن إذا عطلت شعائر الله ، يسره اقامـة العدل ، ويسوؤه وقوع الظلم ولو على فرد واحد من رعيته لانـــه مسؤول عنهم (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته) [1] كبير المسلمين يجعله ابا ، وأوسطهم اخاً ، وأصغرهم ابناً . وبهذا يحصل الصلاح والاصلاح .

ومتى يصير الصنفان على غير مـــا وصفناه : كأن يكون الحاكم فاسداً مفسداً ، يعمل بعمل الجاهلية ، ويـــدعو بدعوة جاهلية ، فالظلم سجيته ، والكفر رائده ، وسلب الاموال وانفاقها في شهواته وملذاته . وإشباع نزوات اتباعه وجلاوزته ديدنه ، وقتل النفوس عمله ، يحل ما حرم الله ويحرم مـا احل الله ، متقصداً او متأولاً ، يرى رقي بلاده وسعادة امته بغير الاسلام ، ويرى العدل يقوم والحق يكون بمـا يسن هو من قوانين ، وكلما ابتعد عن الاسلام في قوانينه وانظمته هذه ، كلما كان تقدمياً متحرراً غير رجعي ، لا

---

(١) رواه البخاري .

يتصف بالجمود !! وامام هـذا نراه يسكت الالسنة ، ويعقل الاقلام ويأخذ بالشبهات وقـد فتح سجونه منذراً بهـا ، وهدد بمعتقلاته تخوفاً بدهاليزها ، والعلماء تجاهه ، بين ساكت عنه ، لا ينكر ولا يغير ، ولا ينصح ولا يصدع بكلمة او ينبس ببنت شفة ، ارتضى بالعافيـة ، والتمس لنفسه المعاذير ، والتشبث بالتأويل لآيات القرآن ، واحاديث الرسول الكريم فتراه يعمد مـا فيه الحث على الجهاد ، فيستدل به على جواز القعود عن مجاهدة اعداء الاسلام لأنها في نظره تهلكة ، كما في قوله تعالى (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) [١] وما التهلكة الا الشح والبخل في الانفاق في سبيل الله ، والبطء عن استجابة داعي الجهاد . وبـين متفقه يرى الحكمة في السكوت عن جرائم الحكام ، ضارباً الكف على الكف آسفاً ومتألماً ومتأولاً ، قائلاً لا يمكن الاصلاح ولا محل للانكار .

فقد عمّ البلاء وظهر الفساد ، فما عاد ينفع قول ولا ارشاد، وليس هناك أذن تسمع ، ولا قلب يعي ، ولا حيلة للعلماء ، في دفع هذا البلاء ، وإزالة هذا الفساد ، ولا عليهم ان سكتوا وانزووا ، فالله يأخذ الظالمين ومـا هم له بمعجزين ، هذه بعض أقوالهم او معانيها ، ونسوا قول الله تعالى : (وقالت أمة منهم لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم او معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون) [٢]

فاذا آل أمر العلماء والحكام على ما ذكرنا وقد وقع هـذا المآل في بلاد الاسلام فحق على من عنده بقية من علم وفضل من تقوى ، ان يصـدع بالحق ويرفع صوته به ولو كان وحده في الميدان:(كل نفس بما كسبت رهينة) [٣]

---

(١) ١٩٥ سورة البقرة . سيأتي شرح هذه الآية في فصل العلماء وآية التهلكة .

(٢) آية ١٦٤ سورة الأعراف .

(٣) آية ٣٨ المدثر .

وحق على المسلمين ان يؤازروه ويعينوه . وعليهم جميعاً أن يرددوا قول الله تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل [١]) .

إن الفساد قد استحكم في الارض ، فأخذ أشكاله وألوانه ، فساد في انظمة الحياة وقوانينها ، وفساد في أجهزة الحكم ، فساد في ادارة الدولة ، فساد في الافكار السائدة في المجتمع ، فساد في المشاعر المتحكمة عند عموم الناس ، والحكام يرعون ذلك كله ويتبجحون به ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ونشاهد بعض العلماء قانعاً بصلواته يؤديها ، اذا وعظ بالمناسبة كان وعظه يميت القلوب ولا يحييها ، وقد عافه الناس لتكراره ولبعده عن واقع حياتهم ، وأحاسيس مجتمعهم ، ومنهم من يحجم عن بيان فساد الانظمة وكشف اعمال الحكام رهبة او رغبة !؟ ، أما فساد الافكار فلا يمسها بسوء خوفاً من ثورة الفاسقين عليه واستنكارهم له .

ومنهم من استولى على المذياع وارتقى المنابر يسبح بحمد الحاكم ويقدس أمره ، ويذكر كل خير وبرّ منسوباً الى حكمه ، وما يعمله غيره كان بتوجيه منه .

ومنهم من يزين عمله ويؤول نصوص الاسلام لتوافق ما سنّ الحكام من أنظمة فاسدة وقوانين ظالمة ، وكثيراً ما سمعنا منهم تأييد الاشتراكية ، وتأويل النصوص الشرعية في سبيلها ، محاولين بذلك إقناع العوام بأنها من الاسلام او لا تخالف الاسلام .

وهذا الموقف الذي وقفه البعض من الاشتراكية تزلفاً الى الحكام والتماساً لرضاهم ، وقفوه كذلك من الديمقراطية ، لأن بعض الحكام يدعون لها

---

(١) آية ١٧٣ سورة آل عمران .

ويعملون على تطبيقها وتنفيذها مع أن كلا من الاشتراكية والديمقراطية أنظمة فاسدة ، خارجة عن الاسلام ومخالفة له كل المخالفة [1] .

ومنهم من وجدناه ونسمع به ، انه سعى على قدميه ذاهباً الى قصورهم وأماكن حكمهم ليقيدوا أسماءهم في سجل التشريفات عند كل مناسبة وكل سفرة في غير سبيل الله ، فهؤلاء علماء السوء وخطباء الفتنة الذين صدقوا كذب الحكام وأعانوهم على الظلم واستجابوا لأهوائهم ، وبرروا أعمالهم ، إن هؤلاء حذرنا منهم سيدنا الرسول الأعظم ﷺ وتبرأ من فعالهم ، وأبان عاقبتهم في الآخرة .

قال عليه الصلاة والسلام (سيكون أمراء فسقة جورة فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد على الحوض [2]) وقوله (اني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، فاما المؤمن فيحجزه ايمانه وأما المشرك فيقمه كفره ولكن أتخوف عليهم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون [3]) .

وقوله (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع عليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بل كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهي عن المنكر وآتيه [4]) .

(قيل يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطباً ويذكر الله ، وقيل له أي الأصحاب أفضل ؟ فقال الذي اذا

---

(١) انظر موضوع العلماء والمصطلحات الحديثة .
(٢) رواه احمد والنسائي والترمذي والبزار .
(٣) رواه الطبراني والبزار .
(٤) رواه البخاري ومسلم .

ذكرت أعانك واذا نسيت ذكرك ، وقيل أي الناس شر ؟ قال : العلماء اذا فسدوا [1]) .

وقال الامام علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه .

يقول حجة الاسلام الغزالي [2] :

العلماء ثلاثة ، اما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا المقبلون عليها ، وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق الى الله سبحانه ظاهراً وباطناً وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو الى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره . وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه ، فانظر من اي الأقسام انت ..

وعلى ذكر حجة الاسلام الغزالي فانه رضي الله عنه يعتقد واعتقاده الحق، ان التبعة الكبرى في كل فساد يظهر في البلاد الاسلامية تقع تبعته على العلماء ، وهم من الاسباب الرئيسية في فساد الأوضاع، لأنهم ملح الأمة وإذا فسد الملح فما الذي يصلحه ؟ ويتمثل الغزالي ببيت خوطب به العلماء :

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح اذا الملح فسد

ويذكر رحمه الله في هذا الباب ، كيف رضت قلوب الناس ، واشتدت الغفلة عن الآخرة فيذكر اسباب ذلك ومنها مرض العلماء واعتلالهم وهم اطباء القلوب والعقول ثم اردف يقول : ان الاطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض قلما يلتفت الى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالاً والمرض مزمناً .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ص ١٦ ج ١ .
(٢) الأحياء ج ٣ .

ثم يرد حجة الاسلام فساد الحكام الى فساد العلمـاء ، وذلك حينما يترك العلماء واجبهم نحو الحكام .

فيقول : (... فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ولكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى ان يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلمـا أخلصوا لله النية اثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها ، وأمـا الآن فقـد قيدت الاطماع ألسن العلماء فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد اقوالهم احوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ففساد الرعـايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء . وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا فلم يقـدر على الحسبة على الاراذل فكيف على الملوك والأكابر ، والله المستعان على كل حال [١]) .

هذا قوله في علمـاء زمانه فما يقول في علماء هـذا الزمان ؟ — فتأمل يا اخي فاذا كان هذا حال العلماء المفسدين دنيا وأخرى . فما حـال الحكام الظلمة الذين عاثوا في البلاد الفساد .

هذا ما يخبرنا به رب العالمين وسيد المرسلين ، قـال تعالى (فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين [٢]) وقال : (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون [٣]) وقوله : (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون انمـا يؤخرهم ليوم تشخص فيـه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتـد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء [٤]) .

---

(١) ص ٩٢ جـ ٧ احياء علوم الدين .
(٢) آية ٤٤ الاعراف .
(٣) آية ٢٢٧ الشعراء .
(٤) الآية ٤٣ ابراهيم .

وقال سيدنا الرسول الكريم ﷺ (ايما راع غش رعيته فهو في النار [1])
وقال: (من استرعاه الله رعية ثم لم يحطها بالنصيحة الا حرم الله عليه الجنة[2]).

وهنا لا بد من القول ، ان المقياس والميزان لمعرفة كون العالم فاسداً ام صالحاً ، وكون الحاكم ظالماً أم عادلاً ، هو الاسلام لا شيء غيره ، ولا شيء معه .

فأعمال العلماء وأفعال الحكام وتصرفاتهم وسلوكهم في الحياة ومع الناس وتحديد موقف بعضهم لبعض كل ذلك يوزن بميزان الاسلام ، ويقاس بمقياس الشرع ، فبقدر تمسكهم بالاسلام وتطبيقهم له وحملهم لدعوته ، ورعايتهم لأحكامه وخدمتهم لاتباعه يكون الصلاح ويكون العدل ، وبعكسه يظهر الفساد ويسود الظلم ، وإن كان العالم فيلسوفاً والحاكم عبقرياً ، قال تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين[3])
وقال ﷺ : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد [4]) .

العلماء والاصطلاحات الحديثة

من المعروف عند العلماء ان الاصطلاح هو (اتفاق طائفة على وضع اللفظ بازاء المعنى [5]) .

والاصطلاحات كثيرة منها المصطلحات العلمية والفنية والاصطلاحات التي عند كل اهل بلد ، ومنها الاصطلاحات التي تحمل افكاراً خاصة ومفاهيم

---

(١) رواه الطبراني بهذا اللفظ وشواهده في الصحيحين .
(٢) رواه البخاري .
(٣) آية ٨٥ آل عمران .
(٤) رواه مسلم .
(٥) ص ٢٢ التعريفات للسيد شريف الجرجاني .

معينة ذات وجهة نظر في الحياة ، وضعها اهلها واصحابها تعبيراً عن افكارهم وأرائهم وانظمتهم ومبادئهم وهذه الاصطلاحات هي موضوع البحث . حيث ان لها الأثر الكبير على صفاء الاسلام وعلى نقاء دعوته ووضوح احكامه ، مثل المصطلحات الحديثة التي انتشرت وذاعت في البلاد الاسلامية في هـذا العصر ، كالاشتراكية والديمقراطية والرأسمالية والدستور والحريات والمبدأ الخ . وللجواز استعمال هذه الاصطلاحات قاعدة .

(كل لفظ يحمل اصطلاحاً موجوداً معناه في الاسلام فلا مانع شرعاً من جواز استعماله بذكره او بالدعوة اليه ، اما إذا كان الاصطلاح يخالف معناه ما في الاسلام من معان فـلا يجوز ذكره على سبيل الدعوة اليه ، وان قيد بوصف اسلامي له ، لأنـه تعبير وضع بالاصل لفكر معين او نظام خاص عرف به اصحابه وحملته [(١)]) . وقد اتخذ العلماء المعاصرون مواقف متعددة ازاء هذه الاصطلاحات الحديثة ، فهم واحد من ثلاثة .

إمـا أن يكون عالماً بحقيقة الاصطلاح مدركاً واقعه الفكري ومعناه ، لذلـك فقد وقف منه الموقف الشرعي ، فبين فساد تلك المصطلحات ذات المعاني المخالفـة للاسلام ، المناقضة للاحكام الشرعية ، كاصطلاح الاشتراكية والديمقراطية والرأسمالية الخ (لأن الاشتراكية قامت على اساس الغاء الملكية الفردية كلياً او جزئياً وعلى فكرة التأميم باغتصاب الملكية الفردية وهـذا لا يجوز شرعاً ولأن الديمقراطية من معانيها ان الشعب هو الذي يضع نظامه بنفسه لا ربه وخالقه. وهذا كفر في نظر الاسلام ولأن الرأسمالية من معانيها انهـا تسمح بطغيان الملكية الفردية وعدم تحديدها بالكيفية وافساح الطريق امامها إذ الحلال عندها ما حل بالكف لذلك فانها تفرض سيطرة اصحابها في

---

(١) ص ١٢٥ حكم الاسلام في الاشتراكية للمؤلف . ومن اراد التفصيل مع الادلة الشرعية لهذه القاعدة فليراجع الكتاب المذكور .

الحياة وتحكمهم في المجتمع من غير حد ولا قيد) [1] فالاحتكار، والاستغلال رائدها والربا وابتزاز الاموال طريقها . بين ذلك بكل صراحة في خطبة او مقالة او كتاب ، فجزاه الله خيراً حيث نطق بالحق ولم يخش إلا الله سبحانه وتعالى . واما أن يكون عالمـــاً بحقيقة الاصطلاحات واعياً لمعانيها المقررة لذلك تجده يستعملها ويذكرها في خطبه ومقالاته وكتبه ويدعو لها ويصفها بالاسلامية فيقول بالاشتراكية الاسلامية والديمقراطية الاسلامية الخ اما دجلاً واستجابة لاهواء الحكام ولنوال رضا العوام وحباً بالدنيـــا وزينتها فتراه يؤول النصوص الشرعية ويتحايـل على الاحكام لتحقيق مقاصده ونواياه .

واما خطأ ولشبهة في ذهنه حيث فسر التعاون والتضامن بـين افراد المجتمع الذي دعا اليه الاسلام . فسر ذلـك بالاشتراكية من باب تقريب الاسلام الى الاذهان ودفاعاً عن الدين الذي يحمل الدعوة اليه ، وهذا التفسير خطأ محض إذ أن مثل هـــذا الاصطلاح يحمل معاني مخالفة للاسلام مناقضة للاحكام الشرعية التي جـاءت منظمة للملكية الفردية ومحـددة لكيفيتها لا كميتها وفي هـــذا التفسير والقول ، (... اغواء وترويض للعقول بقبول الاشتراكية بمعناها الحقيقي وفي هذا ايهـام وطمس للحقائق وذلك لا يجوز شرعاً) [2] والا فكيف يصح أن يقال الخمر الاسلامي ؟ او العهر الاسلامي ؟ او اسلامية الربا او اسلامية الزنا. فوصف الاصطلاحات بالاسلامية لا يخرج معانيها المقررة لا من الذهن ولا من واقعها، واما ان يكون جاهلاً بحقيقة هذه الاصطلاحات غير مدرك لواقعها الفكري ومعانيها فهو كسول لا يكلف نفسه عناء البحث والتحقيق لذلك اخـذ يردد تلك الاصطلاحات ذات المعـاني المخالفة للاسلام ولاحكام الشرع كالاشتراكية والديمقراطية .. دون أن يدرك خطورتها على

---

(١) نفس المصدر السابق من تقديم العلامة الزهاوي .

(٢) راجع فصل موقف الاسلام من المصطلحات الاجنبيـــة في كتـــاب حكم الاسلام في الاشتراكية للمؤلف . وكتاب منهاج الاسلام في الحكم فصل الخطأ في استعمال المصطلحات الغربية لمحمد اسد .

الفكر الاسلامي . ولكن بعض هـذا الصنف استمر في جهله رغم تذكير المذكرين فأورده المهالك ، والبعض الآخر ساقته تقواه فسرعان ما يعود الى الحق . حين يدرك خطر هـذه الاصطلاحات على الدين ويتبين له ان الدعوة لمثل هذه الاصطلاحات هي دعوة الى غير الاسلام بل هي دعوة لهدمه حيث يمهد الطريق لتحكيم غـير الاسلام في الحياة . وتثبيت سوى الاسلام في الاذهان . وهو لم يخلق لهذه الغاية ولم يوجد في هذه الدنيا من اجل أن يخلط بـين افكار ودعوة الاسلام وافكار ودعوة الجاهلية الحديثة وانما وجد من الاسلام فقط لا يحمل إلا دعوتـه ولا ينشر إلا افكاره ولا يستعمل إلا اصطلاحاته والمصطلحات التي لا تناقض معانيها احكامه وافكاره ..

العلماء وآية التهلكة

« كثيراً ما يستشهد بعض العلماء – وأقول العلمـاء تجاوزاً – في سائر البـلاد الاسلامية بجزء من آية التهلكة ، وهي قوله تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة [1]) .

يستشهدون بهذا الجزء في معرض الدفاع عن انفسهم ، حينما يطالبون أن ينكروا على الحكام الظالمين ، وأن يتصدوا لأفعال المسؤولين الفسقة ، وذلك ببيان زيف أعمالهم وكشف تصرفاتهم للأمة ، وابداء رأي الاسلام وحكم الشرع في تلك الافعال والتصرفات ، قائلين بأن المطلب فيه هلاك وتهلكة ، وقد نهينا عن ذلك ، وليتهم وقفوا عند هذا الحـد واكتفوا بإثم السكوت وفساد هذا الاستشهاد الذي في غير محله ، بل توغل بعضهم في هـذا الاثم ، فلاموا وأنكروا على من يقوم بمهمته الشرعية وواجبـه الشرعي الاسلامي ، نحو هؤلاء الحكام ، حين يأمرهم وينهاهم ويحاسبهم ويعيب أفعالهم المنكرة وتصرفاتهم الشاذة » .

---

(١) ١٩٥ سورة البقرة .

واذا لحق هذا القائم بواجبه ، والمؤدي مهمته ، بعض الأذى والتضييق والملاحقة قالوا عنه : أذى نفسه وعرض حياته للتهلكة ، يقولون هذا عنه وهم يحفظون قول رسول الله ﷺ : (لا ينبغي لامرىء شهد مقاماً فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقاً هو له [1]) ويرددون قول الامام علي رضي الله عنه : (.. وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق وأفضل ذلك كلمة عدل عند إمام جائر [2]) ويتناسون مواقف علماء السلف الصالح مع الحكام في جميع العصور الاسلامية الذين قاموا بواجبهم خير قيام ، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وحاسبوا حكامهم ولم تأخذهم في الله لومة لائم فصبروا على كل أذى لحقهم مهما عظم وكثر ، وكأن يحسبون ذلك كفارة للذنوب ، وزكاة للأعمال ، وشفاعة له يوم العرض الاكبر على الله يوم القيامة .

أما هذه الآية التي يستشهد بجزء منها هؤلاء (الجبناء) فهي قوله تعالى في سورة البقرة .

(وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين) .

ذكر الامام الرازي في تفسيره ، ناقلا عن ابي عبيد والزجاج ، ان التهلكة هي الهلاك . وقال الامام الطبرسي في تفسيره ايضاً التهلكة والهلاك واحد ، واصل الهلاك الضياع وهو مصير الشيء بحيث لا يدرى اين هو .

أما تفسير الآية الكريمة ، فانه لما فرض الله تعالى الجهاد في سبيله ، وواجب نشر دينه بالفتح ، عقب بذكر الانفاق في سبيل ذلك ، واعتبر هذا الانفاق في الجهاد من اعماله ومن مقوماته الاساسية . فقال تعالى

---

(١) رواه البيهقي والترمذي وابن ماجه .

(٢) ص ٢٤٤ ج ٣ نهج البلاغة .

(وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين) [1] . فالجهاد يكون بقتال الاعداء كما يكون بالانفاق عن ذلـك ، قال تعالى (انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله) [2] .

فالآية الكريمة خاصة بالانفاق في سبيل الله والجهاد .

جاء في تفسير ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية قال البخاري (وذكر سنده) وانفقوا في سبيل اللـــه ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) نزلت في الانفاق .

وذكر ايضاً : (قـــال رجل للبراء بن عازب – الصحابي الجليل رضي الله عنه – ان حملت على العدو وحدي فقتلوني اكنت القيت بيدي الى التهلكة ؟ قال لا . قـــال الله لرسوله فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك انما نزلت في الانفاق .

وجاء في تفسير الرازي عند تفسير هـــذه الآية (ان يخلوا بالجهاد فيتعرضوا للهلاك الذي هو عذاب النار فحثهم بذلك على التمسك بالجهاد وهو كقوله تعالى ليهلك من هلك عن بينة) .

والذي يوضح هذا المعنى جلياً من الآية انها نزلت في الدعوة الى الانفاق في سبيل الله والجهاد ، والتارك لذلك معرض نفسه لهلاك الدنيا والآخرة هلاك الدنيا بالخسران وغلبه الاعداء حين ترك الجهاد مصداقاً لقوله ﷺ (مـــا ترك قوم الجهاد الا ذلوا وهلاك الآخرة بعقاب الله يوم القيامة ، بسخطه والابتعاد عن رحمته ، لعدم قيامه بمـــا امر وواجب عليه . نعم ان الذي يوضح ذلك ما ذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة .

---

(١) آية ١٩٥ سورة البقرة .

(٢) الاية ٤١ التوبة .

فقد روى ابو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره وابن جرير وابن مردويه والحافظ ابو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وهم من أئمة المحدثين ، عن يزيد بن ابي حبيب عن اسلم ابي عمران ، قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه ومعنا ابوب الانصاري – الصحابي الجليل رضي الله عنه – فقال ناس ألقى بيده الى التهلكة . فقال ابو ايوب نحن اعلم بهذه الآية انما نزلت فينا :

صحبنا رسول الله ﷺ ، وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الاسلام وظهر اجتمعنا معشر الانصار تحبباً فقلنا قد اكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره ، حتى فشا الاسلام وكثر اهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والاولاد ، وقد وضعت الحرب اوزارها ، فنرجع الى اهلينا وأولادنا ، فنقيم فيهم فنزل فينا (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) فكانت التهلكة في الاقامة في الاهل والمال وترك الجهاد . أ هـ .

وذكر الامام الرازي في تفسيره عند تفسير هذه الآية ايضاً .

روي أن قوماً حاصروا حصناً فقاتل رجل حتى قتل ، فقيل ألقى بيده الى التهلكة فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : كذبوا أليس الله تعالى يقول : (ومن النـــاس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله . أ هـ .)

ولا اريد ان اكثر من نقل اقوال المفسرين وآراء أئمـــة العلماء في تفسير هذه الآية الكريمة ، لأن اقوالهم جميعاً لا تخرج عن هـذا المعنى وعن هذا التفسير الذي أشرت عليه ، ولأن كثيراً من آيات الله تعـالى وأحاديث الرسول الكريم ﷺ ، دعت الى الجهاد بنوعيه ، القتال والانفاق

في سبيله ، ومقاومة الظالمين ومحاسبة المسؤولين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلت الصبر على مـا قد يصيب الداعي لذلك من اذى واضطهاد ، من عزم الامور ، ممـا عزمه الله وأوجبـه على عباده المسلمين وفي مقدمتهم السادة العلماء ، واعتبرت هذه الآيات الكريمـة والاحاديث الشريفة السكوت عن ذلك وترك هذا الواجب هو الهلاك بعينه والتهلكة نفسها .

وسيجد القارىء الكريم صوراً من الحوادث والمواقف التي قام بهـا علماء السلف الصالح مع حكامهم ، فأظهروا فيها عزه الاسلام وقوة الايمان ، كما اثبتوا فيها انهم حقاً من العلماء الرجال ، الذين لا يخيفهم بطش حاكم ولا ارهاب سلطان ، ولا قوة جند ولا ظلام سجون او معتقلات . كل ذلك سيجده القارىء في الفصول التالية .

العلماء يحاكمون الحكام

اراد الله سبحانه وتعالى ، لدينه الاسلام ، ان يكون نظاماً عالميـاً للحياة ، وعقيـدة خالدة للبشر لإسعادهم الى قيـام الساعة ، فجعل فيه سلطاناً ، ليقوم بتطبيق نظامه ونشر عقيدته في العالم ، ورعاية شؤون الناس على أساسه .

وإن هذا السلطان جعله الله تعالى للأمة ، ولكن الأمـة بمجموعها لا يمكن ان تتولى هـذا السلطان ، لذلك فانها تختار منها رجلا ليقوم بهذا السلطان نيابة عنها ، ثم ان الله تعالى ابقى للأمـة بمجموعها حق محاسبة هذا الرجل الذي تولى السلطان عنها ، وأولته امرها ، ان قصّر في رعاية شؤونها ، او حاد عن احكام الاسلام في تطبيقه ونشره .

ولم يكتف الاسلام بجعل هذه المحاسبة حقاً للأمة ، تكون مخيره في

القيام به او تركه ، بل جعله فرضاً عليها ، وجعل ذلك على علماء الأمة رض عين - لأنهم قادة الامة الحقيقيون والثلة الواعية فيها والقائمة على أمر الدين والمبلغة لأحكامه والداعية اليه - فقال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) [١] .

وهل انكار المنكر إلا المحاسبة ؟ والامر بالمعروف إلا النصيحة القائمة على دعوة الخير والخير هو اتباع القرآن الكريم والسنّة المطهرة ، كما يقول الإمام محمد الباقر رضي الله عنه ناقلاً ذلك عن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] .

كا رتب الاسلام عقاباً ينزله على من لم يقم بهذا الفرض او ينفذ ذاك الواجب ، فهدد وأنذر وتوعد ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : (من رأى سلطاناً جائراً مستحلا لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنّة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير بقول ولا فعل كان حقاً على الله ان يدخله مدخله) [٣] .

فمصير الحاكم الظالم دخول النار ، بسخط الله تعالى يوم القيامة ، ومثله مصير من لم يحاسبه او يقوم بلانكار عليه ، وقال عليه الصلاة والسلام : (لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً او ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعن بني اسرائيل) [٤]

---

(١) آية ١٠٤ سورة آل عمران .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره .

(٣) تقدم تخريج الحديث .

(٤) رواه ابو داود والترمذي .

وبشر رسول الله بعاقبة الذين يحاسبون الحكام وينكرون عليهم كلما لزم ذلك بأنهم من زمرة الشهداء ، بل من أسيادهم فقال عليه الصلاة والسلام : (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام الى إمام ظالم فأمره ونهاه فقتله) [1] . وفوق كون هؤلاء ينجون من عذاب الله وشدة عقابه فقال تعالى : (فلما نسوا ما ذُكّروا بـه انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) [2] .

وجعل الله سبحانه وتعالى خيرية هذه الامة محققة بأداء هذا الواجب فقال تعالى : (كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) [3] .

فخيرية هذه الامة ملازمة لها ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ودعت الى الله وحده وإلا فلا .

وقد فهم الحكام الصالحون من سلف هذه الامة ، هذا الحق وآمنوا به ، كما ادركوا هذا الفرض واعتقدوا به ، فسمحوا للقيام بهذا الحق وأداء هـذا الفرض من غير حد او تحديد ، بل نجـد منهم من يطلب بنفسه من الامة ان تحاسبه على كل عمل وتصرف وتقومه في كل خطأ قد يصدر منه ، ما داموا مخلصين يبتغون وجه الله في حكمهم وسلطانهم ، فهذا خليفة رسول الله ابو بكر الصديق رضوان الله عليه يقول عندما استلم الحكم : (... فان احسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني ، اطيعوني ما اطعت الله ورسوله فيكم ...) .

---

(١) رواه الحاكم بسند صحيح .

(٢) آية ١٦٥ سورة الاعراف .

(٣) آية ١١٠ سورة آل عمران .

وهذا امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه) وهل هـذا التقويم الا المحاسبة ؟؟ والاسلام أوجب على الحاكم الذي يتولى أمر المسلمين ان يسمع لمن يحاسبه وان يفسح صدره لذلك ، كما أمره ان يخضع لهـذه المحاسبة ان كانت موافقة لأحكام الاسلام ومنعه من أي عقاب يفرضه على اي فرد من أجل هذه المحاسبة ولو جاءت شديدة والقول فيها غليظاً .

ولنسمع جواب ذلك الاعرابي لطلب عمر في تقويمه (والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا) فيؤمن عمر لقوله ويحمد الله مسروراً من هذا الجواب (الحمد لله الذي جعل في امة محمد من يقوّم عمر بسيفه) فسيدنا عمر يرضى بتقويم اعوجاجه وتصحيح خطئه بالسيف نعم بالسيف ، وحكام اليوم وعبيدهم لا يرضون بتقويم اعوجاجهم بالكلام نعم بالكلام ، فتأمل يا اخي . وقال آخر اليـه (اتق الله يا عمر) فأجابه احد الحاضرين أتقول هـذا لأمير المؤمنين ، ولكن سيدنا عمر نهره بتلك القولة التي صارت مثلاً لكل حاكم صالح (لا خير فيكم ان لم تقولوهـا ولا خير فينا إن لم نسمعها) .

وأوصى امير المؤمنين سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنـه جميع ولاتـه أن يقبلوا محاسبة من حاسبهم ما دام في تلك المحاسبة طـاعة الله فقال (.. فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه وتجنب من يرديه وأصاب السلامة ببصر من بصره وطاعة هادٍ أمره [1]) .

وأغلظ رجل على أمير المؤمنين معاوية في الكلام فقيل له (أتحلم على مثل هذا فقال اني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لا يحولوا بيننا وبين سلطاننا [2]) .

---

(١) ص ٢٢٢ جـ ٣ نهج البلاغة .

(٢) ذكره صاحب سراج الملوك .

وبعد : فهذه حوادث من سيرة العلماء في العهد الاسلامي تبين صوراً صادقة وتجسد المواقف في محاسبة العلماء للحكام .

.. كانت من جملة غنائم المسلمين ، أبراد يمانية ، فقام امير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقسم هذه الغنائم بالعدل ، وقد أصابه منها برد : كما أصاب ابنه عبد الله مثل ذلك ، كأي رجل من المسلمين ، ولما كان سيدنا عمر بحاجة الى ثوب وهو الطويل في الجسم ، فقد تبرع له عبد الله ببرده ، ليصنع منها ثوباً يكفيه ، ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب ، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ..) فوقف له سلمان الفارسي الصحابي الجليل ليحاسبه فقال له : (لا سمع لك علينا ولا طاعة) ، فقال سيدنا عمر ولمَ ؟ قال سلمان (من أين لك هذا الثوب وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟) فقال : (لا تعجل) ونادى (يا عبد الله) فلم يجبه أحد فقال : (يا عبد الله بن عمر) فقال (لبيك يا امير المؤمنين) قال : (ناشدتك الله البرد الذي ائتزرت أهو بردك فقال اللهم نعم : قال سلمان الآن مر نسمع ونطع [1]) .

إن قال قائل هذا عمر وهو نسيج وحده وذاك سلمان وهو الصحابي الجليل قلنا اذن اسمع .

وقف امير المؤمنين معاوية يوماً على منبره ، بعد أن قطع بعض الاعطيات المالية عن افراد المسلمين . فقال : اسمعوا وأطيعوا فقام اليه أبو مسلم الخولاني ليحاسبه عن هذا التصرف الخاطىء ، فقال لا سمع ولا طاعة يا معاوية ، قال ولمَ يا أبا مسلم ، فقال : يا معاوية كيف تمنع العطاء وانه ليس من كدّك ولا من كد ابيك ولا من كد أمك ، فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال للحاضرين مكانكم ، وغاب ساعة عن أعينهم ثم

---

(١) ذكره سيد قطب في العدالة الاجتماعية .

خرج عليهم وقد اغتسل فقال : ان ابا مسلم كلمني بكلام اغضبني واني سمعت رسول الله يقول : (الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحد فليغتسل) واني دخلت فاغتسلت ، وصدق ابو مسلم انـه ليس من كدي ولا من كد ابي فهلموا الى عطائكم [1] .

وإن قال قائل هذا معاوية وهو المشهور بالحلم وذاك ابو مسلم ولا زالت الامة بخير حكاماً ومحكومين ، قلنا اذن اسمع :

قال الامام سفيان الثوري : لما حج المهدي – ابو جعفر المنصور – قال لا بد لي من سفيان ، فوضعوا لي الرصد حول البيت فأخذوني بالليل ، فلما مثلت بين يديه ادناني ، ثم قال لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في امرنا ، فما امرتنا من شيء صرنا اليه ، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه ، فقلت له : كم انفقت في سفرك هذا ؟ قال لا ادري لي امناء ووكلاء ، قلت فما عذرك غداً ، اذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما حج قال لغلامه كم انفقت في سفرنا هذا ؟ قال : يا امير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً فقال ويحك اجحفنا بيت مال المسلمين [2] وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه في المجلس ، عن ابراهيم عن الاسود عن علقمة عن ابن مسعود ان رسول الله ﷺ قال : رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غداً ، فيقول ابو عبيد الكاتب احد متزلفي الحاشية ، امير المؤمنين يستقبل بمثل هذا ؟ فيجيبه سفيان – بقوة المؤمن وعزة المسلم – اسكت انما اهلك فرعون هامان وهامان فرعون [3] .

---

(١) الحديث رواه ابو نعيم في الحلية والحادثة ، ذكرها الامام الغزالي في الأحياء ص ٧٠ جـ٥
(٢) ٥١ ص سراج الملوك .
(٣) المسند للاستاذ احمد محمد شاكر الجزء الاول .

وإن قال آخرون – هذا المهدي وذاك سفيان كبير علماء عصره ، والرأي العام لا زال إسلامياً يسمع هذا ويؤيده ولا يجد غرابة في ذلك .

قلنا ان شعلة الايمان لا زالت تضيء قلوب العلماء في عصور عديدة وهم لا زالوا يدركون مهمتهم في الحياة ، وإن كان بعض الحكام يومئذ قد اصابهم بعض التنكب عن جادة الحق فتضيق صدورهم لمحاسبة العلماء لهم . ولكن بأي شيء كانوا يقابلون تلك المحاسبة ، هذا ما يختلف فيه الحكام ، ويتفاوتون فيه تبعاً لتفاوت ايمانهم بالاسلام .

فلنسمع :

لقد اقبل الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله على عمارة الزهراء ايما اقبال وانفق من اموال الدولة في تشييدها وزخرفتها ما انفق وهي في حقيقة حالها مجموعة من القصور الفاخرة وكان يشرف بنفسه على شؤون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة .

وكان منذر بن سعيد يتولى خطبة الجمعة والقضاء ، ورأى خروجاً من تبعة التقصير فيما اوجبه الله على العلماء ، ان يلقي على الخليفة الناصر درساً بليغاً يحاسبه فيه على اسراف انفاقه في مدينة الزهراء ، ورأى أن يكون ذلك على ملاء من الناس في المسجد الجامع بالزهراء .

فلما كان يوم الجمعة اعتلى المنبر والخليفة الناصر حاضر والمسجد غاص بالمصلين وابتدأ خطبته قارئاً قول الله تعالى (أتبنون بكل ريع[1] آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون ، واتقوا الذي امدكم بما تعلمون ، امدكم بانعام وبنين ، وجنات وعيون ، اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم)[2] حتى وصل الى قوله

---

(١) الريع : المكان المرتفع والاية العلامة من نصب وقباب.

(٢) الاية ١٣٠ الشعراء .

(قـــل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى)[1] ثم مضى في ذم الاسراف على البناء بكل كلام جزل وقول شديد ثم تـــلا قوله تعالى (أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار بـــه في نار جهنم والله لا يهـدي القوم الظالمين :[2]) وراح يحـــذر وينذر ويحاسب حتى اذّكر من حضر من الناس وخشعوا وأخذ الناصر من ذلك بأوفر نصيب ، وقد علم انه المقصود بـــه فبكى وندم على تفريطه . غير ان الخليفة لم يتحمل صدره لتلك المحاسبة العلنية ولشدة مـــا سمع ، فقال شاكياً لولده الحكم والله لقد تعمدني منذر بخطبته ومـــا عنى بها غيري ، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي .. ثم استشاط غيظاً عليه ، متذكراً كلماته ، وأراد ان يعاقبه لذلك !! فأقسم ان لا يصلي خلفه صلاة جمعة ، وجعل يلزم صلاتهـــا وراء احمد بن مطرف خطيب جامع قرطبة .

تلك هي عقوبة الخليفة الناصر – ان لا يصلي خلف منذر في صلاة الجمعة – لذلك الخطيب الذي تجاوز الحد في الكلام ..!!

ولكن لما رأى ولده الحكم تعلق والده بالزهراء والصلاة في مسجدها العظيم قال له : (فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بـــه إذ كرهته ؟ ولكن الناصر زجره قائلاً : (أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه (لا ام لك) يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد ؟ هذا مـــا لا يكون واني لاستحي من الله ألا اجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه ولكن احرجني فأقسمت ولوددت اني أجـــد سبيلاً الى كفارة يميني بملكي ، بل يصلي

---

(١) الاية ٧٧ النساء .
(٢) الاية ١٠٩ التوبة .

– منذر – بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله فما أظننا انا نعتاض عنه أبداً) [1] .

وهذا الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى ، يقف على منبره محاسباً المقتفى لأمر الله ومنكراً عليـــه تولية يحيى بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالم ، القضاء ، فقال مخاطباً له : وليت على المسلمين اظلم الظالمين ، فمـــا جوابك غداً عند رب العالمين أرحم الراحمين . فارتعد الخليفة وعزل المذكور لوقته [2] .

تولى العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ، خطابة جامع دمشق من قبل الملك الصالح اسماعيل ، في ربيع سنة ٦٣٧ هـ . ولكن لم يدم هذا المنصب للعز طويلا ، إذ عزل منه في سنة ٦٣٨ هـ أثر محاسبة العز رحمه الله تعـالى للملك اسماعيل في حادثة الخيانة السياسية المشهورة ، لأن العز لم يرض ان تدنس قدسية منبر الجامع التي ارساها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بالمداهنة والسكوت على الحق . فـكان جزاؤه ان عزل وحبس . واليك الحادثة بالتفصيل :

... يذكر المؤرخون الثقاة ، ان الملك اسماعيل ، خاف من نجم الدين ابن ايوب حـاكم مصر ، فتحالف مع الافرنج الصليبيين ليساعدوه على نجم الدين ، وسلم اليهم لقـــاء هذه المساعدة قلعة صفد وبلادها وقلعة الشقيف وبلادها ، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها ، جبل عامل وسائر بلاد الساحل [3] وكانت مواقع مهمة ، وزيادة على ذلـك ، أذن الملك

---

(١) من اخلاق العلماء ، كما ذكرهـــا الاستاذ عبد الحميد العبادي بين خليفة وقاضي مجلة الازهر عدد رمضان سنة ١٣٧١ هـ .

(٢) قلائد الجواهر ص ٨ .

(٣) ذكر ذلك المقريزي في السكوك قسم٢ ج١/٣٠٣ ان غيره من المؤرخين كسبط ابن الجوزي وغيره فلم يذكروا الا قلعة الشقيف وصفد . ولم يذكر السبكي الا مدينة صيدا .

اسماعيـــل للفرنج في دخـــول دمشق وشراء السلاح [١] ، ولكن العز لم يكتف بتلـــك الفتوى ، بل حاسب الملك اسماعيل على فعلته المذكورة هذه ، من على المنبر في يوم الجمعة وذم الملك على هذه الخيانة وكشف خطورتها للأمة ، وقطع من الخطبة الدعاء له ، وكان الدعـاء يومئذ للسلطان رمز الولاء والطاعة له ، وصـار يدعو في الخطبة بدعاء منه : (... اللهم أبرم لهذه الأمة ابرام رشد تعز فيه اولياؤك ، وتذل فيه اعداؤك ، ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك) . والناس يضجون بالدعاء .

وكان الملك اسماعيل غائباً عن دمشق فأخبر بذلك فورد كتـــابه بعزل العز بن عبد السلام عن الخطابـة واعتقاله ، ولمـا قدم الى دمشق افرج عنه ، وجعل عقابه بالاقامة الجبرية بداره وأن لا يفتي الناس [٢] .

وهذا شيخ الاسلام احمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، بموقفه الرائع من محاسبة غازان التتري ، وهو رابع ملك مسلم من التتار .

.. وردت الانباء في اواخر سنة ٦٩٨ هـ بزحف غازان التتري وجيشه من ايران نحو حلب ، وفي وادي سلمية يوم ٢٧ ربيـع الاول سنة ٦٩٩ هـ التقى جمع غازان بجمع الناصر بن قلاوون ، وبعد معركة حامية الوطيس هزم جمع الناصر وولى الجند وأمراؤهم الادبار ، ونزح اعيان دمشق الى مصر يتبعون سير النـــاصر ، حتى خلت دمشق من حاكم او امير او اعيان البلاد ، ولكن شيخ الاسلام بقي صامداً مع عامة الناس ، فاجتمع شيخ الاسلام مع من بقي من اعيان البلاد ، واتفق معهم على تولي الامور وأن يذهب هو على رأس وفد من الشام لمقابلة غـازان ، فقابله في بلدة

---

(١) طبقات السبكي والسلوك للمقريزي .

(٢) طبقات السبكي وغيره .

النبك ، وقد دارت بينهما مناقشة عنيفة ، بل محاسبة شيخ الاسلام لغازان على تصرفه هذا ونكثه للعهد ، وكلمه كلاماً قوياً شديداً ، اشار اليه ابن كثير في تاريخه [1] وفصله كما سمعه من الشيخ الصالح ابي عبدالله محمد بن عمر البالسي الذي كان من اعضاء وفد المقابلة .

قال البالسي (ان الشيخ ابن تيمية قـــال لغازان ، وترجمانه يترجم كلام الشيخ : أنت تزعم انك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا : فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما غزوا بلاد الاسلام بعد ان عاهدونا ، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت لابن تيمية مع غازان امور قام بها ابن تيمية كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل .

ثم قرب غازان الى الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيميـة ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من اغنام النـاس وطبختموه بما قطعتم من اشجار الناس ؟ وغازان مصغ لما يقول شاخص اليه لا يعرض عنه ، وان غازان من شدة ما اوقع في قلبه من الهيبـة والمحبة ، سأل من هذا الشيخ ؟ اني لم أر مثله ، ولا اثبت قلباً منه ، ولا اوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني اعظم انقياداً لأحد منـه ، فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ثم طلب منه غازان الدعاء ، فقال الشيخ يدعو فقال اللهم ان كان عبدك هذا انمـا يقاتل لتكون كلمتك العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد ، وإن كان قد قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليــا وليذل الاسلام وأهله ، فأخـذ له وزلزله ودمره واقطع دابره ، وغازان يؤمن على دعائه ، ويرفع يديه – قال البالسي – فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً

---

(١) ١ ص ج ١٤ و ص ٧١٨ ج ١٤ من البداية والنهاية .

من ان تتلوث بدم ابن تيمية اذا امر بقتله ، فلما خرجنا من عنده قال قاضي القضاة نجم الدين وغيره ، كدت ان تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك من هنا ، فقال وإني والله لا اصحبكم - قال البالسي - فانطلقوا عصبة ، وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من اصحابه ، فتسامعت به الخواتين والامراء اصحاب غازان فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر الى دمشق ، ووالله ما وصل الى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه وكنت انا من جملة من كان معه ، وأما اولئك الذين ابوا ان يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتار فشلحوهم - اي سلبوهم ثيابهم وما معهم -) أ هـ [1] .

تلك صور من مواقف محاسبة العلماء للحكام ، وذاك هو حكم الاسلام ، في وجوب محاسبة الحكام ، وفي عقابه الله تعالى لمن لم يقم به : او لم يفسح المجال له ، وقد تمسك المسلمون بذلك - حكاماً ومحكومين - وقاموا به خير قيام كما اسلفنا .

ان محاسبة الحكام بالإنكار على اعمالهم المخالفة للشرع ، او اقوالهم المتناقضة مع الاسلام ، لا تعني مطلقاً الاساءة الى اشخاصهم ، لأن كل انسان سوى النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، معرض للخطأ والضلال ، فالانكار عليهم بمحاسبتهم تصلحهم وتقوّم اعوجاجهم ، والسعيد من وعظ فاتعظ وحوسب فاستقام .

ولكن الكافر المستعمر ، لما استطاع أن يقضي على الدولة الاسلامية وإزالة نظام الخلافة من الوجود ، جاء على اثر ذلك بحكام من أبناء المسلمين باسم المسلمين ، لا ليحكموهم بالاسلام ، ولكن ليحكموهم بغيره ..

---

(١) ٣٣٢ ص مختصر منهاج السنة للذهبي .

واذا طالب المسلمون باسلامهم ، وحاسب العلماء حكامهم ، تجهمت الوجوه وتقطبت العيون ، وضاقت الصدور ، وغضبت النفوس .. لم كل ذلك يا قوم ؟؟ والاسلام دين الله الذي ارتضاه للناس ، عبادة وأخلاقاً ودولة وحكماً ، وتشريعاً وأنظمة ، لسائر شؤون الحياة ، والحكام قد تولوا أمر المسلمين ، والمسلمون اهل البلاد ..؟؟ وقد قال تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون [٢]).

وقد يتساءل البعض قائلاً ، لما لا يُمكّن دعاة الاسلام من محاسبة حكامهم والكفاح في سبيل دينهم سياسياً ، وحكام البلاد الاسلامية ومنها العربية يدعون الى الديمقراطية ويطبقونها كذا .. ومن مفاهيمها حرية الرأي التي منها النقد كذا ..

وجواب ذلك عند الراسخين في العلم ، وعند النابهين من الأمة عند الحكام أنفسهم !؟

الحكام يسألون العلماء

الجواب على الأسئلة من واجبات العلماء ، والزوغان في الجواب من علامات النفاق والساكت عنه والكاتم له ، ملعوناً ومطروداً من رحمة الله . وهو شيطان أخرس ، قال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم [٣] ، وقال النبي الكريم عليه الصلاه والسلام (الساكت عن

---

(١) ٣٣٢ ص مختصر منهاج السنة للذهبي

(٢) الاية ٤٤ المائدة .

(٣) الاية ١٥٩ البقرة .

الحق شيطان أخرس [1]) .

والجرأة في الجواب الموصوفة بالصدق من امارات الايمان ، وبالأخص اذا كان السائل حاكماً .

والقصد من الجواب الارشاد الى الحق ، وبيان وجه العدل للسائل، وقد ذكر الامام الغزالي – رحمه الله تعالى – في إحيائه طرقاً لذلك ، اذكر منها ما يخص اجوبة العلماء للحكام.

١ – التخمين في الجواب والإغلاظ فيه (فان كان هذا النوع من الارشاد يخاف منه غضبة الحاكم فتحدث فتنة يتعدى شرها وسوؤها على الآخرين لم يجز سلوك هذا الطريق ، وان هذا النوع لا يخاف الا على نفس العالم فجائز ومندوب ، لأن علماء السلف كانوا يستعملون ذلك، وهم يدركون انهم بسلوك هذا الطريق يتعرضون للأذى او القتل لو لانواع العذاب ، لانهم كانوا يعدون هذا شهادة في سبيل الله وأذى في سبيله ينالون الاجر العظيم والمنزلة السامية عند الله ، لقوله ﷺ (خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام الى إمام جائر فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك [2]) وليس في ذلك تهلكة ولا هو دخل في معنى قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) كما أشرنا الى ذلك في فصل سابق [3] ووصف النبي ﷺ عمر بن الخطاب (قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم [4]) .

---

(١) الاية ١٥٩ البقرة .
(٢) رواه الحاكم بسند صحيح .
(٣) راجع فصل العلماء وآية التهلكة من هذا الكتاب .
(٤) القرن الحص ، راجع تفصيل ذلك في ص ٦٨ من كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر جـ ٧ احياء علوم الدين .

يقول الإمام الغزالي في احيائه (ولما علم المتصلبون في الدين ان افضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وان صاحب ذلك اذا قتل فهو شهيد كما وردت به الاخبار ، قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين انواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله (١)) .

وهذه صور رائعة في أجوبة العلماء للحكام تبرز صلابتهم في التمسك بدينهم ولو أدى الى فقدان المهج والأرواح . ولنضرب أمثلة لذلك :

.. جيء بالعالم حطيط الزيات الى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم . قال حطيط : سل عما بدا لك فاني عاهدت الله عند المقام (٢) على ثلاث خصال ان سئلت لأصدقن وان ابتليت لأصبرن وان عوفيت لأشكرن .

قال الحجاج فما تقول فيّ ؟ قال أقول فيك أنك من أعداء الله في الارض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة ، قال : فما تقول في امير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، قال : أقول أنه أعظم جرماً منك ، وانما أنت خطيئة من خطاياه ، فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب ، فانتهى به العذاب الى ان شقق له القصب ، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ، ثم جعلوا يمدون — يسلتون — قصبة قصبة ، حتى انتحلوا لحمه ، فما سمعوه يقول شيئاً ، فقيل للحجاج انه في آخر رمق ، فقال اخرجوه فارموا به في السوق ، قال جعفر — وهو الراوي — فأتيته أنا وصاحب له ، فقلنا له : حطيط ألك حاجة ؟ قال : شربة ماء ، فأتوه بشربة ثم استشهد ، وكان عمره ثماني عشرة سنة رحمه الله (٣) .

---

(١) ص ٦٩٢ جـ ٧ الاحياء .
(٢) مقام سيدنا ابراهيم عند الكعبة المشرفة .
(١) ص ٥٤ جـ ٥ الاحياء .

شهادة في سبيل الله تالهـا حطيط وتلك مظلمة للحجاج يبوء باثمها وعليه عقابها الشديد يوم يجتمع الخصوم عند مليك مقتدر عادل .

لما دخل عبد الله بن علي دمشق ، بعد ان أجلى بني أمية عنها ، طلب الاوزاعي ، فتغيب عنه ثلاثة ايام ثم حضر بين يديه ، قـال الأوزاعي : « دخلت عليه وهو على سرير وفي يديه خيزرانة ، والمسودة عن يمينـه وشماله ، معهم السيوف مصلتة ، والغمد والحديد ، فسلمت عليه فلم يرد ، ونكث بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال :

« يا أوزاعي ما ترى فيما صنعناه من إزالة أيدي اولئك الظلمة عن العباد ، والبلاد ؟ أجهاداً ورباطاً هو ؟ » فقلت « ايها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الانصاري يقول ، سمعت محمد بن ابراهيم التميمي يقول ، سمعت علقمة ابن قاص يقول ، سمعت عمر بن الخطاب يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: انما الأعمال بالنيات وان لكل امرىء مـا نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، او امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » .

فنكث بالخيزرانة اشد ما ينكث ، وجعل مَن حوله يقبضون ايديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال :

« يا اوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية ؟ » فقلت : قال رسول الله ﷺ ، لا يحلّ دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث ، النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فنكث بها اشد من ذلك ، ثم قال :

ما تقول في اموالهم ؟

قلت :

« ان كانت في ايديهم حراماً فهي حرام عليك ايضاً ، وإن كانت حلالاً فلا تحل لك الا بطريق شرعي » فنكث اشد ما كان ينكث قبل ذلك ثم قال :

« ألا نوليك القضاء ؟ » .

قلت :

« ان اسلافك لم يكونوا يشقون عليّ في ذلك واني احب ان يتم ما ابتدأوني به من الاحسان » .

فقال : « كأنك تحب الانصراف ؟ »

قلت : ان ورائي حرماً ، وهن يحتجن الى القيام عنيهن وسترهن ، وقلوبهن مشغولة بسببي .

انتظرت رأسي ان يسقط بين يدي ، فأمرني بالانصراف [1] .

روي أن ابا جعفر المنصور استدعى ابن طاوس احد علماء عصره ، ومعه مالك بن انس رحمهما الله تعالى فلما دخلا عليه ، اطرق ساعة ثم التفت الى ابن طاوس ، فقال له : حدثني عن ابيك يا طاوس (ابن كيسان التابعي) فقال حدثني ابي ان رسول الله ﷺ ، قال (ان اشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل اشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله) فأمسك ساعة ، قال مالك فضممت ثيابي مخافة ان يملأني من دمه ، ثم التفت اليه ابو جعفر فقال : عظني يا ابن طاوس : قال نعم يا امير المؤمنين ان الله تعالى يقول : (ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ ارم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ،

---

(١) ٧١ عدد مجلة العربي ١٩٦٤ — الاوزاعي فقيه اهل الشام .

فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد) قال مالك : فضممت ثيابي مخافة ان يملأني من دمه ، فأمسك عنه ثم قال : ناولني الدواة ، فأمسك ساعة حتى اسود بيننا وبينه ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة ، فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك ان تناولنيها ؟ فقال اخشى ان تكتب بها معصية لله ، فأكون شريكك فيها .

فلما سمع ذلك قال : قوما عني ، قال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم ، قال مالك فما زلت اعرف لابن طاوس فضله[1] مع شدة هذه الموعظة ورد طلب المنصور بهذا الاسلوب العنيف أجاب المنصور معاتباً : قوما عني .

قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي وأتي بسفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره ، فلما دخل عليه سلم ولم يسلم بالخلافة ، والربيع قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب امره ، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق وقال له : يا سفيان تفر ههنا وههنا وتظن ان لو اردناك بسوء لم نقدر عليك ؟ فقد قدرنا عليك الآن . افما تخشى ان نحكم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : ان تحكم فيّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل .

فقال الربيع له : يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل ان يستقبلك بمثل هذا ؟ أتأذن لي ان اضرب عنقه ، فقال له المهدي ، اسكت ويلك وهل يريد هذا وأمثاله الا ان نقتلهم فنشقى لسعادتهم ، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ان لا يعترض عليه في حكم ، فكتب عهده ودفعه اليه ، فأخذه وخرج ورمى به في دجلة ، وغاب عن انظار الناس فطلب في كل بلد فلم يوجد فعين مكانه شريك النخعي[2]. هؤلاء الحكام كانوا يدركون ما

(١) ص ١٦٠ جـ ١ تذكرة الحفاظ .

(٢) ص ١٦٠ جـ ١ تذكرة الحفاظ .

يقولون ويؤمنون بما ينطقون بان قتل العالم شقاء يحصل عليه القاتل وسعادة ينالها المقتول .

قال الفضل بن الربيع : كنت بمنزلي ذات يوم وقد خلعت ثيابي وتهيأت للنوم ، فاذا بقرع شديد على بابي فقلت في قلق من هذا ، قال الطارق : اجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعاً اتعثر في خطوي فاذا بالرشيد قائماً على بابي وفي وجهه تجهم حزين ، فقلت يا أمير المؤمنين : لو ارسلت اليّ اتيتك فقال : ويحك قد حاك في نفسي شيء اطار النوم من اجفاني وازعج وجداني شيء لا يذهب به الا عالم تقي من زهادك ، فانظر لي رجلا اسأله .

ثم يقول الربيع حتى جئت بـه الى الفضل بن عياض ، فقال الرشيد امضِ بنا اليه ، فأتيناه ، واذا هو قائم يصلي في غرفته وهو يقرأ قوله تعالى (ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون [1]) فقال الرشيد ان انتفعنا بشيء فبهذا ، فقرعت الباب ، فقال الفضل : من هذا ؟ قلت أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي ولامير المؤمنين ، فقلت سبحان الله أما عليك طاعته ؟ فقال : أوليس قد روي عن النبي ﷺ : (انه ليس للمؤمن ان يذل نفسه) فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بايدينا فسبقت كف الرشيد كفي اليه ، فقال أواه من كف ما الينها ان نجت من عذاب الله تعالى .

قال الربيع : فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي.

فقال الرشيد : خذ فيما جئناك له يرحمك الله ، قال الفضل بن عياض وفيما جئت وقد حملت نفسك ذنوب الرعية ، التي سمتها هوانا وجميع من

---

(١) ٢٦٣ ص جـ ١ تذكرة الحفاظ .

معك من بطانتك وولاتك تضاف ذنوبهم يوم الحساب ، فبك بغوا وبك جاروا وهم مع هذا ابغض الناس لك واسرعهم فراراً منك يوم الحساب ، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم ، ان يحملوا عنك سقطاً - جزءاً - من ذنب ما فعلوه ، ولكان اشدهم حباً لك اشدهم هرباً منك ثم قال : ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد ابن كعب ورجاء بن حياة - وهم ثلاثة من العلماء الصالحين - فقال لهم : اني قد ابتليت بهذا البلاء فاشيروا عليّ ، فعد الخلافة بلاء وعددتها انت واصحابك نعمة .

فقال له سالم بن عبد الله : ان اردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها الموت .

وقال له محمد بن كعب : ان اردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك اخاً واصغرهم عندك ابناً ، فوقر اباك واكرم اخاك وتحنن على ولدك .

وقال رجاء بن حياة : ان اردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت ان شئت .

واني اقول لك : يا هارون اني اخاف عليك اشد الخوف يوماً تزل فيه الاقدام ، فبكى هارون .

قال ابن الربيع : فقلت أرفق بأمير المؤمنين ، فقال : تقتله انت وأصحابك وأرفق به انا ؟

ثم قال : يا حسن الوجه انت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فان استطعت ان تقي هذا الوجه فافعل ، وإياك ان تصبح او تمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك ، فان النبي ﷺ قال :

(من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة) فبكى الرشيد ثم قال : هل عليك دين ؟ فقال : نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي ان سألني والويل لي ان ناقشني ، والويل لي ان لم ألهم حجتي . قال الرشيد : انما اعني دين العباد فقال : ان ربي لم يأمرني بهذا وقد قال عز وجل : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ان الله هو الرازق ذو القوة المتين) .

فقال الرشيد : هذه الف دينار خذها وانفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك ، قال : سبحان الله ، انا ادلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ؟ قال ابن الربيع : فخرجنا من عنده ، فقال هارون : اذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين اليوم[1] . وكيف لا يكون سيد المسلمين في زمانه وهو القائل : لو زهد العلماء في الدنيا خضع لهم الجبابرة . نعم هذا سيد المسلمين اليوم ، لصدق حديثه وقوة إيمانه وزهده العظيم في الحياة وصلابة موقفه مع امير المؤمنين الذي جاءه ملتمساً التذكر فاستمع باكياً وخرج شاكراً .

ادخل على ابي جعفر المنصور ، العالم الجليل سفيان الثوري ، وسأله أن يرفع اليه حاجته ، فأجابه : اتق الله فقد ملأت الارض ظلماً وجوراً ، فطأطأ المنصور رأسه ثم عاد عليه السؤال ، فأجابه : انما انزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار ، وأبناؤهم يموتون جوعاً ، فاتق الله وأوصل اليهم حقوقهم . فطأطأ المنصور شاكراً ثم كرر السؤال ، ولكن سفيان تركه وانصرف[2] .

حين قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وهو يريد مكة ، ارسل الى

---

(١) ص ٦٧٤ ج ٤ الفتوحات المكية مختصراً .

(٢) ص ١٢٠ ج ٥ الاحياء .

عالمها الجليل ابي حازم فلما دخل عليه قال له سليمان : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ، فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب ، فقال سليمان : يا ابا حازم ، كيف القدوم على الله ؟ قال : يا امير المؤمنين ، اما المحسن فكالغائب يقدم على اهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه . فبكى سليمان ، وقال : ليت شعري ما لي عند الله ؟

قال ابو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله تعالى ، حيث قال : (ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) . قال سليمان : فأين رحمة الله ؟ قال : قريباً من المحسنين ، قال : يا أبا حازم ، اي عباد الله أكرم ؟ فقال : اهل البر والتقوى ، قال : فأي الأعمال افضل ؟ فقال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : اي الكلام اسمع ؟ فقال : قول الحق عند من تخاف وترجو . قال : فأي المؤمنين اخسر ؟ فقال : رجل خطأ في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره ، قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟ فقال : أوتعفيني ؟ قال : لا بد فانها نصيحة تلقيها إليّ . فقال : ان آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا ، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم . فقال رجل من جلسائه : بئسما قلت . قال ابو حازم : ان الله قد اخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه (١) .

أسمعت يا أخي مقالة الشيخين الجليلين سفيان وابن حازم للخليفتين المنصور وسليمان بأيديهما كل اسباب القوة وهل علمت نتيجة صدق الجواب ، وخشونة الكلام وقسوة اللفظ عند من يخشى الله تعالى ولو ساعة من نهار .

---

(١) ص ١٢١ ج ٥ الاحياء .

دعا عمر بن هبيرة فقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة ، وأهل الشام ، فجعل يسألهم واحداً واحداً ، ثم طلب منهم الانصراف وخلا بالشعبي عالم اهل الكوفة ، وبالحسن البصري عالم اهل البصرة ، فأقبل على الشعبي فقال : يا ابا عمرو : اني أمين امير المؤمنين على العراق وعامله عليها ، ورجل مأمور على الطاعة ، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم ، فأنا أحب حفظهم واتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الامر اجد عليهم فيه ، فأقبض طائفة من عطائهم ، فأضعه في بيت المال ، ومن نيتي ان ارده عليهم ، فيبلغ امير المؤمنين اني قد قبضته على ذلك النحو ، فيكتب اليّ ان لا ترده فلا استطيع رد امره ولا انفاذ كتابه ، وانما انا رجل مأمور على الطاعة ، فهل عليّ في هذا تبعة ؟ وفي اشباهه من الامور ، والنية فيها على ما ذكرت .

قال الشعبي : فقلت اصلح الله الامير ، انما السلطان والد يخطىء ويصيب ، قال : فسر بقولي وأعجب به ، ورأيت البشر في وجهه ، وقال : فلله الحمد ، ثم اقبل على الحسن ، فقال ما تقول يا ابا سعيد ؟ قال : لقد سمعت قول الامير يقول : انه امين امير المؤمنين على العراق وعامله عليها ، ورجل مأمور على الطاعة ، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة لهم . والتعهد بما يصلحهم ، وحق الرعية لازم له وحق عليك ان تحوطهم بالنصيحة ، واني سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ (من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة) ، ويقول الامير اني ربما قبضت من عطائهم ارادة صلاحهم واستصلاحهم ، وان يرجعوا الى طاعتهم فيبلغ امير المؤمنين اني قبضتها على ذلك النحو ، فيكتب إلي ان لا ترده ، فلا استطيع رد امره ، ولا استطيع إنفاذ كتابه ، وحق الله ألزم من حق امير المؤمنين ، والله أحق أن يطاع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فاعرض كتاب امير المؤمنين

على كتاب الله تعالى فإن وجدته موافقاً لكتاب الله فخذ به وان وجدته مخالفاً لكتاب الله فانبذه ، يا ابن هبيرة ، اتق الله فإنه يوشك ان يأتيك رسول من رب العالمين ، يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك ، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك ، وتقـــدم الى ربك وتنزل على عملك .

يا ابن هبيرة : ان الله ليمنعك من يزيد وان يزيداً لا يمنعك من الله وان امر الله فوق كل امر ، وانه لا طاعة لمخلوق في معصية الله ، واني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

فقال ابن هبيرة : أربع على ظلعك ، واعرض عن ذكر امير المؤمنين ، فإن امير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم ، وصاحب الفضل ، وانما ولاه الله ما ولاه من امر هذه الامة ، لعلمه به وما يعلمه من فضله ونيته ، فقال الحسن : يا ابن هبيرة : الحساب من ورائك سوط بسوط ، وغضب بغضب والله بالمرصاد .

يا ابن هبيرة : انك ان تلق من ينصح لــك في دينك ويحملك على امر آخرتك خير من ان تلق رجلاً يغرنك ويمنيك ، فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه .

قال الشعبي فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلمــاء إلا مثل الفرس العربي بين المقارف ، ومــا شهدنا مشهداً إلا برز علينا ، وقال لله تعالى ، ثم قال الشعبي : انا اعاهد الله أن لا اشد سلطاناً بعد هذا المجلس فأحابيه [١] .. لا عجب من موقف هذا الامــام ، فهو من جل التابعين وصلحاء المؤمنين وزهاد العلماء ، ولكن ان تعجب فاعجب من امثال ابن

(١) ص ٧٦ جـ ٥ الاحياء .

هبيرة عاصل يزيد بن معاوية لذلك الكلام الشديد . أرأيت موقف هؤلاء الحكام مع ظلمهم ؟! مع سادة العلماء وأئمة المسلمين .

.. عن الامام الشافعي رحمه الله تعالى ، قال حدثني عمي محمد بن علي قال : اني لحاضر مجلس امير المؤمنين ابي جعفر المنصور ، وفيه ابن ابي ذؤيب ، وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال : فأتى الغفاريون فشكوا الى ابي جعفر شيئاً من امر الحسن بن زيد ، فقال الحسن هذا ، يا امير المؤمنين : سل عنهم ابن ابي ذؤيب قال : فسأله فقال : ما تقول فيهم يا ابن ابي ذؤيب ، فقال : اشهد انهم تحطم في اعراض الناس ، كثير الأذى عليهم ، فقال ابو جعفر قد سمعتم فقال الغفاريون : يا امير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد ، فقال يا ابن ابي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد ، فقال اشهد انه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال سمعت يا حسن ما قال فيك وهو الشيخ الصالح ، فقال يا امير المؤمنين : سله عن نفسك ؟ فقال ما تقول فيّ ؟ قال تعفيني يا امير المؤمنين : قال أسألك بالله ألا اخبرتني ، قال تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ، قال والله لتخبرني : قال اشهد انك اخذت المال من غير حقه ، فجعلته في غير اهله ، وأشهد ان الظلم ببابك فاش ، قال : فجاء ابو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن ابي ذؤيب فقبض عليه ، ثم قال : أما والله لولا اني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك ، بهذا المكان منك ، قال :

فقال ابن ابي ذؤيب : يا امير المؤمنين قد ولي ابو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية وأخذا بأقفاء فارس والروم ، وأصغرا انوفهم ، قال فخلى ابو جعفر قفاه وخلى سبيله ، قال : والله لولا اني اعلم انك صادق لقتلتك . فقال ابن ابي ذؤيب والله يا امير المؤمنين اني لأنصح لك من ابنك المهدي ، قال فبلغنا ان ابن ابي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور ، لقيه سفيان الثوري فقال : يا أبا الحارث : لقد سرني ما خاطبت

به هذا الجبار ، ولكن ساءني قولك له (ابنك المهدي) فقال يغفر الله لك يا أبا عبدالله كلنا مهدي كلنا كان في المهد[1]. بمثل هذه الصراحة المتناهية نطق العالم الجليل ابن ابي ذؤيب وبمثل هذا الجواب نطق المنصور مسبقاً جوابه بالقسم الاعظم « والله لولا اني اعلم انك صادق لقتلتك » .

لما اشتدت الجفوة بين الشيخ منذر بن سعيد والخليفة عبد الرحمن الناصر نتيجة محاسبة المنذر له في اسرافه على بناء الزهراء كما ذكرنا في الفصل السابق ، اراد ولده الحكم ان يزيل ما بينهما فاعتذر له عند الخليفة فقال : يا امير المؤمنين انه رجل صالح وما اراد الا خيراً ، لو رأى ما انفقت وحسن تلك البنية لعذرك : ويريد بالبنية هنا القبة التي بناها الناصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضة وبعضها مغشى بالذهب وجعل سقفها نوعين صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة يستلب الابصار شعاعها - فلما قال له ولده ذلك ، امر ففرشت بفرش الديباج ، وجلس فيها لأهل دولته ، ثم قال لقرابته ووزرائه ، أرأيتم ام سمعتم ملكاً كان قبلي صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا لا والله يا امير المؤمنين ، وإنك الاوحد في شأنك ، فبينا هم على ذلك ، إذ دخل منذر بن سعيد ناكساً رأسه ، فلما اخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته ، فأقبلت دموع المنذر تنحدر على لحيته - لسوء ما رأى - وقال : والله يا امير المؤمنين ، ما ظننت ان الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا ان تمكنه من قيادتك هذا التمكن ، مع ما أتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين حتى ينزلك منازل الكافرين ، فاقشعر الخليفة من قوله وقال له : انظر ما تقول كيف انزلني الله منازلهم ، فقال نعم : أليس الله تعالى يقول : (ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج

---

(١) ص٧٧ جـ ٧ الاحياء.

عليها يظهرون[1]) فوجم الخليفة ونكس رأسه مليا وجعلت دموعه تنحدر على لحيته ثم اقبل على المنذر ، وقال له جزاك الله خيراً وعن الدين خيراً فالذي قلت هو الحق ، ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً على صفة غيرها[2] وهكذا ارشد هذا الجواب الخليفة ولو كان الجواب مؤذياً حقاً ، لأن الناصر من الذين يعتقدون بالاسلام ويطبقونه ومن المؤمنين بقوله تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب[3]) .

لما ولي الرشيد الخلافة ، زاره بعض العلماء مهنئين له ، بما صار اليه من امر الخلافة الا ان سفيان الثوري كبير العلماء لم يزره ، وكان هارون مؤاخياً له من قبل ذلك ، ويجالسه ويستمع اليه ، فاشتاق هارون الى زيارة سفيان ، ليخلو به ويحدثه ، ولكن سفيان اعرض عن ذلك ، فاشتد ذلك على هارون ، فكتب اليه كتاباً يقول فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد، امير المؤمنين الى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري .

امـا بعد ، يا اخي قد علمت ان الله تبارك وتعالى ، آخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم اني قد آخيتك مؤاخاة لم اصرم بها حبلك ولم اقطع بها ودك واني منطو لك على افضل المحبة والارادة ، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا ، لما اجد لك في قلبي من المحبة ، واعلم يا ابا عبد الله انه ما بقي من اخواني واخوانك

---

(١) الآية ٣٣ الزخرف .

(٢) مقال ، بين خليفة وقاض في مجلة الازهر لشهر رمضان سنة ١٣٧١ للاستاذ عبد الحميد العبادي .

(٣) آية ١٨ الزمر .

احد إلا وقد زارني وهناني بما صرت اليه ، وقد فتحت بيوت الاموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي ، وقرت به عيني ، واني استبطأتك فلم تأتني ، وقـــد كتبت اليك كتاباً شوقاً مني اليك شديداً ، وقد علمت يا ابا عبد الله مـــا جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فاذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل » . فلما كتب الكتاب التفت الى من عنده ، فـاذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته ، فقال : عليّ برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني ، فقال : يا عباد خذ كتابي هذا فانطلق به الى الكوفة ، فاذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري ، فاذا رأيته فألق كتابي هذا اليه ، وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول ، فأحص عليه دقيق امره وجليله لتخبرني به ، فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد اليها ، ثم سأل عن سفيان ، فقيل له : هو في المسجد . قال عبـــاد : فأقبلت الى المسجد فلما رآني قام قائماً وقال : اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، واعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير ، قال عباد : فوقعت الكلمة في قلبي فخرجت ، فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي ، ولم يكن وقت صـــلاة ، فربطت دابتي بباب المسجد ودخلت ، فاذا جلساؤه قد نكسوا رؤوسهم ، كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما رفع احد إليّ رأسه ، وردوا السلام عليّ ، فبقيت واقفاً فما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس وقد علاني من هيبتهم الرعدة ، ومددت عيني اليهم ، فقلت ان المصلي هو سفيان ، فرميت بالكتاب اليه ، فلما رأى الكتاب ارتعـــد وتباعد منـــه ، كأنه حية عرضت له في محرابه ، فرجع وسجد وسلم وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه بيده ، ثم رماه من كان خلفه ، وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه ، فاني استغفر الله ان امسّ شيئاً مسه ظالم بيده ، قال عباد فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من فم حية

تنهشه ثم فضه وقرأه وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب ، فلما فرغ من قراءته ، قـــال : اقلبوه واكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه . فقيل له : يا أبا عبد الله انه خليفة ، فلو كتبت اليه في قرطاس نقي ، فقـــال : اكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه ، فان كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وان كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى بـه ، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا ، فقيل له : مـــا نكتب ؟ قال : اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان بن سعيد ابن المنذر الثوري الى العبد المغرور بالآمال ، هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الايمان .

اما بعد : فاني قـــد كتبت اليك اعرفك اني قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك وقلبت موضعك ، فانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك ، بما هجمت به على بيت مال المسلمين ، فانفقته في غير حقه ، وانفذته في غـير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت اليّ تشهدني على نفسك ، اما اني قد شهدت عليك انا واخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بـــين يدي الله تعالى .

يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هـــل رضي بفعلك المؤلفـة قلوبهم ، والعاملون عليها في ارض الله تعالى ، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ام رضي بذلك حمـــلة القرآن واهل العلم والارامل والايتام ، ام رضي بذلـك خلق من رعيتك ، فشد يا هارون مئزرك واعد المسألة جواباً ، وللبلاء جلبابا ، واعلم انك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فقد رزئت في نفسك اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الاخيار ، ورضيت لنفسك ان تكون ظالماً وللظالمين اماماً الى ان يقول : واعلم يا هارون اني قـــد نصحتك وما أبقيت في النصح

غـــاية ، فاتق الله يا هارون في رعيتك واحفظ محمداً ﷺ في امته ، واحسن الخلافة عليهم .

واعلم ان هـــذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل اليك ، وهو صائر الى غـــيرك ، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد ، فمنهم من تزود زادا نفعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته واني احسبك يا هارون ممـــن خسر دنيـــاه وآخرته ، فاياك اياك ان تكتب لي كتاباً بعد هذا فـــلا اجيبك عنه والسلام [1] » .

تلك – يا أخي الكريم – صور واقعـــة وأحداث شاخصة ، سجلها تاريخ علماء امتك المجيدة بمداد من نور وايمان ، نور يضيء الطريق المدلهم

(١) ٨٨ و٨٩ جـ ٧ الاحياء ، وإتماماً لفائدة القارىء الكريم ، فاني اثبت رد الفعل الذي حصل للرشيد حين بلوغه كتاب سفيان رحمه الله تعالى وبه يتجلى موقف الحكام من العلماء الذين نذروا انفسهم للاسلام ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، في اجوبتهم التي لا تعرف النفاق . ولا الخوف من الحاكم مهما أوتي من قوة وسلطان . قال عباد : فألقى الى الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم ، فأخذته وأقبلت الى سوق الكوفة ، وقـــد وقعت الموعظة من قلبي ، فناديت يا اهل الكوفة فأجابوني ، فقلت لهم : يا قوم من يشتري رجلا هرب من الله الى الله ، فأقبلوا إليَّ بالدنانير والدراهم ، فقلت لا حاجة لي في المال ، ولكن جبة صوف .. وعباءة قطوانية قال فأتيت بذلك ، ونزعت مـــا كان عليَّ من اللباس الذي كنت ألبســه مع امير المؤمنين ، واقبلت اقود البرذون – الدابة التي كان يركبها – وعليـــه السلاح الذي كنت احمله ، حتى اتيت امير المؤمنين راجلا فتهزأ بي من كان على باب الخليفة ، ثم استؤذن لي ، فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة ، قام وقعد ، ثم قام قائماً ، ويدعو بالويل والحزن ويقول انتفع الرسول وخاب المرسل ، مـــا لي وللدنيا ما لي والملك يزول عني سريعاً ثم القيت الكتاب اليه منشوراً كما دفع إلي فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ، ويقرأ ويشهق ، قال بعض جلسائه : يا امير المؤمنين لقـــد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت اليه فأثقلته بالحديد ، وضيقت عليـــه السجن ، كنت تجعله عبرة لغيره (تلك مقالة بطانة السوء في كل زمان) فقال هارون : اتركونا يا عبيد الدنيـــا ، المغرور من غررتموه والشقي من اهلكتموه وان سفيان امة وحده ، فاتركوا سفيان وشأنه اهـ. وتلك اجوبة المؤمنين ومقالة الصادقين الذين يخشون الله والدار الآخرة ولو جوبهوا بكلام تضيق منـــه صدور الاخرين .. ؟ وسمعوا حديثاً تأبى آذان من اعرضوا عن ذكر الله سماعه والانصات اليه.

الحالك ، وايمان يملأ القلوب بالخوف الشديد من الله وحده ولنيل رضوانه ، اتبعها السادة العلماء ، سالكين سلوك الغلظة في الجواب على اسئلة الحكام، وانذارهم وتوعدهم بصريح العبارة وشدة الكلام ، لإيقاظ الغافلين منهم عن ذكر الله ، الآمنين مكره العظيم ، ولإفهامهم ان في الدنيا رجالاً لا يخافون بطشهم ، ولا يرهبون سلطانهم ، وانهم وجدوا من اجل الاسلام وحده .

اما الحكام فقد استسلموا لعزة الاسلام وانقادوا طائعين او مكرهين لأجوبة العلماء لأنهم يعرفون حق العلم وسلطانه ويؤمنون بوجوب توقير العلماء .

اما الطريق الثاني الذي ذكره الامام الغزالي في سلوك العلماء لجواب الحكام اذا سألوهم او طلبوا منهم الكلام فهو :

التلطف بالجواب من غير نفاق ، والتعريض بالسائلين من غير جبن والتعريف بأحكام الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وان كان الجواب لا يوافق اهواء الحكام او لا يحقق رغباتهم .

وهذا الطريق قد سلكه العلماء قديماً وحديثاً ، وقد امتلأ تأريخهم الحافل بمثل هذه الحوادث وقد بلغت من الكثرة ما جعلني اختار منها ما اراه مناسباً ، يثير العظة ويؤخذ منه العبرة . وهذا ما نقصده ونسعى اليه .

.. قال مقاتل بن سليمان ، دخلت على حماد بن سلمة ، فإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس وفي يده مصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علمه ، ومطهرة يتوضأ منها ، فبينما انا جالس اذ دق الباب ، فقال حماد : يا حبيبة اخرجي فانظري من هذا ؟.. فقالت رسول محمد بن سليمان الى حماد بن سلمة ، فأذن له فدخل ، فقال بعد ان سلم اما بعد : فصبحك الله

بما صبح به اولياءه واهل طاعته ، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها والسلام . فقال : يا حبيبة هلم الدواة ثم قال لي : اقلب كتابه .واكتب أما بعد : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته ، إنا ادركنا العلماء وهم لا يأتون احداً فإن وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدا لك ، وان أتيتني فلا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا نفسي والسلام .

فبينا أنا جالس اذ دق الباب فقال : يا حبيبة أخرجي فانظري من هذا ؟ قالت محمد بن سليمان قال : قولي له يدخل وحده ، فدخل وجلس بين يديه ثم ابتدأ فقال : مالي اذا نظرت اليك امتلأت منك رعباً .

قال حماد : حدثني ثابت البناني قال سمعت انساً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول (ان العالم اذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء واذا اراد به أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء) ، فقال ما تقول رحمك الله في رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى ، فأراد ان يجعل له في حياته ثلثي ماله ؟ فقال حماد لا يفعل رحمك الله ، فإني سمعت أنساً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول (اذا أراد الله ان يعذب عبداً من عباده في حياته وفقه الى وصية جائرة) فعرض عليه مالاً فلم يقبل وخرج .

. صدق رسول الله ﷺ (نعم الامراء على ابواب العلماء وبئس العلماء على ابواب الامراء) فتأمل يا اخي هذا الحديث النبوي الكريم .

انتفض اهل الموصل على ابي جعفر المنصور ، وقد اشترط المنصور عليهم انهم ان انتفضوا تحل دماؤهم له ، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم الامام ابو حنيفة فقال : أليس صحيحاً انه عليه السلام قال : (المؤمنون عند شروطهم) واهل الموصل قد شرطوا الا يخرجوا عليّ وقد خرجوا على عاملي وقد حلت لي دماؤهم ، فقال رجل منهم ، يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم ، فان عفوت فانت اهل للعفو وان عاقبت فبما يستحقون .

فقال لأبي حنيفة : ما تقول انت يا شيخ ألستا في خلافة نبوة وبيت امان ؟ فأجاب انهم شرطوا الك ما لا يملكون (وهو استحلال دمائهم) وشرطت عليهم ما ليس لك ، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث [1] فان اخذتهم اخذت بما لا يحل ، وشرط الله احق ان توفي ، فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا ثم دعاه وحده وقال يا شيخ القول ما قلت انصرف الى بلادك ولا تفت الناس بما هو شين على امامك فتبسط ايدي الخوارج [2] .

امتنع المنصور بحكم الشرع الذي نطق به ابو حنيفة ولو انه لم يوافق هوى نفسه ولم يستجب لرغبته الخاصة ، ان الشرع فوق كل الميول والاهواء قال النبي الكريم ﷺ (لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

دخل احدهم على سليمان بن عبد الملك ، فقال له سليمان تكلم : فقال يا امير المؤمنين اني مكلمك بكلام فاحتمله وان كرهته ، فان وراءه ما تحب ان قبلته ، فقال : انا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غشه ، فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه ، قال: يا امير المؤمنين ، انه تكنفك رجال اساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك ، حرب الآخرة سلم الدنيا ، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه ، فانهم لم يألوا في الامانة تضيعاً وفي الامة خسفاً وعسفاً ، وأنت مسؤول عما اجترحوا ، وليسوا بمسؤولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان اعظم الناس غبناً من

---

(١) يشير الامام ابو حنيفة رحمه الله تعالى الى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» رواه البخاري ومسلم .

(٢) ص ١٧ جـ ٢ المناقب لابن الجوزي .

باع آخرته بدنيا غيره، فقال له سليمان: اما انك قد سللت لسانك وهو اقطع من سيفك ، قال : اجل يا امير المؤمنين ولكن لا عليك [1] .

نعم أجوبة العلماء للحكام هي للحكام انفسهم لا عليهم وكيف لا وهي تعين درب النجاة من الوقوع في الاخطاء ، والحاكم المسلم يعلم ان كل خطأ جالب للاثم يسويه الى الرعية التي ولته امرها ليحسن الرعاية بها .

لما خرج الظاهر (بيبرس) الى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء بجواز اخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم ، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه ، فقال : هل بقي من احد ؟ فقيل له : نعم ، بقي الشيخ محي الدين النووي فطلبه فحضر فقال له: اكتب خطك مع الفقهاء . فامتنع، فقال : ما سبب امتناعك فقال : انا اعرف انك كنت في الرق للأمير (بندقدار) وليس لك مال ثم منّ الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت عندك الف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلي ، فاذا انفقت ذلك كله وبقيت مماليك بالبنود والصرف بدلاً من الحوائص ، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي ، افتيتك بأخذ المال من الرعية، فغضب (الظاهر) من كلامه وقال: اخرج من بلدي – يعني دمشق ، فقال : السمع والطاعة . وخرج الى (نوى) فقال الفقهاء : ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده الى دمشق ، فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال : لا ادخلها والظاهر فيها ، فمات بعد شهر [2] .

اعتذر الحاكم لأنه علم من هو النووي علماً وتقوى ولكن النووي رفض هذا الاعتذار بإباء وشمم ليعطي درساً بليغاً بأن الحكام يحرم عليهم الاساءة الى مسلم وكيف للعالم ولو اتبعها بالاعتذار .

---

(١) ص ١٢٢ جـ ٥ الاحياء .

(٢) جـ ٩ من اخلاق العلماء .

(يقول صاحب كتاب من اخلاق العلماء ، حدثني صديقي الكريم محمد فهمي الناضوري (باشا) عن احمد افندي بدوي عن ابيه عن جده ، وكان من شيوخ الازهر في زمن الخديو اسماعيل .

قال : لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين قواد جيوشها ، ضاق صدر الخديو لذلك ، فركب يوماً مع شريف (باشا) وهو محرج ، فأراد ان يفرج عن نفسه ، فقال الشريف : ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة تريد ان تدفعها ؟ فقال : يا افندينا ، ان الله عودني اذا حاق بي شيء من هذا ألجأ الى صحيح البخاري يقرؤه لي علماء أطهار الانفاس ، فيفرج الله عني . قال : فكلم الخديو شيخ الجامع الازهر ، وكان الشيخ العروسي ، فجمع له صلحاء العلماء ، جمعاً واخذوا يتلون في البخاري امام القبة القديمة في الازهر ، قال : ومع ذلك ظلت الهزائم تتوالى ، فذهب الخديو ومعه شريف الى العلماء ، وقال لهم محنقاً : اما ان هذا الذي تقرؤونه ليس صحيح البخاري ، او انكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح ، فان الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً ، فوجم العلماء ، وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له : منك يا اسماعيل فإنا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم [1] : فزاد وجوم المشايخ وانصرف الخديو ومعه شريف ، ولم ينبسا كلمة ، وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه ، فبينما هم كذلك اذا بشريف باشا قد عاد يسأل : اين الشيخ القائل للخديو ما قال ؟ فقال الشيخ : انا . فأخذه وقام ، وانقلب العلماء بعد ان كانوا يلومون الشيخ يودعونه وداع من لا يأملون ان يرجع ، وسار شريف بالشيخ الى ان دخلا على الخديو في قصره ، فاذا به قاعد

(١) روى الحديث البزاز والطبراني في الاوسط .

في البهو وامامه كرسي اجلس عليه الشيخ ، وقال له : أعد يا أستاذ ما قلته لي في الازهر ، فأعاد الشيخ كلمته وردد الحديث وشرحه ، فقال له الخديو: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال له : يا افندينا ، أليست المحاكم المختلطة حتى فتحت بقانون يبيح الربا ؟! أليس الزنا برخصة ؟! أليس الخمر مباحاً ؟! أليس أليس ، وعدّد له منكرات تجري بلا انكار، وقال: كيف تنتظر النصر من السماء ؟ فقال الخديو : وماذا نصنع وقـد عاشرنا الأجانب وهذه هي مدنيتهم ؟ قال الشيخ : اذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء ؟ ففكر الخديو ملياً وأطرق طويلاً ثم قال له : صدقت صدقت، وأمر فرتبت له في (الرزنامجة) ثلاثون جنيهاً ، وعاد الشيخ بعد هـــذا الى الازهر ، واخوانه قد يئسوا منه فكأنما قد خلق جديداً [1] .

وهكذا يستجيب مثل هذا الحاكم لمقالة العـالم الصادق ويتبع الاستجابة بالإكرام والتقدير .

---

(١) ١٠١ و ١٠٢ ص من اخلاق العلماء : ومن الجدير بالذكر والتعليق على هذه الواقعة ان قراءة صحيح البخاري هي من باب الدعاء ، لأن فيه ذكر الله وتحميده ، والتضرع اليـه سبحانه وتعالى لطلب النصر ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ثبته وذكره البخـاري في صحيحه ، والدعاء مطلوب شرعاً في كل ساعة، خصوصاً في ساعات الشدة وأوقات المحنة والضيق وكما استشهد الشيخ رحمـــه الله تعـالى بالحديث الشريف (.. فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) ولكن الدعاء وحده ليس طريقاً لرد العدو والانتصار عليـه ، فلا بـــد ان يكون مع الدعاء القتال بإعداد لوازمه وحسـن البلاء فيه (فأعدوا لهم مـــا استطعتم من قوة) (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله..) (وقاتلوا المشركين) (يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال)، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يدعو ويلح في الدعاء لاستنزال النصر وطلب التأييد من رب العالمين سبحانه وتعالى ، وبنفس الوقت كان يعد العدة الحربية ويحرض المؤمنين على القتال ، وربما قاتل بنفسه كما حدث في بعض غزواته ، وتلك طريقة الاسلام في رد العدو او الجهاد لحمل الدعوة الاسلامية الى العالم .

العلماء ينصحون الحكام

يحرص العلماء الصالحون – دائماً – على ابـداء النصيحة والموعظة الحسنة للحكام ، حرصاً جعلهم يتحملون كل مشقة وأذى في هـذا السبيل ، ويبذلون كل جهدهم لتحقيق هذا المطلب الشرعي الكريم، لأن الدين النصيحة كما يقول النبي الاكرم ﷺ ، (الدين النصيحة .. قلنا لمن ؟ قـال : لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم [١]) ولأن الله تعالى يقول : (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف ..) وهل الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف الا نصيحة وموعظة حسنة ..

وكانت النصيحة للحكام في مقدمة المنتصحين ، لأن نصيحتهم وانتصاحهم فيه الخير كل الخير لهم ولمن يتولون امرهم لذلك رأى جلة علماء السلف الصالح ان ابداء النصيحة للحكام ، اجدى من الثورة عليهم والخروج على سلطانهم . حين لم يروا كفراً بواحاً او الحاداً في آيات الله تعالى ، او تغير احكام الشرع، يقول الامام الحسن البصري رحمه الله تعالى (هم يلون من امورنا الجمعة والفيء والثغور والحدود والله لا يستقيم الدين إلا بهم وان جاروا وان ظلموا . والله لما يصلح الله بهم اكثر مما يفسدون [٢]) .

وقـد أجاب الامام مالك بن انس عندما سئل عن قتال الخارجين على الخليفة ، فقد قـال قائل له : ايجوز فقال : ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز ، فقال السائل : فان لم يكن مثله فقال دعهم ينتقم الله من ظالم لظالم ثم ينتقم من كليهما [٣] ثم يعلق الاستاذ الشيخ ابو زهرة على مقالة الامام

---

(١) رواه مسلم .
(٢) ٥٢ ص حاشية : مالك ، لابي زهرة .
(٣) ضحى الاسلام .

مالك هذه بقوله : ولسنا ندري في اي دولة قال هـذا افي الدولة الاموية ام في الدولة العباسية ، ولعل الاقرب ان ذلك كان في عصر الدولة العباسية لأنه عصر نضج مالك – الفكري والفقهي – ولا يصلح ان يفهم من هذا انـه يوالي الامويين دون العباسيين ، فان منطقه الذي سار عليه في حياته لا ينطق بذلك ، ثم هو – رحمه الله تعالى – قد وضع الصورة (المثالية بـين يدي سائله فقال ان كان الخليفة عمر بن عبد العزيز في تقواه وعدله واقامة الحدود ورفقه بالناس ، والا فليذروهم في غيهم يعمهون [1]) ويوضح هذا المعنى في تفضيل النصيحة للحكام الذين يسيئون في تطبيق الاسلام الموصوفين بالحكام الظلمة لا الكفرة الذين اعرضوا عـن تطبيق الاسلام وتحكيم القرآن معتقدين بصحة هـذا الاعراض – على الخروج عليهم ، وقف الحسن البصري كبير العلماء في العصر الاموي ، وقـد سأله البعض عن الخارجين على امير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فأجاب (لا تكن مع هؤلاء ولا هؤلاء فقال رجـل من اهـل الشام ، ولا مع امير المؤمنين يا ابا سعيد ؟ فغضب وخط بيده ثم قال ولا مع امير المؤمنين يا ابا سعيد . ولا مع امير المؤمنين) .

ولم يكن هذا الموقف خاصاً بهذين الامامين الجليلين بل هو موقف الامامين سعيد بن المسيب واحمـد بن حنبل واضرابهما فاكتفى هؤلاء بالنصيحـة وابداء الموعظة الحسنة لحكامهم. تلك التي لم تخل من شدة في الكلام وتخويف بالله المنتقم الجبار ، وها هي صور من هذه النصائح والمواعظ ..

كتب الامام مالك بن انس رحمه الله تعالى رسالته الشهيرة ، الى هارون الرشيد ، يعظه فيها وينصح وقـد جاء في مقدمتها اما بعد : فاني كتبت اليك بكتاب لم آلك فيـه رشداً ، ولم ادخر فيه نصحاً ، تحميد الله وادبا عن رسول الله ﷺ ، فتدبره بعقلك وردد فيـه بصرك وارعه سمعك ، ثم

---

(١) ص ٥١ مالك ، لابي زهرة .

اعقله بقلبك ، واحضر فهمك ، ولا تغيبن عنه ذهنك ، فـان فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب الله في الآخرة .

اذكر نفسك في غمرات الموت ، وكربة ما هو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه ثم الحساب ثم الخلود بعد الحساب ، وأعد لله عز وجل ما يسهل عليك اهوال تلك المشاهد وكربها ، فإنك لو رأيت سخط الله تعالى وما صار اليه الناس من ألوان العذاب وشدة نقمته عليهم ، وسمعت زفيرهم في النـار وشهيقهم مع كلوح وجوههم وطول غمهم وتقلبهم في دركاتها على وجوههم ، ولا يسمعون ولا يبصرون ، ويدعون بالويل والثبور، وأعظم من حسرة اعراض الله عنهم وانقطاع رجائهم وإجابته اياهم بعد طول الغم ، بقوله : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) .

ثم قال له : لا تأمن على شيء من أمرك من لا يخاف الله ، فانه بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال (شاور في امرك الذين يخافون الله)، احذر بطانة السوءوأهل الردى على نفسك فانه بلغني عن النبي ﷺ انه قال: (ما من نبي ولا خليفة إلا وله بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهـــاه عن المنكر وبطانة لا تألوه خبالاً [١]..

ثم قال : لا تجر ثيابك فان الله لا يحب ذلك ، فقد بلغني عن النبي ﷺ انه قال (من جرّ ثيابه خيلاء لم ينظر الله اليــه يوم القيامة [٢]) أطع الله في معصية الناس ولا تطع الناس في معصية الله ، فقد بلغني عن النبي ﷺ انـه قال (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) [٣] ، الى آخر تلك الرسالة العظيمة الجريئة ، التي احتوت على كل معاني الايمان ، والدعوة الى التمسك بأحكام

(١) الخبال : الفساد .
(٢) ذكره الغزالي في الاحياء ص ٧٧ ج ٧ .
(٣) مر تخريج الحديث .

الاسلام وحدوده وآدابه ، وهي موعظة حقــاً تجل منها القلوب ونصيحة صادقة تذرف عليها العيون ، وتقرب المسلم من ربه لتنال رضاه ، ان انتصح بها ، واستمع اليها ، وجعلها موضع التطبيق والتنفيذ ، وقد تقبلهــا الرشيد بقبول حسن – وشكر الامام مالكاً عليها ، وتلك من صفات الحاكم المسلم ، ونستمع الى نصيحة اخرى اليه ، جاءت من الإمام ابي يوسف القاضي –.

اذا لم يفت هذا القاضي الجليل من تقديم النصيحة للرشيد في مقدمة كتابه الخراج الذي وضعه بناء على طلب الرشيد جاء في مقدمة هذا الكتاب..

يا امير المؤمنين : إن الله وله الحمد ، قد قلدك امراً عظيما ثوابـــه اعظم الثواب وعقابه اشد العقـاب ، قلدك امر هذه الامة ، فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير ، قد استرعاكهم الله ، وائتمنك عليهم ، وابتلاك بهم وولاك امرهم ، وليس يلبث البنيان اذا أسس على غير التقوى ان يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليــه ، فلا تضيعن ما قلدك الله من امر هذه الامة والرعية ، فإن القوة في العمل باذن الله ، لا تؤخر عمل اليوم الى غــد ، فإنك اذا فعلت ذلك أضعت ، ان الأجل دون الأمل فبــادر الأجل بالعمل ..

فإنه لا عمل بعد الاجل ، ان الرعاة مؤدون الى ربهم مــا يؤدي الراعي الى ربــه ، فأتم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهاره ، فإن اسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راعٍ سعدت به رعيته ، ولا تزغ فتزيـغ رعيتك، وإياك والامر بالهوى والأخذ بالغضب ، واذا نظرت الى امرين ، احدهمـــا للآخرة والآخر للدنيا فاختر امر الآخرة على امر الدنيا ، فان الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في امر الله سواء ، القريب والبعيد ، ولا تخف في الله لومة لائم ، واحـذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فانما التقوى بالتوقي ومن يتق الله يتقه ...

اني أوصيك يا امير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك إلا اليه وله،فانك إنلا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى في عينيك وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه ، وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من الفاج لها لا عليها ، فان الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن مواطن الهلكة ، باذن الله ، وأورده اماكن الحياة والنجاة ، فاذا ترك ذلك اضاعه وان تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه اسرع وبه آخر واذا أصلح كان اسعد من هنالك بذلك ووفاه الله اضعاف ما وفى له ، فاحذر ان تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ، ويضيعك بما أضعت اجرك ، وانما يدعم البنيان قبل ان ينهدم.وانما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله امره، فلست تنسى . ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك ، ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الليالي والايام كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلا وتمجيداً والصلاة على رسول الله ﷺ ..

نبي الرحمة وامام الهدى ... (١) هكذا كان علماء السلف الصالح ، يستغلون كل فرصة تمكنهم من ايصال نصائحكم الى الحكام، وهل هناك فرصة اعظم ، من ان يطلب الرشيد وضع كتاب له في الاموال او قل في النظام الاقتصادي ليتبناه ويأمر بتنفيذه ، فينتظره الرشيد بفارغ الصبر وثم تكون مقدمة هذا (النظام) كما ذكرنا منها . حقاً انها لنصيحة لله ولرسوله .. ولأئمة المسلمين .

وهذا الامام جعفر الصادق رضي الله عنه، يقول لأبي جعفر المنصور حين استدعاه في احدى المرآت ، ناصحاً له .... لا تقبل في ذي رحمك وأهل الرعاية من اهل بيتك ، قول من حرم الله عليه الجنة ، وجعل مأواه النار ،

---

(١) مقدمة كتاب الخراج للامام ابي يوسف القاضي .

فان النمام شاهد زور ، وشريك ابليس في الاغراء بين الناس ، فقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ، ونحن لك انصار وأعوان ، للملك دعائم وأركان ، ما أمرت بالمعروف – والاحسان وأمضيت في الرعية أحكام القرآن ، وأرغمت بطاعتك الله انف الشيطان ، وإن كان يجب عليك في سعة وكثرة علمك ومعرفتك بآداب الله ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ، فان المكافي ليس بالواصل وإنما الواصل ، من اذا قطعته رحمة وصلها ، فصل رحمك يزد الله في عمرك ، ويخفف عنك الحساب يوم حشرك (لقد صدق الصادق رحمه الله تعالى فان العلماء مع الحكام ما امر الحكام بالمعروف والاحسان وأمضوا في الرعية أحكام القرآن وأرغموا لطاعتهم لله انف الشيطان ومن هذه المعصية مشاركة العلماء للحكام في تولي المسؤولية).

قال المنصور : قد صفحت عنك لقدرك ، وتجاوزت عنك لصدقك ، فحدثني عن نفسك بحديث اتعظ به ويكون لي زاجر صدق عن الموبقات . قال الصادق : عليك بالحلم ، فانه ركن العلم . واملك نفسك عند اسباب القدرة ، فانك ان تفعل ما تقدر عليه ، كنت كمن شفى غيظاً ، او تداوى حقداً او يحب ان يذكر بالصولة ، واعلم انك ان عاقبت مستحقاً لم تكن غاية ما توصف به الا العدل ، والحال التي توجب الشكر افضل من الحال التي توجب الصبر ، قال المنصور : وعظت فأحسنت وقلت فما وجزت [1] ...

وهذا الامام عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي قال محدثاً عن نفسه ، بعث اليّ ابو جعفر المنصور امير المؤمنين وأنا بالساحل ، فأتيته ، فلما وصلت اليه سلمت عليه بالخلافة ، فرد علي واستجلسني ، ثم قال لي : ما الذي ابطأ بك

---

(١) ص ١٢ بحار الانوار ج ١ في احوال الصادق ص ٢٦٠ او ١٢٧ الامام الصادق لمحمد حسين المظفري .

عنا يا اوزاعي ؟ قلت : وما الذي تريد يا امير المؤمنين ؟ قال اريد الأخـذ عنكم والاقتباس منكم قلت : انظر يا امير المؤمنين انلا تجهل شيئاً مما اقول، قـال وكيف اجهله وأنا اسألك عنه ، وفيـه وجهت اليك ، وأقدمتك له ، قلت أخاف ان تسمعه ثم لا تعمل به.قال الاوزاعي فصاح بي الربيع وأهوى بيده الى السيف فانتهره المنصور ، وقال هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة ، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام ، فقلت: يا امير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله ﷺ : (ايما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فانها نعمة من الله سبقت اليه فان قبلهـا بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد إثماً ويزداد الله بها سخطاً عليه) .

يا امير المؤمنين : من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين ..

إن الذي لين قلوب امتكم لكم حين ولاكم امورهم ، لقرابتكم من رسول الله ﷺ ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً ، مواسياً لهم بنفسه من ذات يده ، محموداً عند الله وعند الناس ، فحقيق بك ان تقوم له بالحق ، وأن تكون بالقسط له فيهم قائمـاً ، ولعوراتهم ساتراً ، لا تغلق عليك دونهم الابواب ، ولا تقيم دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة عندهم وتبتئس بما اصابهم من سوء ..

يا امير المؤمنين : قد كنت من شاغل من خاصة نفسك عن عامـة الناس الذين اصبحت تملكهم ،احمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم . وكل له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك اذا انبعث منهم فئام وراء فئام ، وليس منهم احد إلا وهو يشكو بلية ادخلتها عليه ، او ظلامة سقتها اليه .

يا امير المؤمنين : حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت في يد رسول الله ﷺ جريدة يستاك ويروع بهـا المنافقين فأتاه جبرائيل عليـه السلام فقال له : يا محمد ، مـا هذه الجريدة التي كسرت بهـا قلوب امتك ، وملأت قلوبهم رعباً ، فكيف بمن شقق استارهم وسفك دماءهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه ...

يا أمير المؤمنين : إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل اليك ، وكذا لا يبقى لك كا لم يبق لغيرك ، يا أمير المؤمنين : بلغني ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت ان اسأل عنها ، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ...

يا أمير المؤمنين: قد سأل جدك العباس النبي ﷺ امارة مكة او الطائف او اليمن ، فقال النبي عليه السلام : يا عباس يا عم النبي (نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها) نصيحة منه لعمه وشفقة عليه ، وأخبره انه لا يغني عنه عن الله شيئاً إذ اوحى الله اليك ، (وانذر عشيرتك الاقربين) فقال : (يا عباس ويا صفية عمي النبي ويا فاطمة بنت محمد اني لست اغنى عنكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم) .

وقد قال عمر بن الخطاب ، الامراء اربعة ، فأمير قوي ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله ، يد الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو شفا هلاك إلا ان يرحمه الله . وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله ﷺ (بشر الرعاة الحطمة [1] فهو الهالك وحده) وأمير ارتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً . ثم قال : يا امير المؤمنين: ان اشد الشدة القيام لله بحقه ، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى ، وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله اذله الله ووضعه ، فهذه نصيحتي اليك والسلام عليك ثم نهضت فقال الى اين ؟ فقلت الى الولد والوطن بإذن امير المؤمنين ان شاء الله فقال : اذنت لك وشكرت نصيحتك وقبلتها قال محمد بن مصعب : فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله ، وقال : انا في غنى عنه ، وما

(١) والحطمة اسم من اسماء النار لانها تحطم ما يلقى فيها .

كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا . وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك [1] .

هكذا كان الحكام يستمعون الى نصائح العلماء . معاهدين على تنفيذها والعمل بموجبها ، بل كانوا يسمعونها من اي وعاء خرجت ، لذلك لم نجد غرابة من الحكام الصالحين ، حينما يستمعون الى مثل هذه النصائح وهي تخرج من فم امرأة او صبي لم يبلغ الحلم ولنقرأ نصيحة امرأة لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ثم نصيحة الصبي لسيدنا عمر بن عبد العزيز . خرج رضي الله عنه من المسجد يوماً ، ومعه الجارود العبدي ، فبينا هما خارجان اذ بأمرأة على ظهر الطريق . فسلم عليها عمر فردت عليه التحية ، ثم قالت رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة ، قالت : يا عمر عهدي بك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الفتيان ، فلم تذهب الايام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الايام حتى سميت امير المؤمنين،فاتق الله في الرعية. واعلم انه من خاف الموت خشي الفوت[2] . قال الجارود : هيه قد اجترأت على امير المؤمنين . فقال عمر دعها أما تعرف هذه يا جارود ؟ هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سمائه . فعمر والله أحرى ان يسمع كلامها .

أراد بذلك قوله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله) [3] .. حينما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفدت الوفود من كل بلد ، لبيان حاجتها وللتهنئة فوفد عليه الحجازيون ، فتقدم غلام هاشمي

---

(١) روى هذه النصيحة المحدث ابن ابي الدنيا في مواعظ الخلفاء . وذكرها الامام الغزالي في الاحياء ص ٧٧ جـ ٧ .

(٢) خشي الفوت : لم ينله .

(٣) الاحياء جـ ٧

للكلام وكان حديث السن ، فقال عمر : لينطلق من هو اسن منك ، فقال الغلام . اصلح الله امير المؤمنين . انما المرء باصغريه قلبه ولسانه .

فاذا منح الله عبداً لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه ولو ان الامر يا امير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو احق بمجلسك هذا منك ، فقال عمر : صدقت ، قل ما بدا لك ، فقال الغلام : اصلح الله امير المؤمنين : نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئه . وقد اتيناك لمن الله الذي من علينا بك ، ولم يقدمنا اليك رغبة ولا رهبة ، اما الرغبة فقد اتيناك من بلادنا ، واما الرهبة فقد امنا جورك بعدلك .

فقال عمر : عظني يا غلام : فقال اصلح لله امير المؤمنين ، ان ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول املهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الاقدام فهووا في النار .

فلا يغرنك حلم الله عنك ، وطول املك وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزل قدمك فتلتحق بالقوم ، فلا جعلك الله منهم ، والحقك بصالحي هذه الأمة ، ثم سكت . فقال عمر : كم عمر الغلام ، فقيل هو ابن احدى عشرة سنة ، ثم سأل عنه فاذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فأثنى عليه خيراً ودعا له .

وتمثل قائلا :

تعلم فليس المرء يولد عالماً — وليس اخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لا علم عنده — صغير اذا التفت عليه المحافل

كتب الامام ابو حامد الغزالي رحمه الله تعالى الى مجير الدين الوزير في الدولة السلجوقية والوزراء يومئذ هم مفتاح الدولة وموجهوها والمباشرون للأمور وهم اصحاب الحل والعقد .

(ان اغاثة الخلق واجبة على الجميع ، فقد تجاوز الظلم عن الحدود ولم استطع ان اشاهد هذا الظلم ، فهاجرت من طوس ولي سنة ، حتى لا اشاهد هؤلاء الظلمة الذين لا يحملون رحمة ولا يرعون حرمة وقد ألجأتني بعض الضرورات الى زيارة البلد فوجدت الظلم مستمراً لم ينقطع) [1].

ثم يقول الى فخر الملك بعد ان ذكر المظالم وسوء اوضاع البلاد فحذره قائلا : (وقد نصحت للعميد كثيراً واكنه لم يقبل النصيحة وأصبح عبرة للعالمين ونكالاً للآخرين ، اعلم يا فخر الملك ، ان هذه الكلمات لاذعة مرّة قاسية لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء ، فأقدرها قدرها فانك لا تسمعها من غيري وكل من يقول غير ذلك فاعلم ان طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق) [2].

بمثل هذه النصائح القيمة التي خرجت من قلوب مؤمنة متفقهة ، ونطقتها ألسن عالمة جريئة صريحة ، لم تعرف النفاق والمداراة وسمعتها أذن واعية عاهدت الله تعالى على رعاية الأمة على اساس شرع الله وإقامة حكم القرآن . فكانوا نعم العلماء ونعم الحكام ...

---

(١)، (٢) رسائل الامام الغزالي بالفارسية ذكرها بالعربية ابو الحسن الندوي علامة الهند في كتابه رجال في الفكر والدعوة في الاسلام .

العلماء ومواجهة الحكّام

لعلماء السلف الصالح رحمهم الله تعالى اراء في مواجهة الحكام، واحوال يقررونها في غشيان مجالس الحكام تبعاً لحـال الحكام ، وواقعهم من حيث عدلهم وظلمهم ، او من حيث مدى تعلقهم بالاسلام وتطبيقهم له ، او الاساءة والاعراض عنه .

فبالنسبة للحكام العادلين الحريصين على تطبيق الشريعة ، المنفذين لحـدود الله المقيمين لشعائر الاسلام ، ان هؤلاء لا خلاف بـين العلماء في جواز مواجهتهم وغشيان مجالسهم ، ان لم تكن مندوبة . بل واجبة ، لمـا يترتب على هذه المواجهة من اعانة على اقامة العدل واستمرار وجوده ، وتحقيق الخير وادامته لابناء الامة الاسلامية . وهو داخـل في عموم قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) [1] .

وهل هناك تعاون اسمى من تعاون العلماء مع الحكام ، على رعاية مصالح الأمـة ، على اساس احكام الاسلام ، التي يحملها العلماء وينفذها الحكام ، ولذلك كان العلماء والحكام يسارعون للاجتماع والمواجهة كل بالآخر، لتحقيق هذه الرعاية بأجلى صورها .

أمـا بالنسبة للحكام الآخرين ، الموصوفين بالحكام الظلمة ، وهم الذين اعرضوا عن احكام الاسلام كليـاً او جزئياً في حكمهم ، وهم بنفس الوقت يدعون الايمان بالاسلام ، ويشهدون شهادة الحق ، وربمـا ادوا العبادات مع المسلمين . فهؤلاء يقسم الامام الغزالي رحمـه الله احوال مواجهتهم الى ثلاثة :

---

(١) الآية ٢ المائدة .

الحالة الأولى وهي الدخول عليهم : (فهو مذموم جداً في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات وردت الاخبار والآثار فيها ، ننقلها لتعرف ذم الشرع له ، ثم نتعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم) .

ثم يمضي حجة الاسلام في سرد الاخبار المتعلقة بالحكام الظلمة نذكر منها قوله صلى الله عليه وسلم .

(فمن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم او كاد ان يسلم ، ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم) [١] .

وذلك لأن من اعتزلهم سلم من اثمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم ان نزل بهم ، لتركه المنابذة والمنازعة ، وقوله عليه الصلاة والسلام: (سيكون بعدي امراء يكذبون ويظلمون ، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الحوض) [٢] الخ ...

ثم يقول : الحالة الثانية : ان يدخل عليهم السلطان الظالم زائراً فجواب السلام لا بد منه ، وأما القيام والاكرام له فلا يحرم ، مقابلة له على اكرامه ، فانه باكرام العلم والدين مستحق للاحماد ، كما انه بالظلم مستحق للابعاد ، فالاكرام بالاكرام ، والجواب بالسلام ، ثم يجيب عليه (على العالم) بعد ان وقع اللقاء ان ينصحه ويرشده الى طريق المصلحة ان كان يعرف طريقاً على وفق الشرع . الخ .

ثم يقول : الحالة الثالثة : ان يعتزلهم فلا يراهم ولا يرونه ، وهو الواجب ، اذ لا سلامة الا فيه ، فعليه ان يعتقد بغضهم على ظلمهم ، ولا يحب بقاءهم ، ولا يثني عليهم ولا يستخبر عن احوالهم الخ ...

---

(١) رواه الطبراني .
(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم .

ثم يجيب الغزالي على سؤال متوقع فيقول : فان قلت فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين فأقول : نعم . تعلم الدخول منهم ثم ادخل ، ثم حكى مستشهداً على ذلك :

ان هشام بن عبد الملك . قدم حاجاً الى مكة فلما دخلها ، قال : ائتوني برجل من الصحابة ، فقيل يا امير المؤمنين قد تفانوا ، فقال : من التابعين . فأتي بطاوس اليماني – العالم الجليل رحمه الله – فلما دخل عليه ، خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بأمرة المؤمنين ولكن قال : السلام عليك يا هشام ، ولم يكنه ، وجلس بازائه وقال : كيف انت يا هشام ، فغضب هشام غضباً شديداً ، حتى همّ بقتله ، فقيل له : انت في حرم الله وحرم رسوله ، ولا يمكن ذلك ...

فقال : يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فازداد غضباً وغيظاً . قال هشام : خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبل يدي ، ولم تسلم بأمرة المؤمنين ولم تكنني ، وجلست بإزائي بغير اذني ، وقلت كيف انت يا هشام .

فقال : اما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك ، فاني اخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ، ولا يغضب عليّ ، وأما قولك لم تقبّل يدي . فاني سمعت امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه يقول : لا يحل لرجل ان يقبّل يد احد إلا امرأته من شهوة ، او ولده من رحمة ، وأما قولك لم تسلم بأمرة المؤمنين ، فليس كل الناس راضين بأمرتك فكرهت ان اكذب ، وأما قولك لم تكنني فان الله سمى انبياءه وأولياءه فقال : يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى ، وكنى اعداءه فقال : تبت يدا أبي لهب ، وأما قولك جلست بإزائي ، فاني سمعت امير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقول : اذا اردت ان تنظر الى رجل من اهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام .

فقال هشام : عظني ، قال : سمعت من امير المؤمنين علي رضي الله عنه ، يقول : ان في جهنم حيات كالقلال [1] وعقارب كالبغال تلدغ كل امـير لا يعدل في رعيته . ثم قام وهرب . ثم ان الامام الغزالي يذكر في هذا الفصل من كتابه احياء علوم الدين ، فيقول : (ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذرين ، احدهما ان يكون من جهتهم امر الزام لا امر اكرام ، وعلم انه لو امتنع اوذي ، او فسد عليهم طاعة الرعية ، واضطربت عليهم امر السياسة . فيجب الاجابة ، لا طاعة لهم ، بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية .

الثاني : ان يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواه ، او عن نفسه ، اما بطريق الحسبة او بطريق التظلم وذلك رخصة بشرط ان لا يكذب ولا يثني عليهم ، ولا يدع نصيحة يتوقع قبولها فهذا حكم الدخول [2]) .

فعلماء السلف الصالح كان بعضهم يتحرج من مواجهة هؤلاء الحكام تعففاً وزهداً ، وإبعاداً من الوقوع في الشبهات او لاظهار صلابتهم وقوتهم ومن اولئك الامام سعيد بن المسيب مع عبد الملك بن مروان .

فقد رووا ان عبد الملك بن مروان لما حج وقدم المدينة ، وقف على باب المسجد المبارك ، ثم ارسل الى سعيد بن المسيب رجلاً يدعوه ولا يحركه . فأتاه الرسول وقال : امير المؤمنين واقف بالباب يريد ان يكلمك ، فقال سعيد : ما لأمير المؤمنين اليّ حاجة ، وما لي اليه حاجة ، وان حاجته اليّ لغير مقضية ، فرجع الرسول وأخبر عبد الملك بذلك ، فقال ارجع اليه انما اريد ان أكلمه ولا تحركه ، فرجع اليه ، وأعاد الكلام ، فقال له سعيد ما قال اولاً ، فقال له الرسول ، لولا انه تقدم اليّ فيك ما ذهبت اليه إلا

---

(١) القلال : رؤوس الجبال .

(٢) ملخص من الباب السادس (فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وحكم غشيان مجالسهم) من كتاب احياء علوم الدين جـ ٥ .

برأسك ، يرسل اليك امير المؤمنين يكلمك وتقول مثل هذه المقالة ، فقال سعيد ان كان يريد ان يصنع بي خيراً فهو بك ، وإن كان غير ذلك ، فلا أحل موتي حق يقضي ما هو قاضي ، فرجع الرسول وأخبره بذلك فقال عبد الملك : رحم الله ابا محمد ابى إلا صلابة [١] .

وكان الآخرون من علماء السلف يواجهون هؤلاء الحكام ولكن كانت مواجهتهم يحدث فيها ما يحدث كما هو آت او شبيه به ..

فهذا الامام الغزالي يدخل على السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي ، ليدفع الظلم عن المسلمين في اموالهم وأرواحهم ، ومن قوله له : (.. أسفاً ان رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خليك كادت تنقض بالاطواق الذهبية [٢]) .

وهذا الامام ابن تيمية ، شكا اليه رجل من المسلمين فطلوبك الكبير وظلمه له ، ـ وكان المذكور فيه جبروت ، فدخل شيخ الاسلام وتكلم معه في ذلك ، فقال فطلوبك : انا كنت اريد ان اجيء اليك لأنك عالم زاهد .

قال ذلك مستهزئاً ، فأجابه : لا تعمل عليّ دركوان ، هكذا بخط المصنف ولعلها تعني لا تستهزىء فقد كان موسى خيراً مني وفرعون كان شراً منك ، وكان موسى يجيء الى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الايمان [٣] .

وهذا عمرو بن عبيد العالم المعتزلي ، يدخل على المنصور ، وقال : يا امير المؤمنين ان الله عز وجل يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ،

---

(١) ص ١٢٩ جـ ٥ الاحياء .
(٢) من رسائل للامام بالفارسية ذكرها بالعربية الاستاذ الندوي في كتابه رجال الفكر والدعوة في الاسلام .
(٣) ص ٧٦ و ٧٧ جـ ١ فوات الوفيات.

وان الامة خصماؤك يوم القيامة ، وان الله عز وجل لا يرضى منك الا بما ترضاه لنفسك ، الا وانك لا ترضى نفسك الا بأن يعدل عليك – وان الله عز وجل لا يرضى منه إلا بأن تعدل في رعيتك ، وان وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور .

فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور : يا عمرو قد شققت على امير المؤمنين ، فقال عمرو : يا امير المؤمنين ، من هذا ؟ قال : اخوك سليمان بن مجالد ، قال عمرو : ويلك يا سليمان ، ان امير المؤمنين يموت وان كل ما تراه يفقد ، وانك جيفة غداً بالفناء ، ولا ينفعك إلا عمل صالح قدمته ، ولقرب هذا الجوار انفع لأمير المؤمنين من قربك ، وان كنت تطوي عنه النصيحة ، وتنهى من ينصحه ، يا امير المؤمنين ان هؤلاء اتخذوك سلماً الى شهواتهم ، قال المنصور : فاصنع ماذا ؟ ادع لي اصحابك اوليهم ، قال : ادعهم انت بعمل صالح تحدثه ، ومر بهذا الخناق فليرفع عن اعناق الناس واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب ، او انكرت على رجل عزلته ووليت غيره ، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ، ليتقربن به اليك من لا نية له فيه [1] .

وهذا الليث بن سعد عالم مصر يدخل على الرشيد ، فيسأله الرشيد : ما صلاح بلدكم ؟ فقال : يا امير المؤمنين صلاح بلدنا اجراء النيل ، وصلاح امره ومن رأس العين يأتي الكدر ، فاذا صفا رأس العين صفت العين ، قال : صدقت يا ابا الحارث [2] .

تلك صورة ما يحدث في مواجهة العلماء للحكام ، وفيها العبرة ...

أقول : ان مواجهة الحكام فيها ما فيها ، لأن النية قد تحسن في اول

---

(١) ص ٢٨ ج ٢ المحاسن والمساوىء للبيهقي .
(٢) الرحمة الغيثية .

الدخول عليهم ، ثم تتغير بإكرامهم او بالطمع فيهم ، ولا يتماسك العالم المواجه عن مداهنتهم او السكوت عن الانكار عليهم ، وقد كان الامام سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول : « ما أخاف من إهانتهم لي وانما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي اليهم »[1] .

ولكن اذا كان العالم بصيراً بحاله ، متمكناً من ايمانه ، واثقاً بنفسه ، وقد دعت الحاجة الشرعية لذلك ، فلا أرى مانعاً من هذه المواجهة ، وقد كان علماء سلفنا يدخلون بهذه النية ، فنجد الامام مالك بن انس رحمه الله تعالى يصرح بذلك ويفعله فيقول : حق على كل مسلم او رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه ان يدخل على كل سلطان ويأمره بالخير وينهاه عن الشر ، حتى يتبين دخول العالم من غيره ، فاذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل[2] .

وعلى هذا الاساس ينبغي ان يواجه علماء اليوم الحكام ، وما اشد الحاجة الى ذلك ، لتحقيق هذه المقاصد السامية التي أمر بها الاسلام ، سيما وان حكام المسلمين قد أحيطوا بحاشية اقل ما يقال فيهم ، انهم ليسوا من العلماء ، بل ليسوا من اولئك الذين يدركون واجب المرافقة وحقوق الصحبة ، التي توجب النصح والتذكير الى كل خير وتقوى ، هذا ما نريده من السادة علمائنا ، ولكن يتبادر الى الذهن هذا السؤال : هل يسمح الحكام بهذه المواجهة ؟ وهل الحكام مستعدون لاستقبال العلماء في مجالسهم ؟ والى اي مدى يكون الاستعداد ؟ وهل يمكن للعلماء قول ما يريدون ؟؟

(١) ص ١٢٢ تلبيس ابليس .
(٢) ص ٣٥٤ المدارك ذكرها صاحب من اخلاق العلماء ص ٩٥ .

العلماء ومنح الحكام

اخلف العلماء في قبول منح الحكام او أعطياتهم ، تبعاً لاختلاف آرائهم في ذلك لذلك كانوا أقساماً .

القسم الأول : كان يرفض أخذ المال من الحاكم ، ويبتعد عنه ، ومن هؤلاء ابو حنيفة وسفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، وأحمد بن حنبل ، وعمرو بن عبيد والطبري وابن المسيب واضرابهم لأن أعطيات الحكام ومنحهم ، كانت يومئذ بمثابة امتحان يجربه بعض الحكام للعلماء ، لمعرفة مقدار الولاء لهم .

لذلك كان الامام ابو حنيفة رضي الله عنه يرفض كل منحة وعطاء ، وهو يعلم ان رفضه هذا يعرضه للأذى والمضايقة . فقد روى ابو طالب المكي في مناقبه (انــه ارسل اليه ابو جعفر المنصور بجائزة عشرة آلاف درهم وجارية ، — كانت الأعطيات والمنح تسمى جوائز — وكان عبد الملك بن حميد وزير ابي جعفر فيه كرم وجودة في الرأي ، فقال لأبي حنيفة عندما رفضها : أنشدك الله ، ان امير المؤمنين يطلب عليك علة ، فإن لم تقبل صدق على نفسك ما ظن بك ، فأبى عليه ، فقال — الوزير — اما المال فقد أثبته في الجوائز وأما الجارية فاقبلها أنت مني ، او قل عذرك ، حتى اعذرك عند امير المؤمنين فقال ابو حنيفة : اني ضعفت عن النساء وكبرت ، فــلا استحل ان اقبل جارية لا أصل اليها ولا أجرؤ ان ابيع جارية خرجت من ملك امير المؤمنين) .

وفي الوقت الذي كان رحمه الله تعالى يرد جوائزهم ومنحهم برفق كان يرد هداياهم كذلك . (لقد وقع بين المنصور وزوجه الحرة شقاق بسبب ميله عنها ، وطلبت العدل منه ، فقال لها بمن ترضين في الحكومة — التحكيم —

بيني وبينك ، قالت : بأبي حنيفة ، فرضي هو ايضاً ، فأحضره وقال له : يا أبا حنيفة ، الحرة تخاصمني فانصفني منها ، قال : ليتكلم امير المؤمنين ، قال : يا أبا حنيفة ، كم يحل للرجل ان يتزوج من النساء فيجمع بينهن ؟ فقال : اربع ، قال : وكم يحل له من الإماء ؟ فقال : ما شاء ليس لهن عدد ، قال : أيجوز لأحد ان يقول خلاف ذلك ؟ فقال لا . قال المنصور قد سمعت ، فقال ابو حنيفة : انما أحل الله هذا لأهل العدل ، فمن لم يعدل او خاف ألا يعدل فينبغي ان لا يجاوز الواحدة ، قال الله تعالى (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فينبغي ان نتأدب بأدب الله ، ونتعظ بمواعظه ، فسكت ابو جعفر وطال سكوته ، فقام ابو حنيفة وخرج ، فلما بلغ منزله أرسلت اليه زوج المنصور الحرة – خادماً ومعه مال وثياب وجارية وحمار مصري ، فردها وقال للخادم: اقرئها السلام وقل لها : انما ناضلت عن ديني وقمت بذلك المقام لله ، لم أرد بتلك تقرباً الى احد ولا التمست به دنيا (١)

أما سفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، فقد وضح موقفهما هـذا برفض العطـاء ، حين سقنا حادثة جوابهما على سؤال هارون الرشيد في فصل الحكام يسألون العلماء .

أما عمرو بن عبيد ، فقد دخل على ابي جعفر المنصور يوماً فلما نصحه ووعظه وأراد الخروج قال المنصور: قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم ، قال لا حاجة لي فيها ، قال المنصور : والله تأخذها ، قال عمرو والله لا آخذها ، وكان المهدي ولد المنصور حاضراً ، فقال : يحلف امير المؤمنين وتحلف انت ؟ فالتفت عمرو الى المنصور وقال : من هذا الفتى ؟ قال هو ولي العهد ابني المهدي ، فقال : أما والله لقد ألبسته لباساً ماهراً من لباس الأبرار ، وسميته باسم ما استحقه ، ومهدت له امراً : أمتع ما يكون به ، أشغل ما يكون

---

(١) ص ٣٧ ابو حنيفة للاستاذ ابي زهرة .

عنه ثم التفت عمرو الى المهدي فقال : نعم يا ابن اخي اذا حلف ابوك حنثه عمك لأن ابا أباك اقوى على الكفارات من عمك . فقال له المنصور : هل من حاجة ؟ قال لا تبعث اليّ حتى آتيك . قال اذن لا تلقاني ، فقال هي حاجتي ، ومضى فاتبعه المنصور طرفه وقال :

كلكم يمشي رويداً ، كلكم يطلب صيداً ، غير عمرو بن عبيد [1] . اما احمد بن حنبل رضي الله عنه ، فقــد كان نافراً من اعطيات الحكام ومنحهم اشد النفور ، زاهداً فيها حتى انه كان يرفضها ولو جاءت عن طريق تولية عمل من اعمال الدولة .

عندما جاء الامام الشافعي الى بغداد للمرة الثانية التي اقام فيها لنشر مذهبه وكان الامام احمد يلتزم مجالس الشافعي . وما كان يفارقــه إلا لسفر من اجل طلب حديث نبوي ، ولقد لاحظ الشافعي ان احمد ينوي السفر الى اليمن لأخذ الحديث من عبد الرزاق بن همام . ومشقة السفر هذه بعيدة وانها تحتاج الى انفاق مال وأحمد لا يجد ذلك ، وكان الأمين قد كلف الشافعي ان يختار قاضياً الى اليمن فوجد الشافعي ان من تسهيل مهمة احمد ان يكون قاضياً فيها ، فيجتمع الى عبد الرزاق بن همام ، ويأخذ ما يريد من غير مشقة مضنية ، ولكن الامام احمد رفض طلب الشافعي هذا وقال له وهو شيخه الذي يكن له كل الاحترام والتقدير ، يا ابا عبدالله ان سمعت منك هذا ثانية لم ترني ثانية عندك [2] .

ويروى كذلك ، ان المأمون دفع الى شيخ من شيوخ الحديث في عصره مالاً ليقسمه على رجال الحديث والمشتغلين فيه ، لأنه علم ان فيهم من يحتــاج الى النفقة فأراد ان يعينهم على ما خصصوا انفسهم له ، وأخذ هؤلاء المال ،

---

(١) ص ١٩١ من اخلاق العلماء .

(٢) ص ٢٧١ المناقب لابن الجوزي .

اما احمد بن حنبل فقد رفض العطاء ، وقد عرف انه المعوزين [١] .

ولكن الامام احمد اضطر مرة لأخذ هذه الاعطيات ولكن انظروا هل لمستها يده ؟ وماذا فعل بها ، فقد روي ان وزير المتوكل كتب له : ان امير المؤمنين قد وجه اليك جائزة ويأمرك بالخروج اليه ، فالله ان تستغني ، وترد المال فيتسع القول لمن يغضبك [٢] . فأحمد يبـــدد ظلمات السعاية الى القبول ولكنه لا يمسه . ويأمر ولده صالحاً بأخذه ثم يوزعه في اليوم الثاني على ابناء المهاجرين والانصار وغيرهم من اهل التجمل والحاجـة وكأنه يرى انهم اولى بمال المسلمين منه وحرموا عطاءهم [٣] . وهذا الامام الطبري . عرضت عليـه الجوائز فرفض وعرضت عليـــه ولاية المظالم والقضاء فرفض . وأشار عليه صحبه قائلين في هذا الثواب وتحيي سنة قد درست . فهزمهم قائلاً : أظن اني لو رغبت في ذلك نهيتموني عنه [٤] . وهذا سعيد بن مسيب . قد كان له في بيت المال بضعة وثلاثون ألفــاً عطاءه ، فكان يدعى اليهـا فأبى ويقول لا حاجة لي فيها حتى يحكم الله بيني وبين بني مروان [٥] .

القسم الثاني : كان يأخذ اعطيات الحكام ، بقصد انفـاقه وتوزيعه على طلبة العلم وعلى اخوانه من العلمـاء ، الذين اصيبوا بالفاقـة والعوز ليعيش هؤلاء في حياة كريمة تليق بمكانة العلم ومنزلة العلماء . والجدير بالذكر ان هذا القسم في الوقت الذي يقبل اخذ الاعطيات من الحكام . كان هذا الاخذ لا يثنيهم عن محاسبتهم والانكار عليهم وإبداء النصح الكريم لهم . ومن هؤلاء الحسن البصري والامام مالك بن انس رضي الله عنهما . فمالك كان

---

(١) ص١٨١ جـ٩ حلية الاولياء .
(٢) ص ٣ المناقير لابي الجوزي .
(٣) ص ٧٧ احمد بن حنبل للاستاذ ابي زهرة .
(٤) ص ١٨٨ ابو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام .
(٥) ص ١٢٩ جـ ٥ طبقات ابن سعد الكبرى .

لا يتحوب (لا يتأثم) من الاخذ من الخلفاء لأنه مال المسلمين ، ومن احق بــــه من اهل العلم الذين وقفوا انفسهم على تعليم الناس امور دينهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وهم بذلك كالجند وقفوا انفسهم لحماية الثغور من الاعداء لكيلا يثلموا فيها ثلمة ينفذون منها الى الأمة ، فانه اذا كان الجند كذلك . فالعلماء لمنع الضلال ولئلا يثلم الدين الثلم الذي يصل الى قلوب الامة فتزل القدم بعد ثبوتها وتذرق السوء [1] ...

القسم الثالث : كان يأخذ الحظ المقسوم له من الحكام ، وفي نفس الوقت يقوم بواجب الشرع نحوهم من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن هؤلاء بعض أئمة اهل البيت الكريم كالامام جعفر الصادق ، فقــــد كانوا يأخذون من الحكام حظ بني هاشم من الأموال ، وكذلك الامام الشافعي كان يأخذ حظه من سهم بني المُطلب من الغنيمة ، وكان هؤلاء رحمهم الله تعالى ينفقون هذا المال على العلماء وطلبة العلم .

تلك أقسام العلمـــاء في موقفهم من أعطيات الحكام ومنحهم ، في ذلك الزمان الذي كانت اموال اكثر الحكام من الحلال الطيب .

أما اذا تغيرت مصادر اموال الحكام وتبدلت ، فما موقف السادة العلماء منها . فالإمام الغزالي يقول فيها حكماً : ولنسمعه (.. إن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو اكثرها : وكيف لا ، والحلال هي الصدقات والفيء والغنيمة : ولا وجود لها ، وليس يدخل منهـا في يد السلطان ولم يبق إلا الجزية ، وإنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به ، فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفـاء له بالشرط . ثم اذا نسب ذلك الى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين ، ومن الصادرات

---

(١) ص ٧٦ ابن حنبل لابي زهرة .

والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيرة [1]) .

ثم يرد الامام الغزالي على بعض علماء عصره ، من الذين يقبلون منح الحكام وأعطياتهم . وقد استدلوا في ذلك ، بأن علماء السلف كانوا يقبلونها ولا يرون بأساً في ذلك . مبيناً الفرق بين الاوضاع الاولى ، وأوضاع عصره فيقول :

(ان الظلمة في العصر الاول - لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين - كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوقين الى استمالة قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم . وكانوا يبعثون اليهم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ، ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ، ولا يكثرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم ، بل يدعون عليهم ، ويطلقون الألسنة وينكرون المنكر عليهم ، فما كان يحذر ان يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم . ولم يكن بأخذهم بأس .

أما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم ، والتكثر بهم والاستعانة بهم في اغراضهم ، والتجمل بغشيان مجالسهم ، وتكفيهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم ، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال اولاً ، وبالتردد في الخدمة ثانياً ، وبالثناء والدعاء ثالثاً ، وبالمساعدة له على اغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وباظهار الحب والولاء والمناصرة له على اعدائه سادساً ، وبالتستر على ظلمه ومقابحه ومساوىء اعماله سابعاً ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ، ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً ، فاذاً لا يجوز ان يؤخذ منهم هذا الزمان . ما يعلم انه حلال لافضائه الى هذه المعاني ، فكيف

---

(١) ص ١١٢ جـ ٢ الاحياء .

يعلم انه حرام ، او لا نشك فيه . فمن استجرأ على اموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين) [١] .

وواقع حالنا اليوم في جميع البلاد الاسلامية ، كحال اولئك الحكام الذين حكم الغزالي بحرمة منحهم واعطياتهم . ان لم نقل اشد سوءاً وأعظم اثماً .

أما ما يأخذه العلماء اليوم من أموال . مقابل قيامهم بالوظائف المعروفة من امامة وخطبة وتدريس ووعظ وافتاء .. فهو لتفرغهم عن العمل الذي يكسبون به . لذا كان أخذهم لهذا المال جائزاً . حتى لو كان من غير الاوقاف التي اوقفها اصحابها من المسلمين لصرفها بهذا الشأن .

إلا ان الذي يريده الاسلام هو ان هذه الاجمال والمرتبات التي يأخذها العلماء اليوم ، مقابل وظائفهم المعروفة . لا يجوز بأي حال من الاحوال ان تكون اداة للسكوت عن منكر الحكام ، والتقاعس عن بيان ما يرونه خطأً وضلالاً حتى لو اغضب الحكام ، لأن هؤلاء الحكام ان تجرأوا او زادوا اثما على اثامهم ، فمنعوا العلماء عن اداء حقهم في المـــال فان الرزق بيد الله وحده . والعلماء اعلم الناس في ذلك .

ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينقص وزناً كما نطق به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ..

والله وحده هو الذي يتولى الصالحين .

---

(١) ١٢٢ — ١٢٣ جـ ٢ الاحياء .

العلماء ومحن الحكام

لقـد جرت سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه ان يفتنهم ويختبرهم ، ليميز الخبيث من الطيب .

(ألم . أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) [1] .

ولقد اعتاد الظالمون من الحكام، ان يضطهدوا الذين يخالفونهم في سلوكهم المنحرف ، ويناهضونهم في افكارهم الباطـلة ، ولم يسايروهم في اهوائهم ، وينزلوا بهم ، انواع المحن ، بعد ان اعرضوا عن اشكال المنح التي قدمها الحكام اليهم ، في ذلة وصغار ، ولكن انىّ للنفوس الكريمة ، ذات المعدن الطيب ان تغرى بمال ، او يسيل لعابها على فتات الدنيا ، او تستمال بعرض زائل من الحياة .

اما المحن فقد استعدوا لهـا . وتحملوا نارها بصبر وجلد ، وصابروا شدة بأسها بعزم واحتساب لأنهم فقهوا قول الله تعالى : (قل نار جهنم اشد حراً لو كانوا يفقهون) وآمنوا بقول الخالق العظيم :

(ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد)[2]. وكان ائمـة المسلمين من السادة العلماء الذين اشرأبت الاعناق اليهم اجلالاً وتقديراً وولاءً ، في مقدمة الذين اصابتهم المحن ونزلت بهم الشدائد الصعاب فخرجوا منها ظافرين ظاهرين ، مصداقاً لقول النبي الكريم ﷺ .

---

(١) الآية ٢ العنكبوت .

(٢) ٢٠٧ من سورة البقرة .

(لا تزال طائفة من امتي على امر الله لا يضرها من خالفها) [1] .

وقوله (لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) [2] ثم انتصروا بعد ما ظلموا . وظفروا من بعد محنهم وظهر الحق الذي آمنوا بــه . ولو استشهد بعضهم في سبيل ذلــك ، لأن النصر الحقيقي هو ، نصر العقيدة او ظهور الحق جلياً للعيان، الذي كان سبباً في تلك المحن ولأن البقاء في الدنيا هو للعقيدة والحق امــا الممتحنون فلهم بقاء الذكر الجميل لهم على مر الدهور . وهــذا كائن ولو لم يخطر ببالهم لأنهم اخلصوا العمل والتضحية لله وحده ، بــل البقاء الاكبر الذي يرجونه هو بقاء السعادة واستمرار النعيم في دار الخلد والتفيؤ بظلال الجنة ونوال رضوان الله في الآخرة وهـــذا هو البقاء الحق وللنصر المبين والظفر المنشود .

ولقـــد صدق الامام ابن القيم في نونيته حيث يقول : الحق منصور وممتحن فلا تعجب فهـــذه سنة الرحمن وبذاك يظهر حزبه من حربه لا شك ذاك ، الناس طائفتان .

ان المراد بهذا الفصل — العلماء ومحن الحكام — هو بيان المحن التي انزلهــا الحكام بالعلماء ظلماً وعدواناً ، امــا بتحرش منهم ، لأن الحكام يزعجهم وتكرب نفوسهم ان يكون بين ظهرانيهم علماء لهم من الاحساس المرهف ، والتفكير المستنير ما يجعلهم واقفين بالمرصاد لكل من تصرفاتهم ، قادرين على كشف تلك التصرفات للامـــة لتعرفها ، فتحدد موقفها من ذلك ، فينزل الحكام بهم المحن ، للقضاء على جانب المعارضة والانكار . وامــا ان يُسمع العلماء ، مقالة الاسلام بكل جراءة وشجاعة ، فتضيق بذلـــك صدورهم ، ويبطشون بهم . واما الحكام يحملون العلماء على شيء ، فيأبى ايمانهم ذلك ،

---

(١) رواه ابن ماجة .
(٢) رواه الحاكم بسند صحيح .

فيكون العقاب ويقـــع الأذى . واما العلماء يعلنون مخالفتهم لنهج معين من سلوك الحكام ، فيغضب الحكام وتثور ثائرتهم ، وتنتهي هذه الثورة بالحبس او الضرب المبرح . وامـــا العلماء يرفضون منحة حاكم ، او قربا دعوا اليه فيحصل التعذيب لأن طلب الحكام لا يرد مهما كان ، ذلك هو فهمهم السقيم.

ومحن الحكام لعلمائنا الابرار التي سنذكرها هي من هذه الانواع ، وهي التي يحتاجها اليوم الصنفان من الناس العلماء والحكام ، لأخـذ العبرة . وهل هناك عبرة اعظم من ان نذكر علمـاءنا الابرار الذين ضحوا بأنفسهم وتحملوا العنت والسوء ، فنترحم عليهم ونذكرهم بخير كلما مرت اسماؤهم، اما اولئك الحكام الذين ساموا علمـــاءنا سوء العذاب ، فلهم الخزي وعليهم الاثم .. « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » . انـ العلماء الذين امتحنوا في دينهم ومن اجل إسلامهم كثيرون ، فذكر بعضهم يغني ، وان كانت النفس والفكر تتوقان الى تعدي البعض والمزيد فيه ...

لذا فقد اخترت – اولاً – ذكر المحن التي أصابت الائمـــة الكرام الذين اجمعت الامة الاسلامية على اتباع نهجهم في فهمهم الاسلام ، وهم الامام جعفر الصـادق ، الامام ابو حنيفة النعمان ، الامام مالك بن انس ، الامام محمـــد ابن ادريس ، الشافعي ، الامام احمد بن حنبل ، الامام البخـاري ، الامام احمـــد بن تيمية ، ليرى المعتقدون بصحة نهجهم ، والسالكون طريقهم في الفهم ، ما كان عليه أئمتهم الكرام رضوان الله عليهم، ليكون الايمان بنهجهم كله ، وبجميع جوانبه ، وذلك هو الاقتداء الحق ، والاتباع الصحيح .

ثم اني – ثنيت – بذكر محنة امامين من الذين سبقوهم بالايمان وهما سعيد ابن مسيب وسعيد بن جبير ومثلهما من الذين اتبعوهم بإحسان العز بن عبدالسلام واحمـد السرهندي لتكمل العبرة ، وتحسن الذكرى ، وان كانت المحن بقيت قائمة يصبها الظالمون من الحكام على علمائنا (الرجال) اذ لم يخل منها عصر ممـا فات ، ولعلها لن تنقطع حتى قيام الساعة والخروج من هذه الدنيـــا ،

ما دام في الحياة علماء ابرار يقولون الحق ولا يخافون في الله لومة لائم ، وما دام الحكام ظالمون ، يعملون لإضلال الامة ويفسدون في الارض .

وأرى من الامانة العلمية للتاريخ الاسلامي ان أؤكد المعنى الذي أشرت اليه ، واني على ذكر حوادث مهمة من التاريخ الاسلامي ، اذ انها تتعلق برؤساء الدولة الاسلامية وعلمائها الابرار ، في فترات من عصورها الزاهرة ، هي ان الحكام الذين انزلوا المحن الشديدة بالسادة العلماء ، ما كانوا بالحقيقة وواقع الأمر ، يكرهون الاسلام ، ولا يأبون السير وفق هداه ، إذ انهم لم يطبقوا غيره وان أساء بعضهم فيه، ولكن قد اصابتهم فتنة الحكم والسلطان وما اعظمها وما اكثرها ..

وان الانسان سوى الانبياء غير معصوم من الوقوع في الخطأ ، وارتكاب الاثم، لذلك فقد تعثر هؤلاء في سيرهم وأصابهم بعض التنكب في سلوك النهج الصحيح ، والعلماء تجاه هذا انكروا عليهم تعثرهم ، وعارضوا تنكبهم إذ قاسوهم بالخلفاء الراشدين ، الذين هم المثل الاعلى للحكام المسلمين بعد الرسول الاعظم ﷺ ، فظهر البون بينهما ، فكان الصراع بين الحكام والعلماء وكانت المحن ...

فعلى كل فهم حكام مسلمون، ودولتهم التي كانوا عليها دولة اسلامية ، ولم تشقى الامة الاسلامية ، ولم يتمكن اعداء الاسلام من النيل منه إلا حين ذهبت دولة الاسلام ، وانطمست معالمها من الوجود .

والعلماء مأجورون على مواقفهم الصلبة تجاه الاسلام ، ومشكورون على تضحيتهم في سبيل اعزاز الدين ورفع لوائه خفاقاً بالنصر المبين .

والحكام الذين اساءوا اليهم وظلموهم نكل امرهم الى الله تعالى مرددين قوله الكريم: « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » [1] .

---

(١) آية ١٤١ سورة البقرة .

— محنة سعيد بن المسيب —

لا تملأوا اعينكم من اعوان الظلمة الا
بانكار من قلوبكم لكي لا تحبط اعمالكم .
— ابن المسيب —

.. عجز عبد الملك بن مروان بما اوتي من دهاء ، ان يجر الى صفوفه سيد التابعين ، من جمع بين العلم والعبادة ، والتقوى والورع ، سعيد بن المسيب رضي الله عنه .

قال سعيد : (حججت اربعين حجة .. وما فاتتني التكبيرة الاولى منذ خمسين سنة وما نظرت الى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة) ..

وهو القائل : (ما اعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله . ولا اهانت نفسها بمثل معصية الله) ..

ان دهاء عبد الملك وشراكه لم توقع سعيداً فيها . وإن وده .. وتذلله لم تنطل على سعيد لينال رضاه ، وكلما التمس عبد الملك قرباً او كسب وداً من سعيد كان الاعراض نصيبه ، والانكار على افعاله حليفه .

(دعي الى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال : لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان حتى القى الله فيحكم بيني وبينهم) .

مرت الايام .. فتقدم عبد الملك اليه يرجو منه ان يزوج ابنته لابنه الوليد حين استخلفه ، ولكن سعيد يرفض ، ويأبى هذا القرب ! وينفر من هذه المصاهرة بإباء وشمم ، اباء العلماء وشمم الأتقياء.. غير مبال بما يجلب عليه هذا الرفض من بأس وأذى . لأنه قرب ومصاهرة لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة ، وعصمة النفس من الشهوات الفاسقة .

وأمام هذا الرفض لابن امير المؤمنين ، فانه يزوج بنفسه طالب العلم في حلقته بمسجد الرسول الكريم ﷺ أبا وداعة من ابنتــه الفقيهة العــابدة .. وإليكم الحادثة كما جاءت عن الزوج الكريم ..

(قال ابو وداعة كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً ، فلما جئته قال : اين كنت ؟ قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنــا فشهدناها ، ولما اردت ان اقوم قال: هلا حدثت امرأة غيرها. فقلت: يرحمك الله ، ومن يزوجني وما املك إلا درهمين او ثلاثة؟ قال : ان انا فعلت تفعل؟ قال نعم. ثم حمد الله وصلى على نبيه ﷺ وزوجني (ابنته) على درهمين ... وفي مساء ذلك اليوم وإذا بالباب يقرع فقلت : من هذا ؟ قــال : سعيد . ففكرت في كل انسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ، فانــه لم ير منـــذ اربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد،فقمت وفتحت. وإذا بسعيد بن المسيب، فظننت انه بدا له - أي ظهر له رأي غير الذي رآه فجاء يعتذر - فقلت فما تأمرني ؟ قال : رأيتك رجلا عزباً قــد تزوجت فكرهت ان تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، فاذا هي قائمة خلفه في طوله ثم دفعها في البــاب ورد الباب) ...

هذا فعل سعيد مع احد افراد المسلمين ، مع طالب علم ، وذلك فعله مع حاكم المسلمين بسطوته وسلطانه ، فتأمل يا اخي .

وحين ذاك عجز عبد الملك وأسقط في يده ، فلم ينفعه دهــاؤه ، بل لم ينفعه اصطناع تقربه او تزلفه .

ولكن ماذا فعل عبد الملك مع سعيد بعدئذ . هنا جاءت المحنة وحلت النكبة بسعيد ولكنه صبر عليها واحتسب ذلك عند الحي القيوم .

(.. قال يحيى بن سعيد ، كتب هشام بن اسماعيل والي المدينة الى عبد الملك بن مروان ان اهل المدينة قد اطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب .

فكتب : ان عرضه على السيف فان مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به في اسواق المدينة — فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار وعروة ابن الزبير وسالم بن عبدالله ، على سعيد بن المسيب، وقالوا : جئناك في أمر، قد قدم كتاب عبد الملك ان لم تبايع ضربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً ، فاعطنا احداهن . فان الوالي قد قبل منك ان يقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا ولا نعم ، قال : يقول الناس بايع سعيد بن المسيب ، ما أنا بفاعل ، وكان اذا قال لا لم يستطيعوا ان يقولوا نعم ، قالوا : تجلس في بيتك ولا تخرج الى الصلاة أياماً ، فانه يقبل منك اذا طلبك من مجلسك فلم يجدك ؟ قال: فأنا اسمع الآذان فوق اذني حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة. ما انا بفاعل ، قالوا : فانتقل من مجلسك الى غيره فانه يرسل الى مجلسك فان لم يجدك امسك عنك ، قال : أفرقاً من مخلوق — أخوفاً من مخلوق الله — ما أنا متقدم شبراً ولا متأخر ، فخرجوا وخرج الى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان فيه ، فلما صلى الوالي بعث اليه ، فأتى به فقال : ان امير المؤمنين كتب يأمرنا ان لم تبايع ضربنا عنقك ، قال نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين — بيعة للوليد ومثلها لسليمان في وقت واحد — فلما رآه لم يجب اخرج الى السدة فمدت عنقه وسلت السيوف . فلما رآه قد مضى امر به مجرداً فاذا عليه ثياب من شعر .

فقال لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن . فضربه خمسين سوطاً ثم طاف به أسواق المدينة فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال : ان هذه الوجوه ما نظرت اليها منذ اربعين سنة [١] .. ومنعوا الناس أن يجالسوه . فكان من ورعه اذا جاء اليه احد يقول له قم من عندي ، كراهية ان يضرب بسببه [٢]) ..

---

(١) لانه كما مر كان لا ينظر الى قفا رجل في الصلاة . اذ كان يصلي في الصف الاول ولم تفته تكبيرة الاحرام رضي الله عنه .

(٢) ص ١١٧ جـ ٢ وفيات الاعيان .

(.. عندما ضرب هشام بن اسماعيل والي المدينة لعبد الملك بن مروان الامام سعيد بن المسيب لامتناعه عن اعطاء البيعة لوليّ عهده (الوليد وسليمان) ضرباً مبرحاً خمسين سوطاً وطاف به تبان من شعر حتى بلغ رأسه الثنية . فلما كروا به قال أين تكرون بي ؟ قالوا الى السجن قال : والله لولا اني ظننت انه الصلب ما لبست هذا التبان أبداً) ..

وفي رواية (أما والله لو علمت انهم لا يزيدونني على الضرب ما لبست لهم التبان ، انما تخوفت أن يقتلوني فقلت تبان أستر من غيره . وفي رواية دخل ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث فجعل يكلم سعيداً ويقول انك خرقت به فقال : يا أبا بكر اتق الله وآثره على من سواه ، قال : فجعل ابو بكر يردد عليه انك خرقت به ولم ترفق ، فجعل سعيد يقول : انك والله أعمى البصر أعمى القلب ، قال : فخرج ابو بكر من عنده ، وأرسل اليه هشام بن اسماعيل فقال : هل لان سعيد بن المسيب منذ ضربناه ؟ فقال ابو بكر .. ما كان أشد لساناً منه منذ فعلت به ما فعلت فاكفف عن الرجل .. ثم أخلى سبيله .. وفي السجن ايضاً يقول عبد الله بن يزيد الهذلي (دخلت على سعيد بن المسيب السجن فإذا هو قد ذبحت له شاة فجعل الاهاب على ظهره ، وجعلوا له بعد ذلك قضيباً رطباً وكان كلما نظر الى عضديه قال اللهم انصرني من هشام[1]) ..

تلك من إساءات الحكام في تطبيق الاسلام ، إن البيعة لا تؤخذ من الأمة بالقوة او الاكراه ، ولا بضرب السياط على الظهور ، ولا باعتقال وحبس المعرضين عنها ، وإنما تؤخذ عن رضا الأمة وموافقتها ، لأن البيعة هي الطريقة الشرعية في نصب الحاكم وهي طريقة التعبير عن رضا الامة عن الحاكم المنتخب فاذا قرر هذا شرعاً ومثله قد قرر ان الحاكم هو نائب عن

---

(١) ص ١٢٧ جـ ٥ الطبقات الكبرى لابي سعيد .

الامة في تنفيذ الاسلام ووكيل عنها في الحكم ، فكيف يباح استعمال القوة بأشكالها وألوانها في سبيل إقرار هذه البيعة لتحقيق شرعية النيابة والوكالة .

(اللهم انصرني من هشام) تلك دعوة مظلوم على ظالم . ودعوة المظلوم ليس بينهـا وبين الله حجاب . فاستجاب الله تعالى هذه الدعوة ، وأزال سلطان هشام ومن ولاه . فليحذر الظالمون من دعوة المظلومين ، بذلك نطق الصادق الصدوق ﷺ .

ولكن هل انتهت محنة الامام الورع ؟ لا لا . فقد جاءته محنة اخرى ، فصبر عليها كما صبر على اختها من قبل ..

(.. استعمل عبد الله بن الزبير جابر الأسود الزهري على المدينة المنورة فدعا الناس الى البيعة لابن الزبير فقال سعيد بن المسيب لا حتى يجتمع الناس فضرب ستين سوطاً فبلغ بذلك ابن الزبير فكتب الى جابر يلومه ويقول ما لنا ولسعيد دعه [1]) ..

... (وكان جابر هذا قد تزوج الخامسة قبل ان تنقضي عدة الرابعة ، فلما ضرب سعيد بن المسيب صاح به سعيد والسياط تأخذه: (والله ما ربعت على كتاب الله ، يقول الله « وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » وانك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ، وما هي إلا ليال فاصنع ما بدا لك فسوف يأتيك ما تكره) .

وقد صدق سعيد ، فما مكث جابر إلا يسيراً حتى قتل ابن الزبير ، وكانت نهاية جابر السوداء المظلمة ، وتلك عاقبة الظالمين .

وهكذا عاش سعيد ممتحناً في دينه وهكذا شأن المتقين الابرار، رحم الله سعيداً فقد جاد بنفسه في سبيل الحق وإقامة العدل فلم تزعزع ايمانه المحن بل

---

(١) ص ١٢٢ ج ٥ الطبقات الكبرى .

زادته ايماناً ويقيناً بأن للدين صولة وللاسلام قوة ولا غرو في ذلك لأنـه من العلماء الرجال ...

أعلمت اخي القـارىء ان كل (جرم) سيد التابعين ابن المسيب في نظر عبد الملك بن مروان انه لم يبايع ولي عهده ، ولأنه امتنع عنها لوجود نص شرعي يحفظه ، فهو حجة عليه يوم القيامة .

وتلك اساءة عبد الملك ومظلمة سجلها عليه التاريخ وأنكرتها عليه الامة وغضب عليه رب العالمين ، ومن ينجو من عقاب هذه المظالم ، وسيقال له يوم القيامة : « وَقِفوهم انهم مسؤولون » نعم سيسأل كل حاكم عما اجترحه من سيئات ومظالم في حق امته ، ولو كان (عموماً) مطبقاً للاسلام منفذاً لأحكام القرآن حامياً للثغور مدافعاً عن بيضة المسلمين كعبد الملك .

وكيف تكون المسؤولية والمحاسبة حين لا يكون الحكام كذلك؟ لا شك ان المسؤولية اليوم اعظم والمحاسبة يجب ان تكون اشد ، إذ حكام الامس الذين ذكرتهم في هذا الكتاب كالملائكة بالنسبة لحكام اليوم !!

(مات سعيد سنة احدى وتسعين هـ وله من العمر ٧٤ عاماً) .

ــ محنة سعيد بن جبير ــ

وشى بي واشٍ في بـلد الله الحرام
أكله الى الله تعالى .

ــ ابن جبير ــ

قال خصيف يوماً : كان اعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب ، وبالحج عطاء ، وبالحلال والحرام طاوس ، وبالتفسير ابو الحجاج مجاهد بن جبير ، واجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير) .

تلك شهادة عالم حصيف هو الشيخ خصيف ... في امامنا الممتحن .

كان ابي جبير من الذين يناوئون حكم عبد الملك بن مروان،لاساءة الاخير في حكم الرعية المسلمة، ولوقوع مظالم في عهده .

وكان الحجاج بن يوسف ، فاسق بني ثقيف ، والياً لعبد الملك ، يأخذ بالشبهات ، ويتحرى المناوئين في جميع البلاد الاسلامية ، لحكم اميره وسيده .. فيصب المحن عليهم ، دون هوادة ، ولا خوف من الله ، المقتدر الجبار ، وكان خالد بن عبد الله القسري والياً على مكة المكرمة - زادها الله مثابة وأمنا - وقد علم بوجود ابن جبير في ولايته ، فالقى القبض عليه، واعتقله ، ثم اراد ان يتخلص منه ، لمعرفته بان سعيداً ، قد اوتي لساناً ناطقاً ، وقلباً حافظاً ، وسرعة بديهة بالقاء الحجة القوية لاسكات خصمه. اذ هو ليس من اولئك الذين يخشون رهبة حاكم ، ولا بطش سلطان في سبيل معتقده غير مبال بالنتائج مهما كانت. ودفعاً للوقوع في لجة المخاصمة وخضم المنافسة التي لا تضمن نصره وخوفاً من مس شعور اهل مكة . الذين يدينون بالولاء والاحترام لابن جبير ، ارسله مخفوراً مع اسماعيل بن واسط البجلي ، الى الحجاج بن يوسف .

وهنا تبدأ المحنة ، ثم تشتد سورتها مع لقاء الحجاج طاغية العراق ، وفي هذا اللقاء ، غير الكريم ، جرت المناقشة والمخاصمة الفكرية ، كان سعيد فيها فارس الميدان ، وصاحب لواء النصر والظفر ، حيث كان فيها جريئاً ، لا تلين قناته ، صلباً لا يضعف سيف لسانه ، يقول الحق ، وهو يعلم انه مفارق الدنيا ، بسبب ذلك .

(قال الحجاج : ما اسمك ؟

سعيد : سعيد بن جبير .

الحجاج : بل انت شقي بن كسير .

سعيد : بل كانت امي اعلم باسمي منك .

الحجاج : شقيت امك وشقيت انت .

سعيد : الغيب يعلمه غيرك .

الحجاج : لا بد لك بالدنيا ناراً تلظى .

سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك الها .

الحجاج : فما قولك في محمد ؟

سعيد : نبي الرحمة وامام الهدى .

الحجاج : فما قولك في علي اهو في الجنة ام هو في النار ؟

سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها ، عرفت اهلها .

الحجاج : فما قولك في الخلفاء ؟

سعيد : لست عليهم بوكيل .

الحجاج : فايهم اعجب إليك ؟

سعيد : ارضاهم لخالقي .

الحجاج : فايهم ارضى للخالق ؟

سعيد : علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم .

الحجاج : احب ان تصدقني .

سعيد : ان لم احبك لن اكذبك .

الحجاج : فما بالك لم تضحك ؟

سعيد : وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين تأكله النار .

الحجاج : فما بالنا نضحك ؟

سعيد : لم تستو القلوب .)

ذلك هو المشهد الاول من هذه المناقشة، أو قل الفصل الاول من المحنة، وقد بدا فيها للحجاج انه غير قادر على إخضاع سعيد اليه،او حمله على اعطاء الولاء لأميره وسيده ، ولو بالاشارة أو التلميح .. ولم ينفعه التهديد بالقتل ، كما لم تفده غلاظة الكلام ، وقبح الاتهام ..

وهنا يسلك الحجاج طريقاً آخر ، لعله يصل فيه الى ما يريد ويحصل على مبتغاه من سعيد .

(ثم امر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، فجمعه بين يديه ، فقال سعيد : ان كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح ، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما ارضعت ، ولا خير في شيء الدنيا إلا ما طاب وزكا) ..

وهكذا ينتهي المشهد الثاني من هذه المحنة ، فلم ينفع الحجاج هذا الاغراء بالمال والذهب ، كما لم تسعفه منحه التي أومأ بها ، فليس ابن جبير من عباد المال ، ولا من الذين يبيعون دينهم بدنياهم ، لذا فقد لقنه درساً لن ينساه ، في ان المال ، اعظم وسيلة لإصلاح الاعمال، وصلاح الآخرة ، ان جمع بطريق الحلال الطيب .. لاتقاء فزع يوم القيامة ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »[1] .

ثم يسلك الحجاج سبيلاً آخر .

(ثم دعا الحجاج بالعود والناي ، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي ، بكى سعيد ، فقال : ما يبكيك ؟ أهو اللعب ؟ قال سعيد : هو الحزن ، اما النفخ فذكرني يوماً عظيماً يوم ينفخ في الصور ، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق ، واما الاوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة .

---

(١) آية ٨٨ — ٨٩ سورة الشعراء .

فسعيد ليس من هواة الطرب ولا من رواد الناي والعود، وإنما من هواة الحق ورواد الاسلام الذي وهب حياته له، فإعراضه عن ذلك وإظهار حزنه حين تذكر الآخرة وشدة عذابهـــا ، فكان درساً آخر لقنه اياه ، وإدراك المسلم ذلك دائماً ، لما عصى الله، او خالف امراً من اوامره، وبعد ان اسقط في يده ، وفشلت جميع تلك السبل ، هنا اشتدت المحنة قليلاً ، فعلا غضب الحجاج ، وفقـد اعصابه ، وكاد ينهي هـذه المحنة بمشاهدها ، او يصل الى نهايتها ، ولكن تريث الى حين ، لعله يحظى بشيء من سعيد .

(قال الحجاج ويلك يا سعيد : فقال لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة . قال الحجاج : اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك ؟ فقال اختر أنت لنفسك، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة ؟. فقال : أتريد أن أعفو عنك ؟ فقال : ان كان العفو فمن الله وأما انت فلا براءة لك ولا عذر)..

عند ذاك ضاق الحجاج ذرعاً بسعيد ، ولم يطق صبراً عليه ، وهو يتلقى منه هذه الأجوبة الجريئة والتي كانت سهاماً تصيب قلبه.. فأمر بانهاء المحنة .

(قال الحجاج : اذهبوا به فاقتلوه ، فلما خرج ضحك ، فأخبر الحجاج بذلك ، فردوه اليه ، وقال : ما أضحكك ؟ فقال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك ، فأمر بالنطع فبسط . وقال : اقتلوه ، فقال سعيد : وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً مسلماً ومـــا أنا من المشركين ..

قال الحجاج : وجهوا به لغير القبلة .

قال سعيد : فأينما تولوا فثم وجه الله .

قال الحجاج : كبوه على وجهه .

قال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى .

قال الحجاج : اذبحوه .

قال سعيد : أما انـــا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله خذها مني حق تلقاني بها يوم القيامة .. اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي) .

فذبح من الوريد الى الوريد . ولسانه رطب بذكر الله .. وبهذا انتهت محنة سعيد بن جبير باستشهاده . وبقيت المحن تصيب أمثالـــه ، من الذين أعرضوا عن الحكام بكليتهم . لإعراض الحكام عن الله وعن دينه وشريعته .

وهكذا شأن الله مع عباده المؤمنين الصابرين . فلم يُضيّع إيمانهم ، أولم ينسهم ذكره في أوقات محنتهم ، وهم قادمون اليـــه ، وكيف ينساهم .. او يضيعهم .. ومحنتهم كانت في سبيله ، ومن اجل إعزاز دينه . لِذا قيل لهم : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

قيل للحسن البصري رحمه الله تعالى: ان الحجاج قد قتل سعيد بن جبير . فقال : « اللهم أئت على فاسق ثقيف . والله لو ان من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكبهم الله عز وجل في النار).

(وقال احمد بن حنبل قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الارض احد إلا وهو مفتقر الى علمه .. [1]) .

---

(١) اعتمدنا في كتابة هذه المحنة من كتب المناقب والسير وأخذنا النصوص من وفيـــات الأعيان لابن خلكان ص ١١٢ جـ ٢ . مات رحمه الله سنة ٩٥هـ وله من العمر ٧٤ سنة.

ـــ محنة جعفر الصادق ـــ

من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه
– الصادق –

.. الصبر على ظنون الحكام من المحن – واستدعاء الحكام للصابرين، للتحقيق معهم في هذه الظنون بجو ارهـابي عنيف من المحن ايضاً، وإرسال عيون الدولة لمراقبة التصرفات، وإحصاء الانفاس وإرصاد الكلمات من المحن كذلك. ثم أليس من المحنة ان يوصي الانسان اهله قبل كل استدعاء. لأنــه لا يعلم مصيره ولا ما يجري له خلال هذا الاستدعاء. لأنــــه استدعاء ليس للتكريم ..

تلك هي محنـــة إمامنا الجليل جعفر الصادق رضي الله عنه. مع ابي جعفر المنصور.

لقد حدّث الصادق آباؤه الأئمة الطيبون، حدّثوه عن خذلان الناس لجده ابي عبدالله الحسين – رضي الله عنه – في ساعة العسرة، كما حدّثوه عن الخيانة التي كانت سبباً بإنزال الفاجعة العظمى بأهل البيت، بيت النبوة والرسالة، تلك التي سوّدت وجه تاريخ الأمـــة الاسلامية، حيث قتل ابنُ دعيّها ابنَ نبيها ... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كما رأى الصادق عمه الامام زيداً، كيف كانت نهايته ونهـــاية اولاده، حين اعتمد على من اعتمد، فخانوا الامام ونكثوا العهود، فحلت النكبــة وكانت المصيبة، حيث قتل الامام زيد قتلة آثمة، ثم نبش قبره من بعد ما ووري عليه التراب، فصلب جثمانه الطاهر، وذبح ابناؤه البررة.

وقد مرت تلك الفاجعة ولكنهـــا تركت ندوباً في نفس الامـــام الصادق صفي زيد ورفيق صباه، وزادته بحال الشيعة في عصره، الذين كانوا يغرون

ولا ينصرون ويتكلمون ولا يفعلون – ويحرضون وعنـد الشديدة يفرون ، وان المغرور من يخدع بهم . (كما قال امـام الهدى عليّ كرم الله وجهـه في اخوان لهم قبل (١)) .

وكما قال الامام السبط الحسين يوم فاجعته بالطف .

ثم رأى – رضي الله عنــه – اخيراً فعل المنصور بأولاد عمومته الأخوين الكريمين محمد بن عبدالله بن الحسن وأخيه ابراهيم حين خرج الاول في المدينـة والثاني في العراق على حكم ابي جعفر المنصور .

وشاهد بأم عينيه حوادث المحن . ووقائع المصائب ، من مطاردة وملاحقة وتشريد وسجون ومصادرة اموال بأهل البيت النبوي الكريم حتى لم تنج من ذلك ، تلك الشيبة الطاهرة عميد هــذا البيت الرفيع العماد عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ، فمات في السجن مكموماً سنة ١٤٥ عقيب هذا الخروج .

.. في هذا الجو الارهابي الفظيـع ، عاش الامام الصادق ، فكان لا بـد ان يصيبـه شيء من ذيول ذلك الارهاب العنيف ولو انــه وقف بعيداً عن ذلك الخروج . ولو ان المنصور كان يصانعه الود والاحترام .

فالمنصور كان يتوجس خيفة من الامام الجليل ، وهذه الهواجس تدفعه الى الشك احياناً ، وهناك من يحمل الشك عنده يقيناً بالتزوير والدس اللئيم . فكان يرسل عليه العيون والجواسيس ، لارصاد كلماتـه ، التي كان يلقيها في حلقـة درسه ، كما يرصد حركاته وتصرفاته .

إلا ان هذه المراقبة الشديدة ، التي كان المنصور فيهـا بارعاً ، بحيث كانت تقع دون ان يشعر الامام بثقلها ، وإن كان يعلم بوجودها .

---

(١) ص ٤١ الامام الصادق لابي زهرة .

ولكن عندما تبلغ هذه الشكوك منزلة الظن الغالب على التصديق ، التي كان يأتي بها رجال دائرة مباحثه ، فانه يستدعيه بغير تكريم ، وهو ذلك الامـام الصابر على فواجع اهل بيته ونكبات بني عمومته .

حين حصل خروج الاخوين الكريمين ، همس رجال المباحث في اذن المنصور ان الامام الصادق ، يؤيد خروجها . بل هو من ورائها ، والحقيقة خلاف ذلك فاستدعاه للتحقيق معه ، وقد استعمل المنصور في هـذا غلظة القول ، وسلك سبيل الاساءة في هذا التحقيق ، ولم يراع نور الهدى ، وطيب الارومة ، ووقار الشيخوخة ، التي بلغت السبعين ، ولا حرمة القربى أو صلة الرحم او مكانة العلم .

ومن ذلك مناقشته وتحقيقه حين كان في الكوفة بعد ان بلغ الصادق وصيته لاهله (قال المنصور : انت يا جعفر مـا تدع حسدك وبغيك وفسادك على اهل البيت من بني العباس ، وما يزيدك الله بذلك الا شدة حسد ونكد ، ومـا تبلغ به ما تقدره) .

فقال الامام الصادق ، والله يا امير المؤمنين ما فعلت شيئاً من ذلك : هـذا ولقد كنت في ولاية بني امية وانت تعـلم انهم اعدى الخلق لنا ولكم ، وانهم لا حق لهم في هذا الأمر ، فوالله مـا بغيت عليهم ولا بلغهم عني شيء مع جفائهم الذي كان لي ، وكيف اصنع هذا الآن وانت ابن عمي ، وامس الخلق بي رحماً ، واكثر عطاء وبرا ، فكيف افعل ذلك ، فاطرق المنصور ساعة ..

ثم قال : يا جعفر ما تستحي مع هـــذه الشيبة ومع هذا النسب ان تنطق بالباطل وتشق عصى المسلمين ؟ تريد ان تريق الدماء وتطرح الفتنة بـين الرعية والاولياء ؟..

قال الصادق : لا والله يا امير المؤمنين مـا فعلت ، ولا هذه كتبي ولا خطي لا خاتمي – كان المنصور قـد اخرج له كتباً الى اهل خرسان تدعوهم الى نقض البيعة .

فانتضى من السيف ذراعاً فما زال يعاقبه وجعفر يعتذر اليه، ثم اغمد السيف واطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال أظنك صادقاً)[1] .

هذه اجوبة الصادق برقتها وصدقها، وذاك كلام المنصور بخشونته وقسوته وكل منهما يعتز بسلطان يعتمد عليه .

فامامنا الصادق يعتز بسلطان الله الذي يغلب كل سلطان ولو بعد حين :

والمنصور يعتز بسلطان الحكم وقوة الجند . وهو زائل ولو بعد حين وما ان انتهت مسألة الخروج خروج الاخوين الكريمين : انتهت حتى استدعى المنصور الامام جعفر من المدينة المنورة، مرة اخرى الى بغداد .

فكتب الى واليه وابن عمه داود بن علي أن يسير اليه جعفر بن محمد ولا يرخص له في التلوم (التمكث) والبقاء وكان القصد من ذلك، هو التحقيق معه في التهمة الموجه اليه بانه يجمع الزكاة من جميع الافاق وانه مد بها محمد بن عبد الله بن الحسن فكان التحقيق التالي .

(المنصور : يا جعفر ما هذه الاموال التي يجبيها لك المعلى بن خنيس؟)[2]

الصادق : معاذ الله من ذلك يا امير المؤمنين .

المنصور : الا تحلف على براءتك من ذلك بالطلاق والعتاق ؟

الصادق : نعم احلف بالله انه ما كان شيء من ذلك .

المنصور : بل تحلف بالطلاق والعتاق .

الصادق : اما ترضى بيميني بالله الذي لا اله إلا هو .

---

(١) ص ١١٠ الامام الصادق لمحمد بن الحسين المظفري وص ٤٤ الامام الصادق لأبي زهرة ذكرها الاستاذ باختصار .

(٢) المعلى بن خنيس مولى الامام الصادق .

المنصور : لا تتفقه عليّ ؟

الصادق : واين يذهب الفقه مني .

المنصور : دع عنك هـــذا فاني اجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عليك هذا حتى يواجهك . فأتوه بالرجل وسألوه بحضرة جعفر فقال نعم هـــذا صحيح . وهذا جعفر بن محمد الذي قلت فيه ما قلت :

الصادق : اتحلف ايها الرجل ان الذي رفعته صحيح ؟

الرجل : نعم : ثم ابتـــدأ باليمين فقال : والله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب الحي القيوم .

الصادق : لا تعجل في يمينك فانني استحلفك .

المنصور : ما انكرت من هذا اليمين ؟

الصادق : ان الله تعالى حي كريم يستحق من عبده اذا اثنى عليه ان يعاجله بالعقوبة لمدحه له ولكن قل ايها الرجل : ابرأ الى الله من حوله وقوته وألجأ الى حولي وقوتي لصادق بر فيما أقول .

المنصور : احلف بما استحلف ابو عبد الله به .

(قال راوي هذا الخبر فحلف الرجل بهذه اليمين، فلم يستتم الكلام حتى خر ميتاً فراع المنصور وارتعدت فرائصه، وقال للصادق يا أبا عبد الله سر من عندي الى حرم جدك ان اخترت ذلك ، وان اخترت المقام عندنا لم نأل في اكرامك وبرك ، فوالله لا قبلت قول احد بعدها ابداً) .

على هذه الأحوال المضطربة ، والنفوس القلقة التي لا تعرف مصيرها المحتوم . وبهذه الظنون المريبة التي عقوبتها الاعدام ، او السجن المؤبد .

وتلك العيون المحدقـــة والأحاسيس المرهفة التي تحصي الانفاس ، وترصد الكلام :

وتلك التحقيقات التي تعدت هذا العدد الذي ذكرناه والتي أبى الحكام فيها ان يتركوا امامنا العظيم ، في هداءة العلم يعلم الناس الطيب من القول والمأثور من جوامع الكلم النبوي ، وهو الامام في فقه الكتاب والسنة .

كما لم يتركوه وشأنه ، يسبح الله في محرابه ، مناجياً بذكر الآخرة ، ويدعو على اولئـك الظالمين ، الذين فتكوا بالعترة النبوية الطاهرة ، وقطعوا أغصان الدوحة النبوية المحمدية، مات الصادق موتة للصديقين والشهداء ، فعليه سلام الله ورضوانه في الخالدين [1] ..) .

— محنة ابي حنيفة النعمان —

خذ العفو وامر بالمعروف وتغافل عما لا يعنيك وبادر في اقامة الحقوق .

— ابو حنيفة —

.. كان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنـه ، غير راض على سياسة ابي جعفر المنصور بشكل عام ، وخصوصاً قسوته وشدته مع خصومه ، وخصوم آبائـه العباسيين ، وكانت المخاصمة شديدة والقسوة عنيفة مــع العلويين ، ومن يظهر التودد اليهم او الترحم عليهم .

والامام ابو حنيفة كغيره من أئمة المسلمين وأجلاء العلمـاء ، يحبون العلويين ولهم مكانة طيبة في قلوبهم .

---

(١) يراجع ص ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ من كتاب الامام الصادق لابي زهرة . و ص ١١٩ /من وما بعدها الامام الصادق للشيخ محمد بن الحسين المظفري .

مات الامام الصادق رضي الله عنه سنة ١٤٨ وله من العمر ٦٨ سنة.

ثم ان الامام رحمه الله تعالى جريء في فتاواه ، صريح في أجوبته ، شديد في محاسبته لأبي جعفر ، كثير النقد لأحكام قضاته ، وتصرفات ولاته ، تمثلت به رجولة العـــالم وشجاعة المؤمن ، وصلابة الفقيه المتمسك بأحكام الشرع ، لا يعرف نفاقاً ولا يسلك طريقاً منحرفاً في دعوته ، ولا يهاب سطوة سلطان ولا يخشى قوة حاكم في قولة الحق ، والمنصور ابو جعفر عرف هوى الامام وأدرك نزعته السياسية والروحية ، وتلك نزعة لم تنل رضاه ، وهوى يغضبه وسلوك لا يريده ، ولكن .. ماذا يفعل مع رجل عالم أوتي لساناً صادقاً وتأثيراً روحياً دفاقـاً ، يعمل ما لا يعمل الحسام .

لأن ألسنة العلماء وهي غضاب تعمل مـا لا تعمل السيوف العضاب . ثم في أي درب يسير عليه المنصور مع امام أحبه الناس وملك قلوبهم . فمنـه تؤخذ الفتوى وبه يقتدى . لسلامة قلبه وحسن سيرته وسعة علمـه ، ومزيد تقواه ، وكلما تقرب منه شبراً ابتعد عنه الامام ذراعاً ملتمساً بذلك إسكاته او جره الى صفوفه فكان قرباً لم يرد به وجه الله تعالى والدار الآخرة .

لذلك فليس من السهولة والحالة هذه أن ينزل بإمامنا محنة او يوقع به أذى . دون ان يلتمس المبررات التافهة ، والذرائع الباطلة لتكون سبباً ظاهرياً لها . فهل ذلك في الوقت الذي عجز ان يؤاخذ امامنا الجليل على مولاته لآل سيدنا علي رضي الله عنهم تلك التي نعتقد انها السبب الخفي المباشر لمحنته .

ولا حير في هذه المولاة بل هي ممـــا دعا اليها الرسول الأعظم عليـه الصلاة والسلام .

فلا حق لحاكم مثل ابي جعفر ان يؤاخذ أحداً بسببها . ولكنهـا العصبية العائلية وحب السلطان التي تعمي البصائر والأبصار عن رؤية الحق الواضح .

ومن الاسباب الظاهرة التي اتخذها المنصور ذريعة لمحنته الجائرة ، أن أبا حنيفة كان جريئاً في بيان خطأ حكم القضاة في المسائل التي تعرض عليهم

خصوصاً اذا خالفت رأيـــه الذي يعتقده صواباً ، فيشكوه القضاة ليمتنع عن ذلك .

(فقد روي أن ابن ابي ليلى القاضي ، نظر في امر امرأة مجنونة قالت لرجل يا ابن الزانيين ، فأقام عليها الحد في المسجد قائمة وحدها حدين حـدا لقذف ابيه ، وحداً لقذف امه ، فبلغ ذلك ابا حنيفة ، فقال أخطأ فيها في ستة مواضع . أقام عليها الحد في المسجد ، ولا تقـام الحدود في المساجد ، وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً ، وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ولو ان رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد ، وجمع بين حدين ولا يجمع بين حدين ، حتى يخف احدهما ، والمجنونة ليس عليها حد ، وحد لأبويه وهمـا غائبان ولم يحضرا فيدعيا ، فبلغ ذلك ابن ابي ليلى فدخل على الامير فشكاه إليه ، وحجر على ابي حنيفة . وقال لا يفتي فلم يفتِ أياماً) [1] .

وهكذا بدأت المحنة تدنو منـه شيئاً فشيئاً وهو صابر مصابر محتسب ، المحنة أخذت بالتتابع سريعة تنذر بوقوعها حيث سلك المنصور سبلاً اخرى ، فأرسل اليه هدية ثمينة وهو يعلم أنها مردودة عليـه لا محالة . ولكنه فعل ذلك ليضيف سبباً آخر وحجة أخرى .

ولعل من المناسب اعادة ذكرها هنا لتسلسل الموضوع (ارسل اليـه ابو جعفر بجائزة عشرة آلاف درهم وجارية ، وكان عبد الملك بن حميد وزيره .. فقال لأبي حنيفة عندما رفضها : أنشدك الله ان امير المؤمنين يطلب عليك علة فإن لم تقبل صدق على نفسك ما ظن بك فأبى ...) [2] .

وحين أراد المنصور أن يحرج أبا حنيفة ويتخذ من رفضه لمنحـه وعطاياه ممسكاً ارسل اليه وقال له : (فـلم لا تقبل صلتي فقلت (أي قال ابو حنيفة)

---

(١) ص ١٦٦ ج ١ المناقب لأبي البزاري ، ص ٣٥١ ج ١٣ تاريخ بغداد .
(٢) راجع فصل العلماء ومنح الحكام .

ما وصلني امير المؤمنين في ماله بشيء فرددته ولو وصلني بذلك لقبلته انما اوصلني امير المؤمنين من بيت مـال المسلمين ولا حق لي في بيت مالهم ، اني لست ممن يقاتل من ورائهم ، فآخذ ما يأخذه المقاتل، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان ، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذه الفقراء ...) [1] .

ثم هاك سبباً آخر .

لقد مر بنـا ان إمامنا الممتحن ، ابان وجهة نظره في قتال اهل الموصل . وكان جوابه ذاك الذي اغـاظ المنصور ، فأسرها في نفسه واحتفظها عنده . وهنا برر للمنصور سبباً آخر وطلباً قـد يكون وجيهاً ، وذريعة ظنها محكمة ليجعل منهـا في انزال المحنة بإمامنا الجليل ، والمنصور يعلم مسبقاً ان طلبه مردود عليه أيضاً .

ذلك هو توليه رئاسة القضاة في الدولة الاسلامية ، فان امتنع اخذه بهـذا المنع ، جهرة وامـام الناس ، ملتمساً بذلك عذراً عند العوام – وهم سواد الناس– الذين لا يدركون بواطن الامور ولا دوافع المطالب، مطالب الحكام، ثم ان أبا حنيفة وهو شيخ الفقهاء في العراق، وهو بحر في العلم لا تكدره الدلاء، فمن الصواب ان يكره على تولي القضاء لرفع منارالعدل والحق في ارجاء الدولة، وليس في الاكراه ظلم ظاهر عند العوام ... وان رضي بهـذه التولية تم الصلح بينهما وحسم النزاع ، وآمن الانكار ، وانتهت المناوأة ، وأنى له عند ذاك ان ينكر ويناوىء ويعترض وقـد اصبح من رجالات الدولة ، ومن المسؤولين في الحكم والمشتركين فيه .

بهذا سولت للمنصور نفسه ، فأقدم عليه بحزم .

استدعى المنصور ابا حنيفة وعرض عليه تولي هذا المنصب الخطير ، فامتنع وأعرض ولنسمع الحادثة من امامنا نفسه :

---

(١) ص ٢١٥ جـ ١ المناقب لأبي طالب المكي .

(.. ان هذا دعاني للقضاء فأعلمته اني لا اصلح ، واني لا اعلم ان البينة على المدعي واليمين على من انكر ، ولكنه لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك ، وعلى ولدك وقوادك ، وليست تلك النفس لي ، انك لتدعوني فما ترجع نفسي حتى افارقك) [1] .

وجـــاء في هذا الرفض في مجلس آخر عن الربيع بن يونس : (رأيت امير المؤمنين ينازل ابا حنيفة في امر القضاء وهو يقول له : اتق الله ولا تدع امانتك إلا من يخاف الله ، والله مـــا انا بمأمون الرضا ، فكيف اكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجـــه الحكم عليك ثم هددتني ان تغرقني في الفرات او الى الحكم لاخترت ان اغرق . الك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك فلا اصلح لذلك ، فقال : كذبت انك تصلح . فقال : قد حكمت على نفسك ، كيف يحل لك ان تولي قاضياً على امانتك كذاباً [2] ؟

وهنا حصل المنصور على ما يريد،ونال ما بيت في نفسه، فأنزل به المحنة... أذكرها بروايتها كما رويت في كتب المناقب .

روي عن داود بن راشد الواسطي ، انه قال : (كنت شاهـداً حين عذب الامام ليتولى القضـــاء ، كان يخرج كل مرة فيضرب عشرة اسواط حتى ضرب عشرة ومائة سوط ، وكان يقال له : اقبل القضاء ، فيقول: لا أصلح فلما تتابع عليه الضرب ؟ قال خفياً : (اللهم ابعد عني شرهم بقدرتك) فلما أبى دسوا عليه السم فقتلوه) [3] .

(وروي ان ابا جعفر المنصور حبس ابا حنيفة على ان يتولى القضاء ويصير

---

(١) ص ٢١٥ ج ١ المناقب للمكي .
(٢) ص ٣٢٨ ج ١٣ تاريخ بغداد .
(٣) ص ٣٢٨ ج ١٣ تاريخ بغداد .

قاضي القضاة فأبى حتى ضرب مائة وعشرة اسواط واخرج من السجن على ان يلزم الباب) [1] .

(وروي ان المنصور حبسه وضيق عليه مدة ، وكلم المنصور بعض خواصه فأخرج من السجن ومنع من الفتوى والجلوس للناس والخروج من المنزل، فكانت تلك حالته الى أن توفي) [2] .

تلك محنة الامام ابي حنيفة ، منعاً عن التدريس والافتاء . واقامة جبرية في الدار ، وضرباً بالسياط ، وحبساً في السجن ثم قتلاً بالسم ان صدقت الرواية ، كل ذلك لأنــه أبى ان يساير الحكام في أهوائهم وان يوافق على أعمالهم وان يستجيب لطلباتهم ... وهكذا ينبغي ان يكون العلماء في كل حين ان كانوا علماء حقاً ...

(.. مات ابو حنيفة كما يموت الصديقون والشهداء وكان ذلــك سنة ١٥٠ هـ وكان في الموت راحـــة لذلك الضمير المضيء ولذلك الوجدان الديني المرهف ، ولذلك القلب القوي ، ولذلك العقل الجبار ، ولتلك النفس الصبور ، التي لاقت الأذى فاحتملته ، لاقته من المخالفين له في الآراء ورميت في كل رمية ، فتحملتها مطمئنة راضية مرضية ، ولقيت الاذى من السفهاء ثم لقيته من الامراء والخلفاء .

وما ضعفت وما وهنت ، واذا كان للنفوس جهاد ، ولجهادها ميادين ، فأبو حنيفة رضي الله عنه كان اعظم ابطال ذلــك النوع من الجهاد ، وممن انتصر في كل ميادينه .

وكان جلداً في جهــاده قوياً في جلاده ، حتى وهو يلفظ النفس الاخير فهو يوصي بأن يدفن في ارض طيبة لم يجر عليها غضب ،وألا يدفن في ارض اتهم امير

---

(١) ص ١٨ جـ ٢ المناقب لأبي البزازي .

(٢) ص ١٥ جـ ٢ المناقب لأبي البزازي . مات رضي الله عنه سنة ١٥٠ هـ وله من العمر ٧٠ سنة .

بأنه غصبها حتى يروى ان أبا جعفر عندما علم ذلك قال : (من يعذرني من ابي حنيفة حياً او ميتاً [1] ..) .

وبموته رضي الله عنه انتهت محنته ثم لتتابعت المحن تنزل بأقرانه من أئمة المسلمين ...

ــ محنة مالك بن أنس ــ

سئل عن الخارجين على الحطام أيجوز قتالهم ؟ قال: نعم ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز. قالوا : فان لم يكونوا مثله ؟ قال دعهم ينتقم من ظالم لظالم ثم ينتقم من كليهما .

ــ مالك ــ

في البلد الطيب وفي مركز الاشعاع الفكري والروحي ، وفي موطن النور المحمدي وفي حرم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي جوار المصطفى حبيب الرحمن ، وبين القبر الشريف والمنبر العظيم ، القبر الذي يضم تربة سيد الخلق وإمام المرسلين ﷺ والمنبر الذي رفعت عليه كلمة الاسلام عالية المنبثقة من كلمة التوحيد ، حيث اخذت تدوي في المشرقين . لتهدي الضال وتبصر العمي وتنير درب المظلومين والمحرومين ، وتحدد سبيل تحرير الشعوب من ربقة عبودية البشر . وطريق التخلص من سيطرة الطغاة ، وحكم الجائرين

---

(١) ص ٥١ ابو حنيفة لأبي زهرة .

ليس من العدل الذي اوجبه الاسلام على الحاكم ان يؤاخذ العالم لطلب يرفضه او لرأي يبديه، ولو كان يتعلق بوجوده حاكماً على البلاد، لأن ابداء الرأي من حق الامة وفي مقدمتهم العلماء والمنصور يعلم هذا ، لذلك لم يجرؤ ان يؤاخذ امامنا النعمان على كل ما يبديه ولكنه التمس اسباب للنيل منه ، وتلك اساءة بليغة وجرم عظيم يبوء المنصور بأثمها وعليه وزرها ، ولو انه حقق للاسلام في جوانب عدة ما حقق من نشر له في الارض ورفع لواء الاسلام في العالم .

ومن على هذا المنبر كان العلماء ينهلون من معينه الذي لا ينضب ومنـــه يستلم القادة العسكريون وأمراء الاجناد اوامر السير نحو الفتوحات .

ويأخـذ الحكام والولاة نصيبهم من التعليمات والتوجيهات هنـاك بين القبر والمنبر . الروضة المباركة التي ما جلس احـــد فيها هنيهة بروحه وجسده إلا وشعر انه حقاً في الجنة من ذاك الرحاب الطاهر . كان الامـــام مالك بن انس يأخذ كامل زينته من طيب ولباس . ووافر حظ من حسن الادب جالساً على منصة متواصفة يبين للناس ويعلم ، هدى رسول الله ﷺ .

قائلاً : حدثني فلان بن فلان ان صاحب هذا القبر قد قال: والناس يسمعون، وكأنما على رؤوسهم الطير ، وهم بين ناصت بكل جوارحه ليصن قلبـه ويحفظ عقله ، وبين كاتب يسجل على قرطاس . وكان مما حدّث به هـذا الامام الجليل قوله ﷺ . (ليس على مستكره طلاق) .

... وما ان نطق بهذا الحديث الصحيح.وإذا بالألسن تتداوله ذائعة امره، حتى شاع وانتشر بين الخلق في مدينة سيد الخلق عليـــه الصلاة والسلام . ثم اخذت التأويلات لهذا الحديث تجري على قدم وساق . كل طائفة وجدت فيـه بغيتها وعضت عليه بالنواجذ لأن فيه مستنداً شرعياً لما عزمت عليه من امر مما بيتت من فعل .

فالمناوئون لحكم ابي جعفر المنصور وجدوا فيه مستنداً قوياً على التحلل من بيعة المنصور لأنها جاءت – كما اعتقدوا – عن طريق الاكراه . اذ قاسوا البيعة على الطلاق فقالوا : وليس على مستكره بيعة) .

وأنصار محمد بن عبدالله بن الحسن رضي الله عنهم وجدوا فيـه متكئاً حين خروج هذا الامام الجليل .

أما الحكام من ابي جعفر وولاته فقد وجدوا في نشر هذا الحديث خطراً عليهم وعلى كيانهم ، لذلك حاولوا ان يمنعوا الامام مالكاً من التحدث به .

ولكنه لم يفعل ، وهددوه فلم يسمع . لأنه يؤمن بأن الله اوجب على العلماء ان يبينوا للناس ما نزل على رسوله محمد ﷺ ، ولا يكتمونه ولم يكن الامام مالك من الجبناء الذين يكتمون احكام الاسلام . ارضاء لهوى الحكام ، او خوفاً من بطشهم وجبروتهم او اسواطهم وأغلالهم ، عند ذلك نزلت المحنة ووقع الاذى ، والسؤال الذي يرد ؟ من انزل بإمامنا هذه المحنة فباء بأثمها وتولى كبرها ، وحصد شرها ؟.

الروايات التاريخية تشير الى ما يلي :

.. ان ابا جعفر (نهاه ان يحدث بهذا الحديث ثم دس اليه من يسأله عنه فحدث به على رؤوس الناس فضربه [1]) .

ومثل هذا روى ابن عبد البر في الانتقاء .

(لما دعى مالك بن انس وشور وسمع منه وقبل قوله شنف له الناس[2]) وحسدوه ونعتوه بكل شيء ، فلما ولى جعفر بن سليمان على المدينة سعوا به اليه وكثروا عليه عنده ، وقالوا لا يرى ايماناً ببيعتكم هذه شيء .

وهو يأخذ بحديث رواه : (ثابت بن الاحنف في طلاق المكره لا يجوز)[3].

(بعد ان ذكر هياج اهل المدينة على المنصور في اول امره ، انه ارسل اليهم ابن عمه (جعفر بن سليمان) . فاشتد في اهل المدينة الخلاف واخذت البيعة للخليفة ، فسعى حسدة الامام مالك الى الامير انه يفتي بالايمن على مكره فيحل بهذا ما ابرمتموه مما قام على الاستكراه ، فاراد ان يبدر فيه فقيل لا تبدر فانه اكرم الناس على الخليفة فدس الى مالك بعض ثقاته فأفتاه على طمأنينة منه ،

---

(١) ص ٨٤ ج ١٠ تاريخ ابن كثير .
(٢) شنفوا له اي تنكروا له .
(٣) ٤٤ الانتقاء لأبي عبد البر .

فـــلم يشعر إلا ورسول جعفر فيه فأتوا به فتنهك الحرمة وضربه سبعين سوطاً اضجعته بعد انتهاء الفتنة) [١] .

والذي يبدو في هذه الروايات ان الذي تولى كبر هذه المحنة ونفذها هو ابن عم المنصور — جعفر بن سليمان — وكان المنصور على علم بذلك وان لم يكن من ظاهر الواقع ضارباً او آمراً بالضرب .

(ونحن لا نستطيع ان ننفي ان يكون ذلك بعلم ورضا من المنصور الداهية الذي كان على علم بما يجري داخل دولته وخاصة من كبارها وان الذي كان على علم بداخل بيت مالك حتى يعرف انــه كان يأمر خادمه بادارة الرحى حتى لا يسمع الجيران صوت ابنته من البكاء جوعاً ما كان يجهل بما يجري) [٢] .

ولكن الخبث السياسي الذي يحمله اصحابــه من الحكام يجعلهم يحملون اثم الافعال وكبر المحن غيرهم لتكون لهم فرصة البراءة لأنفسهم عند اللزوم بين الناس اذا وجدوهم قــد انكروا هذا الاثم وسخطوا من تلك المحن لظهور الظلم فيها ، اما الله فــلا تخفى عليه خافية فهو يعلم خائنة الاعين ومــا تخفي الصدور وهذا ما اتبعه المنصور مــع مالك ، عندما برأ الاخير من جراحه وطلب اليه الاجتماع بمنى في موسم الحج. يقول مالك (لما وصلت على ابي جعفر وقد عهد اليّ ان آتيه في الموسم قال لي : والله الذي لا إله إلا هو مـــا امرت بالذي كان ولا علمته ، انه لا يزال اهل الحرمين بخير ما كنت بين ظهرهم واني اخالك اماناً لهم من عذاب ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فانهم اسرع الناس الى الفتن، وقد امرت بعدو الله ان يؤتى به من المدينة الى العراق على قتب وامرت بضيق محبسه والاستبلاغ في اتهامه ولا بد ان انزل به من العقوبة اضعاف ما نالك منه،

---

(١) الامامة والسياسة لأبي قتيبة .
(٢) ص ٦٠ مالك لأبي زهرة .

فقلت عافى الله امير المؤمنين واكرم مثواه قد عفوت عنه لقرابتهم من رسول الله ﷺ وقرابته منك قال : فعفا الله عنك واوصلك) [1] .

ومثل هذا روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة .

تلك عظمة مالك من تسامحه واحتسابه السبعين سوطاً لله ، له بها ثواب الصابرين ومثوبة المؤمنين ...

(وبهذا انتهت محنته وعاد الى دروسه وصنف كتابه الموطأ بعد ذلك ولكن المحن لم تزل قائمة باقرانها [2]) ...

ــ محنة احمد بن حنبل ــ

اذا اجـاب العالم تقية والجاهل يجهل
فمتى يتبين الحق .
ـ ابن حنبل ـ

تبنت الدولة الاسلامية في اواخر حكم المأمون سنة ٢١٨ هـ الفكرة القائلة بخلق القرآن الكريم ، واستعملت قوة سلطانها وصرامة جندها في تنفيذها .

---

(١) ص ٢٩٣ المدارك .

(٢) مات سنة ١٧٩ هـ وله من العمر ٨٦ سنة .

هذا ما نرجحه من موقف المنصور من الامام مالك (بالمحنة) من انه على علم بها راض عنها او ان أردنا تحسين الظن بهذا الموقف بناء على اليمين المنعقدة التي حلف بها المنصور للامام مالك كما ذكرها صاحب المدارك ومن باب التوفيق بين الروايات فنقول ان ابا جعفر امر واليه على المدينة ان يراقب مالكاً وان يحول بينه وبين عمله وتحدثه ضده وضد حكمه ولكن الوالي فسر طلب المنصور بالذي فعله وقام به من ضرب وانتهاك لحرمة هذا الامام الجليل وعلى كل حال فان المنصور مسؤول عما اصاب امامنا من محنة واذى ..

(الامـام راع وهو مسؤول عن رعيته) وكيف لا يسأل والخليفة العادل عمر رضي الله عنه يقول : والله لو ان سخلة عثرت بأرض العراق لكنت مسؤولاً عنها يوم القيامة لم اعدل لها الطريق ..

وأنزلت المحن الشداد بالمعارضين والمخالفين لهـــا ، بل والساكتين من الذين توقفوا فيها .

واستمر هذا التبني حتى حكم المعتصم والواثق الى ان جاءت سنة ٢٣٤ هـ ، فآن للدولة في بداية حكم المتوكل ان ترفع هذا التبني وتبطله وبذاك خلصت الامة من شروره ومحنه .

وتبني الدولة في ذلك خاطىء حتى لو كانت الفكرة المتبناة صحيحة لأنهـا مما يتعلق بفروع العقيدة الاسلامية لا بأصولها .

وفروع العقيدة لا يكون فيها التبني من قبل الدولة الاسلامية وذلك بإلزام الناس بها وجبرهم على اعتناقها . ولكيلا تخرج رعيتها مـا دامت هذه الفروع لا تناقض اصول العقيدة ، تلك التي تجعل الفرد مسلماً ويكون معتنقوها مسلمين ، وبدون الايمان بأصول العقيدة يكون الكفر والخروج من حضيرة الاسلام .

وكيف وان تلك الفكرة – خلق القرآن الكريم – خاطئة وحمل الناس على اعتناقها بالقوة – قطعاً للرؤوس وضرباً بالسياط واغـلالاً بالآسار وحبساً بالسجون – جريمة يتولى اثمها اصحابها والمنفذون لها .

ولكن هكذا رغب المأمون فسلك هذا الطريق غير المأمون !!

والذي يهمنا من محنة هـذا الامام الجليل واقرانه الذين شاركوه فيها ان نذكر مواطن المحنة ونسجلها كما وردت في كتب الثقات من المؤرخين . اما فيما يتعلق بها ويدور في فلكها فسيكون نصيب ذكرها الايجاز لا التفصيل .

اصحاب هـذه الفكرة هم المعتزلة . والمعتزلة قالوا ان القرآن الكريم مخلوق لأن الله تعالى خلقه وأنزله على رسوله سيدنا محمد ﷺ .

وقال جمهرة الفقهاء والمحدثين ، ومنهم الامام احمـد رحمه الله تعالى بأن القرآن غير مخلوق لأنه كلام الله وكلامه غير مخلوق .

وتوقف آخرون عن بيان رأيهم في ذلك لأسباب اعتقدوا بها .

ولكن المعتزلة استطاعوا لقربهم من المأمون واستوزارهم له ان يحملوا المأمون على اعتناق فكرتهم هذه وتنفيذها بقوة سلطانه ، وذلك عن طريق تبنيها من قبل الدولة .

واستمر هذا التبني الى حكم المعتصم والواثق وبداية حكم المتوكل بوصية يوصي بها الحاضر اللاحق .

ونفذ المأمون هذه الفكرة بأربع مراحل .

المرحلة الاولى : استعمل المأمون اسلوب حرمان العلماء والفقهاء والمحدثين من وظائف الدولة وعدم قبول شهادتهم في القضاء ، وذلك في حالة معارضتهم لهذه الفكرة وعدم قبولهم اياها .

يوضح هذا ما جاء في كتابه الاول الى عامله على بغداد اسحاق بن ابراهيم ، وهذا نصه :

(... فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وأحداثه ، وأعلمهم ان امير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظ من امور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه وترك اثبات شهادة من لم يقر انه مخلوق محدث ، ولم يره ، والامتناع عن توقيعها عنده) [1] .

المرحلة الثانية : حرمان المخالفين من أعطيات الدولة من الذين يتولون التعليم والارشاد ويتصدون للفتوى ، أمثال عفان بن مسلم ، اذ يقول :

---

(١) ص ١١١٢ جـ ٢ الطبري طبعة ليدن .

(فقال لي اسحق : ان امير المؤمنين أمر إن لم تجبه يقطع عنك مـا يجرى عليك وان قطع عنك امير المؤمنين قطعنا نحن ايضاً ، فقلت له : قال الله تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون) فسكت عني اسحاق) [1].

المرحلة الثالثة : وفيها اشتدت المحنـــة ضراوة ، اذ جعل عقاب المخالفين والمعارضين الضرب بالسياط ، والاسار بالأغـلال والطرح بزنزانات السجون ثم إرسالهم اليه مخفورين . وأمر بتنفيذ ذلك حاكم بغداد كما جـــاء في كتابه الثالث اليه :

(.. فاحملهم أجمعين موثقين الى عسكر امير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في الطريق حتى يؤديهم الى عسكر امير المؤمنين ويسلمهم الى من يؤمر بتسليمهم ، لينطقهم امير المؤمنين ، فان لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعـاً على السيف ان شاء الله ولا قوة إلا بالله) [2] .

المرحلة الرابعة : وقد بلغ العقـاب أوجه وهو الاعدام بقطع الرؤوس عن الهامات وأمر بتنفيذ هذا العقاب واليه على بغداد اسحاق بن ابراهيم ، فجـاء بكتابه الرابع اليه :

(.. فإن امير المؤمنين يرى أن تستتيب من قـال بمقالته ، اذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند امير المؤمنين ، فإن تاب منهـا فاشهر امره وامسك عنه وإن أصر على شركه ودفع ان يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده فاضرب عنقه بالسيف وابعث الى امير المؤمنين برأسه) [3] .

وبهذا انتهى تعيين أساليب التنفيذ ، فدخلت المحنةمرحلتها الأخيرة وسارع اسحاق حاكم بغداد الى طاعة اميره . فاجتمع بكبار علمـــاء بغداد وكان من

---

(١) ص ١٣ المقضي للمقريزي .
(٢) الطبري جـ ٢ .
(٣) ص ١١٢٥ وما بعدها جـ ٢ الطبري .

جلتهم إمامنا احمـد لمناقشتهم وجرى الامتحان . وكانت الأجوبة متفاوتة في الصراحة والجرأة ، فمنهم الموفق بين رأيه الخاص ورأي الدولـة ، ومنهم المتأول ، ومنهم الآخذ بقاعدة التقية ؟؟ ولكن أربعة منهم في هذا المجلس ربط الله تعالى على قلوبهم فثبتهم ورضوا بحكم الله تعالى فيهم ، فأعلنوا رأي الاسلام كما يعتقدونه في هذه الفكرة بوضوح متحملين كل مشقة في هذا السبيل ، وهم إمامنا احمد ومحمد بن نوح وعبيد الله القواريري ، وسجادة .

عند ذاك اخذ هؤلاء الأربعة الكرام مصفدين في الأغلال وأدخلوا زنزانات السجن .. ينتظرون .. وفي اليوم التالي جيء بهم الى حاكم بغداد لإعـادة السؤال عليهم . وأعطوا فرصة الاجابة ، فأجاب سجادة بما تريد الدولة ، فأطلق سراحه ... ثم أتيحت لهم الفرصة ثانيـة ، فلحق القواريري بصاحبه وبقي اثنان الله ثالثهما ابن حنبل وابن نوح رضي الله عنهما .

وسجادة والقواريري قد أخذا بالرخصة ، وامامنا وصاحبه قد أخذا بالعزيمة فكانا أفضل من أخويهما . وكان سلوكهما هو السلوك الأصح وهو الطريق الأحق وهو المفروض على أمثالهما من الأئمة الذين يهتدى بهداهم ويقتدى بهم . لأنهما رضي الله عنهما لو سلكا سبيل اخويهما . لضل الناس واعوج الطريق بهم وكان الفساد ولظن الناس – وليس لهم علم بما في الصدور – ان ذلك هو الحق وهو الذي ارتضاه ائمتهم وعلماؤهم دنيا وعقيدة .

ولذلك يقول امامنا احمد (اذا جاب العلم تقية والجاهل يجهل فمتى يتبين الحق)

فحق على العلماء الرجال ان يثبتوا في المحن ويجهروا بالحق ليحفظوا عـلى الناس دينهم . ويأمن الاسلام شر الطعن بـه وتكون محنهم طريقاً الى نشره وسبيل العض عليه بالنواجذ .

وهذا ما نطق به احمد واقرانه . وهذا ما اراده واعتقده . وهذا ما تحقق ووقـع ..

وسيجد القارىء الكريم ذلك واضحاً من خلال تفصيل هذه المحنة .

نفذ حاكم بغداد امر الخليفة . فحمل الفقيهين على الابل موثقين في الاغلال. ليواجهوا المأمون في طرسوس .

وفي الطريق، وقع ما حدث به المؤرخون الثقات بما هو آت، جاء في طبقات الشافعية وذكر ابن الجوزي بسنده الى ابن جعفر الانباري انه قال : لما حمل احمد الى المأمون ، اخبرت ، فعبرت الفرات فـاذا هو جالس فسلمت عليه ، فقال : (اي احمد بن حنبل) – يا ابا جعفر تعنيت ، فقلت ليس في هذا عناء . وقلت له انت اليوم رأس والناس يعتقدون بـك . فوالله لئن اجبت الى خلق القرآن . ليجيبن باجابتك خلق مـن خلق الله . وان انت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير ، ومع هـذا كان الرجل – يعني المأمون – ان لم يقتلك تمـوت ولا بـد من الموت ، فتق بالله ولا تجبهم الى شيء . قال : فجعل – احمـد يبكي ويقول ما شاء الله ما شاء الله [1] وفي الطريق ايضاً .

ذكر ابو نعيم وغيره[2] ان احمد بن غسان المكلف بإشخاص ابي حنبل الى المأمون قال : فلما صرنا الى (اذنه) ورحلنا منهـا وذلك في جوف الليل فتح لنا بابها فلقينا رجل ونحن خارجون من الباب وهو داخل فقـال : البشرى ؟ قد مات الرجل – يعني المأمون – .

وقال ابو الفضل صالح بن احمد بن حنبل: فصار ابي ومحمد بن نوح الى طرطوس وجـاء نعي المأمون من (البذندون) فردا في اقيادهما الى الرقة وأخرجا من الرقـة في سفينة مع قوم محبسين فلمـا صارا بعانات (وتسمى اليوم عانه) توفي محمد بن نوح رحمه الله تعالى وتقدم ابي فصلى عليـه ، ثم صار ابي الى بغداد وهو مقيد ، فمكث بالياسرية أياماً ثم صير الى الحبس في دار اكتريت عند دار عمارة،

---

(١) ص ١٤٦ طبقات الشافعية للسبكي .

(٢) ص ١٤٧ الحلية لأبي نعيم و١٣٩ ص الطبقات للسبكي و٤ المقضي للمقريزي .

ثم نقل بعد ذلك الى حبس العامة في درب الموصلية . نعم مات محمد بن نوح في الطريق . فكان شهيداً مصداقاً لقوله ﷺ .

(... ومن مات في سبيل الله فهو شهيد ..) فاستراح وذهب الى ربه راضياً مرضياً وقد ادى الذي عليه وبقي الذي على اخوانه العلماء ..

وانتهت بذلك محنته ولكن صاحبه ابن حنبل ، لا زال في المحنة منتظراً .. (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا [1]) .

وفي سجن احمد الذي طرح فيه ثمانية وعشرين شهراً . بقي صامداً فلم يغير رأيه ولم يبدل موقفه .

وكلما ازدادت المحنة ويلات ازداد ايماناً وثقة بربه وبكتابه الذي يكافح من اجله .

ورغم محاولات اقناعه بالعدول عن رأيه ، واستجابة أمر الدولة اتسعت المحنة واشتدت وبلغت اقصاها ، رغم شفاعات الشافعين الذين قاموا بها متبرعين من انفسهم ...

قال اسحاق بن حنبل – عم إمامنا احمد – « كنت اتكلم مع اصحاب السلطان والقواد في خلاص ابي عبد الله ، فلم يتم لي الامر ، فاستأذنت على اسحاق بن ابراهيم فدخلت عليه وكلمته . فقال لحاجبه : اذهب معه الى ابن اخيه . ولا يكلم ابن أخيه بشيء إلا أخبرتني به » .

قال اسحاق بن حنبل : فدخلت على ابي عبد الله ومعي حاجبه ، فقلت : يا ابا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد اعذرت فيما بينك وبين الله ، وبقيت انت

---

(١) ٢٣ سورة الاحزاب .

في الحبس والضيق . فقال ابو عبد الله : يا عم ، اذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل ، متى يتبين الحق ؟ قال : فأمسكت عنه . ثم قال : فذكر ابو عبد الله ما روي في التقية من الاحاديث . فقال : كيف تصنعون بحديث خباب ؟ ان كان قبلكم ينشر احدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه . قال : فيئسنا منه .

ثم قال : لست ابالي بالحبس ، ما هو إلا ومنزلي واحد ، ولا قتلاً بالسيف ، انما أخاف فتنة السوط ، وأخاف ان لا اصبر . فسمعه بعض اهل الحبس وهو يقول ذلك . فقال : لا عليك يا ابا عبد الله . ما هو إلا سوطان ثم لا تدري اين يقع الباقي . فلما سمع ذلك سري عنه [1] .

وذكر ابو نعيم ومثله المقريزي :(حدثنا محمد بن جعفر وعلي بن احمد والحسين ابن محمد قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل ، حدثنا أبو الفضل صالح بن احمد ابن حنبل قال: قال ابي رحمه الله لما كان في شهر رمضان لليلة سبع عشرة خلت منه ، حولت من السجن الى دار اسحاق بن ابراهيم (حاكم بغداد) وأنا مقيد بقيد واحد يوجه إلي في كل يوم رجلان سماهم ابي قال ابو الفضل صالح هما احمد ابن رباح وشعيب الحجام يكلماني ويناظراني فاذا ارادوا الانصراف دُعي بقيد فقيدت به ، فمكثت على هذه الحالة ثلاثة ايام ، وصار في ارجلي اربعة أقياد) [2] .

ثم ماذا حدث لإمامنا بعد ذلك . هذا ما يحدثنا به الامام نفسه ، فقال حاكياً حاله :

---

(١) ص ٥ المقضي للمقريزي .

(٢) ص ١٤٣ الحلية لأبي نعيم .

هذا هو ايمان عوام المسلمين وهذه المقالة من الرسول التركي ان دلت على شيء فانما تدل على التهكم اللاذع في تبني الدولة لهذه المفاهيم التي استدق فهمها على عموم المسلمين وهم لا يحتاجون اليها في دينهم واسلامهم .

(... فلما كانت الليلة الرابعة بعد العشاء الآخرة وجه المعتصم ببغا – وهو رسوله – الى اسحاق بن ابراهيم يأمره بحملي ، فأدخلت على اسحاق ، فقال : يا احمد، انها والله نفسك . انه قد حلف الا يقتلك بالسيف، وان يضربك ضرباً بعد ضرب، وان يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس . أليس قد قال الله تعالى: (انا جعلناه قرآناً عربياً) أفيكون مجعولاً الا وهو مخلوق ؟ فقلت له : قد قال الله تعالى : (فجعلهم كعصف مأكول) أفخلقهم ؟ فقال : اذهبوا به ، فأنزلت الى شاطىء دجلة واحدرت الى الموضع المعروف بباب البستان ، ومعي بغا الكبير ورسول من قبل اسحاق فقال بغا لمحمد المحاربي بالفارسية : ما تريدون من هذا الرجل ؟ قال: يريدون أن يقول القرآن مخلوق . فقال: ما اعرف شيئاً من هذا إلا قول لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وقرابة امير المؤمنين من رسول الله .

ولما صرنا الى الشط اخرجت من الزورق ، فجعلت على دابة والأقياد عليّ. وما معي أحد يمسكني . فجعلت أكاد أخرّ على وجهي ، حتى انتهى بي الى الدار ، فدخلت ثم عرج بي الى حجرة فصيرت في بيت منها ، وغلق عليّ الباب ، وأقعد عليه رجل وذلك في جوف الليل وليس في البيت سراج) [(١)] . ثم ماذا فعل في تلك الزنزانة الضيقة المظلمة ؟؟ وكيف كان ينهي ليله البهيم ؟؟ أسمعه يقول (فاحتجت الى الضوء فمددت يدي اطلب شيئاً فاذا انا بإناء فيه ماء وطست فتهيأت للصلاة فقمت أصلي) [(٢)] .

بالصلاة قضى امامنا احمد ليله ، وهل هناك أحب اليه من الصلاة ومن مناجاة ربه الذي يمتحن من أجل قرآنه وذكره المجيد ، وكم للصلاة خشوع ولها قبول إن كانت في وقت السحر ، وفي ساعات الشدة والمحن ؟

---

(١) المصدر السابق بصحائفه .

(٢) ص ١٤٨ وما بعدها الحلية لأبي نعيم و ص ٥٧٩ ج ٢ تاريخ اليعقوبي و ص ١٦٨ ج ٢ ابو الفداء في تاريخه و ص ٦ المقريزي و ٤٨ تاريخ الاسلام للذهبي .

وفي الصباح جرت المحاكمة الأولى للامام على الوجه الذي يرويه هو رضي الله عنه :

(فلما أصبحت جاءني الرسول فأخذ بيدي فأدخلني الدار واذا هو جالس (المعتصم) وابن أبي دؤاد حاضر وقد جمع اصحابه ، والدار غاصة بأهلها ، فلما دنوت منه ، سلمت فقال ادنه ادنه ، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال لي : اجلس، فجلست وقد أثقلتني الاقياد. فلما مكثت هنيهة ، قلت ، تأذن في الكلام ؟ فقال : تكلم . قلت : إلام دعا إليه رسول الله ﷺ (أي الى أي شيء دعا اليه ﷺ) فقال : الى شهادة أن لا إله إلا الله . فقلت أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قلت : ان جدك العباس يحكي ان وفد عبد القيس ، لما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله . فقال : أترون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم .

قال المعتصم : ما تقولون في القرآن؟ قلت له : ما تقول في علم الله ؟ فسكت فجعل يكلمني هذا وهذا فأردّ على هذا وأكلم هذا . ثم قلت : يا امير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به ما أراده فقال ابن أبي داود : أنت تقول الا ما في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؟

فقلت له : تأولت تأويلا ، فأنت أعلم وما تأولت ما يحبس عليه ويقيد عليه ، فقال ابن ابي داود هو والله يا امير المؤمنين ضال مضل مبتدع وهؤلاء قضاتك والفقهاء ، فسلهم . فقال لهم (المعتصم) ما تقولون ؟ فيقولون يا امير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع) .

تلك مقالة علماء السوء وطلاب الدنيا وعبيد أهوائهم. حينما يخاصمون قرناءهم في المعتقد ، ويخالفونهم في الرأي في كل زمان .

ثم قال الامام احمد: (ولا يزالون يكلمونني وجعل صوتي يعلو على اصواتهم .

فقال لي انسان منهم : قال الله تعالى – ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) أفيكون محدث إلا مخلوق ؟ فقلت له : قال الله تعالى (ص والقرآن ذي الذكر) والذكر هو القرآن وتلك ليس فيها ألف ولا لام . فجعل ابن سماعة (وهو من قضاة المعتصم) لا يفهم ما أقول . فجعل يقول لهم ما يقول ؟ فقالوا انه يقول كذا وكذا . فقال لي انسان منهم حديث خباب يا هذا تقرب الى الله بما استطعت فانك لن تتقرب اليه بشيء هو أحب اليه من كلامه . فقلت له : نعم هكذا هو) [١] .

فجعل ابن ابي دؤاد ينظر اليه ويلحظ متغيظاً عليه . فكان اذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن ابي دؤاد فتكلم . فلما قارب الزوال قال لهم: قوموا .

وهكذا انتصر الامام عليهم بفكره وقوي حجته وخاب المبطلون ؟

فالمعتصم يستمع الى تلك المناقشة او المحاكمة التي علا فيها صوت الحق المتمثل بحجج احمد وبراهينه من الصباح حتى قاربت صلاة الظهر .

ثم اتبع المعتصم اسلوباً آخر لعل به يزحزح احمد عن ايمانه ومعتقده . يقول الامام احمد : « ثم احتبس (اي المعتصم) عبد الرحمن بن اسحاق فخلا بي وبعبد الرحمن ، فجعل يقول لي : أما تعرف صالحاً الرشيدي ؟ كان مؤدبي وكان في هذا الموضع جالساً ، وأشار الى ناحية من الدار ، فتكلم وذكر القرآن فخالفني فأمرت به فسحب ووطيء . ثم قال : ما اعرفك ؟ ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبد الرحمن : يا امير المؤمنين : اعرفه منذ ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والحج والجهاد معك [٢] . وهو ملازم لمنزله . فجعل يقول (المعتصم): والله انه

---

(١) وحديث خباب قد مر ذكره وهو قوله صلى الله عليه وسلم (ان من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار لا يصده ذلك عن دينه) وتلك مقالة جريئة نطق بها احد الحاضرين من العلماء فصدقه امامنا ولعل هذا الامام الجليل اخذ عقابه فيما بعد .

(٢) يقصد بقوله طاعتك : طاعة بني العباس لأن المعتصم منهم .

لفقيه وانه لعالم ، ومـا يسرني ان يكون مثله معي ، يرد على اهل الملل ، ولئن اجابني الى شيء ، له فيه ادنى فرج، لأطلقن عنه بيدي ولأطأن عقبه، ولأركبن اليـه بجندي . ثم يلتفت إلي ويقول : ويحك يا احمد مـا تقول ؟ قلت : يا امير المؤمنين ، اعطوني شيئاً من كتاب الله او سنة رسوله ﷺ . فلما طال بنا المجلس ضجر فقام فرددت الى الموضع الذي كنت فيه » .

رجع الامام الى سجنه الضيق المظلم وهو مقيد بالأغلال مرفوع الرأس ثابت الايمـان ، قوي الجنان ، شاكر ربه على توفيقه إياه ونصره في تلك المناقشة وفي تلك السبيل ذات التهديد المرعب والاغراء العريض .

ثم يقول الامام احمد رضي الله عليه : « ثم وجه إلي برجلين همـا صاحب الشافعي (عبد الرحمن بن اسحاق) وغسان من اصحاب ابن ابي دؤاد، فيناظراني فيقيمان معي حتى اذا حضر الافطار وجه الينا بمائدة عليها طعام. فجعلا يأكلان وجعلت اتعلل حتى ترفع المائدة . وأقامـا الى غد ، وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي داود فيقول لي : يا احمد يقول امير المؤمنين مـا تقول ؟ قلت له : اعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى اقول به . فقـال لي ابن ابي داود : والله لقد كتب اسمك في السبعة فمحوته ولقد ساءني اخذهم اياك ، وانـه والله ليس السيف انه ضرب بعد ضرب . ثم يقول لي : ما تقول ؟ فأرد عليه نحواً مما رددت عليه » .

هكذا يدعى شيخ المعتزلة وهو صاحب فكرة المحنة ؟ محاولة منه لإرجاع الامـــام عن معتقده لينتصر مذهبه ، ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريـع . ورجع ابن ابي داود الى منزله ليستعد للمناقشة في اليوم الثاني .

ثم يقول الامام احمد :

« وفي اليوم الثـــاني دخلت على المعتصم فقال : ناظروه وكلموه ، فجعلوا يتكلمون ، هذا من هنا وهذا من هنا . فأرد على هذا او هذا . فاذا جاءوا بشيء

من الكلام بما ليس في كتاب الله وسنة رسوله ولا فيه خبر ولا أثر ، أقول لهم : ما ادري ما هذا . فيقول : يا امير المؤمنين اذا توجهت له الحجة علينا وثب ، واذا كلمناه بشيء يقول ما ادري ما هذا . فيقول : ناظروه . ثم قال : يا احمد اني عليك شفيق ...

وكان اذا انقطع الرجل (اي اذا لزمته الحجة فأفحم ولا يستطيع ردا) اعترض ابن ابي دؤاد ».

ثم يقول الامام احمد : « ثم أمرهم بعد ذلك بالقيام وخلا بي وبعبد الرحمن ابن اسحاق ، فيدور بيننا كلام كثير ، ومن خلال ذلك قال : تدعو احمد ابن ابي دؤاد فأقول ذلك اليك، فيوجه فيجيء فيتكلم، فلما طال بنا المجلس قام. ورددت الى الموضع الذي كنت فيه ، وجاءني الرجلان اللذان كانا بالأمس فجعلا يتكلمان فدار بيننا كلام كثير . فلما كان وقت الافطار جيء بالطعام على نحو ما أتيَ به في اول ليلة فأفطروا وتعللت وجعلت رسله تأتي احمد بن عمار (وهو الواسطة بين الامام والمعتصم) فيمضي اليه برسالة على نحو ما كان في اول الليلة ، حتى اذا كدت ان اصبح اخرجت تكتي من سراويلي فشددت بها الاقياد احملها بها اذا توجهت اليه ، فقلت لبعض من كان معي المتوكل بي : أريد خيطاً ، فجاءني بخيط ، فشددت به الأقياد وأعدت التكة في سراويلي ، ولبستها كراهية ان يحدث شيء من أمري فأتعرى » .

بقي الامام يومين بلا طعام.. لأنه صائم فاستعد بذلك روحياً على استعداده فكرياً . اذ قد رفض ان يأكل من طعام القوم ... لأنه في ضيافة الله .

نعم استعد لذلك روحياً وفكرياً. للجلسة الثالثة من محاكمته، التي سيكون فيها اعطاء القرار النهائي ... ولم ينس احتياطه لعورته ان تكشف ، لأنه قرر الصمود والثبات لكل ضرب او سيف حتى يلقى العليم الخبير . أما خصومه فقد استعدوا ايضاً ولكن غير استعداده .

وجاء اليوم الثالث وتأيدت ظنون الامام . قال الامام : (فلما كان في اليوم الثالث أدخلت عليه (المعتصم) والقوم حضور . فجعلت ادخل من دار الى دار . وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط وغير ذلك من الزي والسلاح. وقد حشيت الدار بالجند ولم يكن في اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء حتى صرت اليه . قال : ناظروه وكلموه، فعادوا بمثل مناظرتهم . فدار بيننا وبينهم كلام كثير ، حتى اذا كان في الوقت الذي كان يخلو بي فيه نحاني ثم اجتمعوا وشاورهم ثم نحاهم ودعاني . فخلا بي وبعبد الرحمن بن اسحاق ، فقال لي ويحك يا احمد ، انا والله عليك شفيق واني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني فأجبني ؟.

فقلت (يا امير المؤمنين اعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله) وهنا ضاقت نفس المعتصم كما ضاق لسانه عن النطق الجميل كما سيضيق عليه قبره ، يوم قيامته ، فأصدر أوامره الجهنمية بانزال العقاب الذي ما بعده عقاب .

قال الامام احمد : (فلما ضجر (المعتصم) وطال المجلس، قال : عليك لعنة الله . لقد كنت طمعت فيك . خذوه : خلعوه ثيابه ؟ اسحبوه : فأخذت فسحبت ثم قال : العقابين والسياط ، فجيء بالعقابين والسياط . وقد كان صار الى شعرتان من شعر النبي ﷺ ، فصررتها في كم قميصي .

فنظر اسحاق بن ابراهيم الى الصرة في كم قميصي . فوجه اليّ ما هذا مصرور في كم قميصك ، فقلت شعر من شعر النبي ﷺ . وسعى بعض القوم الى القميص ليخرقه في وقت ما أقمت بين العقابين فقال لهم : لا تخرقوه انزعوه عنه . فظننت انه درى عن القميص الخرق لسبب الشعر الذي كان فيه ، ثم صيرت بين العقابين وشدت يدي وجيء بكرسي فوضع لي ، وابن ابي داود قائم على رأسه (المعتصم) والناس أجمعون قيام ممن حضر ، فقال لي ممن شدني خذ نابي الخشبتين بيدك وشد عليها ، فلم أفهم ما قال : فتخلعت يدي بما شددت ولم أمسك الخشبتين .

ويقول ولده صالح « ولم يزل ابي رحمه الله يتوجع منهـا من الرسغ الى ان توفي » ثم قال : للجلادين تقدموا . فنظر الى السياط فقال ائتوا بغيرهـا ، ثم قال تقدموا فقال لأحدهم: ادنه اوجع قطع الله يدك. فتقدم فضربني سوطين ثم تنحى – وكان الامام يذكر كلاماً عند كل ضربة سوط ، قـال المقريزي في المقضى فلما ضرب (احمد) سوطاً قال بسم الله فلما ضرب الثاني قـال لا حول ولا قوة إلا بالله . فلما ضرب الثالث قـال : القرآن كلام الله غـير مخلوق . فلما ضرب الرابع قال : (قـل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فضربه تسعين وعشرين سوطاً وكانت تكة سراويله قـد انقطعت فنزل السراويل الى عانته . فتلك الساعة ينتهك فرمى ابو عبد الله (امامنا) طرفه الى السماء وحرك شفتيه فما كان اسرع من ان بقي السراويل لم ينزل . قال ميمون :

فدخلت على ابي عبد الله بعـد سبعة ايام فقلت يا ابا عبد الله رأيتك يوم ضربوك قـد انحل سراويلك فرفعت طرفك الى السماء ورأيتك تحرك شفتيك فأي شيء قلت ؟ قال : اللهم اني اسألك باسمك الذي ملأت به الورش ان كنت تعلم اني على صواب فلا تهتك لي سراً) .

وبعد تلك السياط الشداد وامامنا صابر محتسب يذكر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، والناس قيام ينظرون .

قال الامام ثم قام (المعتصم) حتى جاءني وهم محدقون بـه . فقال ويحك يا احمد تقتل نفسك . ويحك اجبني اطلق عنك بيدي . فجعل بعضهم يقول لي : ويحـك امامك على رأسك قائم ، وجعل عجيف (وهو من رجاله) ينخس بقائم سيفه ويقول : تريد ان تغلب هؤلاء كلهم ؟

وجعل اسحاق بن ابراهيم يقول : ويلك الخليفة على رأسك قائم ، ثم يقول بعضهم يا امير المؤمنين دمه في عنقي ، ثم رجع فجلس على الكرسي ، ثم قـال

تلك مقالة المنافقين حين التخاصم (واذا خاصم فجر الحديث) .

للجلاد : ادنـــه شد قطع الله يدك ثم لم يزل يدعو جلاداً بعد جلاد فيضربني سوطين ويتنحى وهو يقول : شد قطع الله يدك .

ثم قال اليّ الثانية فجعل يقول : يا احمـــد اجبني فجعل عبد الرحمن بن اسحاق يقول لي ، من صنع بنفسه من اصحابك في هذا الامر ما صنعت ؟ هذا يحيى بن معين وهـــذا ابو خثيمة وابن ابي اسرائيل وجعل يعدد من اجاب ، وجعل هو (المعتصم) يقول ويحك اجبني فجعلت اقول نحواً مما كنت اقوله لهم.

في هذا البحران من الضغط والارهاب يغفر فـــاه بالموت الزؤام وسيدنا الامـام صامد كالجبل الاشم . والجلادون الذين يتناوبون على ضربـــه بالسياط الضرب المبرح وقـد بلغوا مائة وخمسين جلاداً لا يستطيعون ان يحركوه عن اعتقاده قيد انملة .

وهنـا تشتد النفوس حماقـــة والقلوب غيضا وأيدي الجلادين قوة فيعلن المعتصم من يقتله ؟ فجاء الجلاد ابو الدن فقال : انا ، قال : المعتصم بـكم تقتله ؟ قال : بخمسة عشر او عشرين فقال شد قطع الله يدك .

يقول الامام : (ثم جعل يقول للجلاد شد قطع الله يدك . فذهب عقلي وما عقلت الا وانا في حجرة مطلق القيد ، فقال انسان ممن حضر . انا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية [١] ودسناك . قلت ما شعرت بذلك).

نعم كيف يشعر . وقد تعهد ابو الدن الجلاد الاحمق . ان يزهق روح امامنا بضربات معدودات . وان ذهب شعور عقله فان قلبه الكبير بقي حياً ذا حراك وشعور تامين يلهج بذكر الله .

قال الامام (فجاؤوني بسويق فقالوا لي : اشرب وتقيأ . فقلت : لا افطر .

---

(١) البارية : الحصير .

ثم جيء بي الى دار اسحاق بن ابراهيم فنودي بصلاة الظهر . فصلينا الظهر فقال ابن سماعة (قاضي المعتصم) صليت والدم يسيل من ضربك فقلت : قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يثعب دماً . فسكت ثم خلى عنه فصار الى المنزل ووجه اليّ برجل من السجن ممن يبصر الضرب ويعالج منها . فنظر اليه فقال انما والله لقد رأيت من ضرب الف سوط ما رأيت ضرباً اشد من هذا لقد جر عليه من خلفه ومن قدامه . ثم ادخل ميلاً في بعض تلك الجراحات فقال لم يثقب فجعل يأتيه ويعالجه) .

كل ذلك الضرب وكل هذه الجراحات وكل تلك السجون المظلمة والزنزانات الضيقة ، وكل تلك القيود والاغلال ثم الركل بالاقدام وهو فاقد الشعور . وكل هذه المحنة التي ما بعدها محنة ، امامنا صابر مصابر بين صلاة وصيام . من اجل الحفاظ على عقيدة الاسلام ، وحماية القرآن من القول المريب فيه . نعم، كل هذا تحمله الامام بثبات وشجاعة ثم نسمعه يقول : والله لقد اعطيت المجهود من نفسي ولوددت ان انجو من هذا الأمر كفافاً لا عليّ ولا لي .

وبعد هذا الضرب وبعد تلك المعالجة الطبية لجروحه، ماذا حدث لإمامنا ؟ وهل انتهت محنته ؟

هاج الناس وماجوا لأنهم رأوا صدق إمامهم ، وازدادوا وثوقاً بصحة معتقدهم. وان ما عليه احمد هو الحق، وكادت ان تحدث ثورة تعصف بالمعتصم. فأدرك المعتصم ذلك ، وسارع الى قطع دابرها بهذه الحيلة الماكرة .

قال ابن ابي حاتم : سمعت ابا زرعة يقول : دعا المعتصم اسحاق عم احمد ابن حنبل ، ثم قال للناس : تعرفونه ؟ قالوا : نعم ، فانظروا اليه ثم قال لاسحاق : أليس صحيح البدن – ويشير بذلك الى الامام احمد – فقال برأسه نعم ، ولو انه فعل ذلك لوقع شر لا يقدر على دفعه . فلما قال قد سلمته اليكم

صحيح البدن هدأ الناس وسكتوا)[1] .

ولولا هذا الهياج وهذه البوادر للثورة لكان المعتصم قد اخذ باقتراح ابن ابي دؤاد وطرح امامنا في السجن ...

يقول الامام : (وكان ابن ابي دؤاد يحث الخليفة على حبسي ويقول له يا امير المؤمنين احبسه فانه فتنة . فلا يجد بداً ان يخلي عني ولولا ذلك لكان قد حبسني وقال المعتصم لهم : ليس هذا كما وصفتم) ..

وعاد الامام الى بيته لا يقوى على السير مكللاً بالنصر المبين ، مرتدياً تاج العز والفخار . وقد اثبت للملأ اجمع ان لله تعالى رجالاً يغضبون له .

وان للقرآن حماة يذودون عنه . وان للدين انصاراً يجودون بأنفسهم حين يعز الناصر ويكثر الواتر بتسلط الظلمة على رقاب الامة .

.. ثم عاد الامام الى درسه ووعظه بعد ان التأمت جروحه وشفيت اوجاعه . وذهبت عنه وعثاء المحنة .

ولكن هل ذهبت عنه المحنة وعن قرنائه الى غير رجعة ، لا ، لا .

فقد عادت اليه المحنة عندما تولى الواثق الحكم بعد المعتصم ، فاستمرت المحن تصب على اقرانه من السادة العلماء .

قلنا ان الامام احمد عاد الى درسه ووعظه فالتف الناس حوله ، ووجدوا فيه العالم التقي والفقيه المحنك الذي ترتاح اليه النفوس ، تستمع الى وعظه القلوب وانه امام العصر الذي تتمثل فيه الرجولة بأسمى معانيها .

ولما علم الواثق بذلك كله . ضاق صدره فأنزل به محنة ولكنها ليست ضرباً بالسياط وحبساً بالسجون وتضييقاً وملاحقة كما فعل ابوه المعتصم . اذ رأى ان هذا النوع من المحنة زادت امامنا محبة عند سواء الناس وجمهرة الامة .

---

(١) ص ٨ المقضي للمقريزي .

ورفعت منزلته وعظم احترامه ، وانتشر معتقـده ، وفشى فكره وكان نصيب ما تبنته الدولة ومـا يعتقده رئيسها التراجع والضمور . فأصدر امره الجائر الآتي :

(لا تجمعن اليك احداً ولا تساكني في بلد انا فيه) .

فأقام الامـام احمد في داره لا يخرج الى صلاة ولا يشهد جنازة ولا يلقي درساً ، حتى مات الواثق ، أليس في ذلك محنة له ؟؟...

اما قرناء الامام احمد فقد انزل بهم الواثق اشكال المحن . فهذا احمـد بن نصر الخزاعي ، قد تأثر بسلوك الامام احمد فحقد اشد الحقد على الدولة وأخذ يلمزها في دروسه ويعلن بصراحة اعتقاده الذي هو اعتقاد الامام ابن حنبل .

قال المقريزي وغيره : فأما احمـد بن نصر فكان من اهل الدين والصلاح والامارين بالمعروف ... دعاه الواثق الى القول بخلق القرآن فأبى، فأمر بضرب عنقه فضرب . وحمل رأسه الى بغداد فنصب في الجانب الشرقي اياما . ومثلهـا في الجانب الغربي . أمـا جسده فصلب بسر من رأى (مدينـة سامراء) وفي رواية اخرى : وامتحنه الواثق بالقرآن فأبى ان يقول انه مخلوق وشتمه الواثق فرد عليه . فضرب عنقه وصلب بسر من رأى ووجه برأسه فنصب ببغداد[1]

فهل هناك فظاعة في القتل وتمثيل في الجسم أشد من ذلك وأعظم ؟

وحين سمع ذلك الامام احمـد قال : رحم الله احمد بن نصر ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه !

وهذا نعيم بن حماد وكان رحمه الله من كبار علماء مصر ، مشهوراً بالصدق وغزارة المعرفة ، ناطقاً بالحق ، جريئاً في دحض الباطل ، لذا فقد اعلن صحـة المعتقد في مسألة خلق القرآن ، مخطئاً الدولة فيما ذهبت اليه .

---

(١) ص ١٠ المقفى للمقريزي وص ٣٤٦ تاريخ الخلفاء للسيوطي وص ٥٨٩ ج ٢ تاريخ اليعقوبي.

قال المقريزي في المقضي : (واما نعيم بن حماد فكان من اهـل مرو طلب الحديث بالحجاز والعراق . ثم نزل مصر ، ثم أشخص منها في خلافة الواثق ، وسئل عن القرآن فلم يوافقهم على ما ارادوا منه ، يعني القول بخلقه فحبس حتى مات) [١] .

وهذا ابو يعقوب البويطي ، تلميذ الامام الشافعي الذي تولى خلفه درسه بعد موتـه . وكان الربيع بن سليمان من أقران البويطي ، فقد حكي عنه : (لقـد رأيت البويطي مصفداً في اغلاله وسمعته يقول : والله لأموتن في حديدي هـذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون انه قد مات في هـذا الشأن قوم في حديدهم ، ولئن دخلت عليه (يعني الواثق) لأصدقنه ، فمات في السجن) [٢] .

وهكذا أُنزلت المحنة بأقران احمد من فضلاء الأمة وعلماء دينها ، وجيء بهم مصفدين في الاعلال من ارجاء الدولة الى الواثق ، ليأخذوا نصيبهم من هذه المحنة حتى ان عوام الأمة من الذين اتبعوا أئمتهم واعتقدوا رأيهم ، ولم ينجوا من هذه المحنة .

وذلك ان أسارى المسلمين الذين وقعوا في أيدي البيزنطيين . رأت الدولة بأمر الواثق ان تفاديهم وتفك أسرهم . ولكن مَنْ مِن هؤلاء الأسارى تخلص من هذا الأسر ونجا من عذاب الروم وهو بين أيدي العلوج أسير ؟؟.

هذا ما يحدثنا به المسعودي .

(وحضر هذا الفداء مع خاقان رجل يكنى أبا رملة . من قبل احمد بن ابي دؤاد قاضي القضاة يمتحن الاسارى وقت المفاداة فمن قـال منهم بخلق التلاوة فودي به وأحسن اليه — بدفع دينارين له — ومن أبى ترك بأرض الروم .

---

(١) ص ١٠ وما بعد المقضي وص ٣٤٦ تاريخ الخلفاء للسيوطي . ص ٥٨٩ جـ ٢ تاريخ اليعقوبي .

(٢) ١١ المقضي للمقريزي وص ٣٥٠ تاريخ الخلفاء وص ١٣٢ جـ ٢ تاريخ ابي الفداء .

فاختار جماعة من الاسارى الرجوع الى ارض النصرانيـة على القول بذلـك وأبى ان يسلم الانقياد الى ذلك فنالته محن ومهانة الى ان تخلص [1] ...) .

وبهذا تعاظمت البلوى ، واشتدت المحن ، وبلغ الاضطهـاد منها ، وسمت هذه الاحوال ، حتى صارت مسألة خلق القرآن حديث كل النـاس من أفراد الرعيـة في الدولة ، وهم بين مادح ومثنى على من وقعت عليهم المحن وأصيب بشرورها ومترحم على شهدائها ، وبين منكر تصرف الدولة في ذلـك . للقسوة التي استعملتها والاضطهاد الذي قامت به بل صارت هزلاً يتندر بها البعض. ومن ذلك ما يروى ان عبادة المضحك دخـل يوماً على الواثق فقال : يا امير المؤمنين اعظم الله اجرك في القرآن ؟ فقال : ويلك القرآن يموت ، قال : يا امير المؤمنين كل مخلوق يموت ، بالله يا امير المؤمنين بم يصلي النـاس التراويح فضحك الواثق وقال : قاتلك الله امسك .

ولما وصل الحال الى هذا الحد،خفف الواثق من غلوائه .. ورفع كل اضطهاد جديد بشأن ذلك . ولكن أمر تبني المسألة هذه ، لا زال باقياً في الدولة ، وكان ذلك في اواخر حياته ، وقد روي ان سبب هذا التخفيف يعود الى سماعه تلك المناقشة التي يحدثنا عنها صاحب النجوم الزاهرة وغيره [2] ..

أشخص شيخ من اذنه الى الواثق فأمره ان يناظر احمد بن دؤاد في هـذا الموضوع . قال الشيخ : يا احمد خبرني عن مقالتك هذه ، أهي واجبة داخلة في عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت ؟ فقال احمـد نعم : قال الشيخ ، اخبرني عن رسول الله حين بعثـه الله هل ستر شيئاً مما أمر به ؟

---

(١) ص ١٦١ و ١٦٢ التنبيـه والاشراف للمسعودي وص ١٣٥١ جـ ٣ تاريخ الطبري و ١٤٠٦ الطبقات للسبكي .

(٢) ص ٦٩١ جـ ١ النجوم الزاهرة . و ٣٤٧ تاريخ الخلفاء للسيوطي و ٢٦٦ الطبقـات للسبكي .

لم يرد احمد عليـــه ، فقال الشيـخ : يا امير المؤمنين هذه واحدة . فقال الواثق واحدة . ثم قال الشيخ : اخبرني عن الله حين قال (اليوم أكملت لكم دينكم) أكان الله وهو الصادق في إكمال دينه أم انت الصادق في نقصانه ؟ حتى تقـال مقالتك ؟ فسكت ابن ابي دؤاد فقال الشيـخ اثنتان فقال الواثق نعم : ثم قال الشيـخ ، عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها ؟ فقال ابن ابي دؤاد علمها . فقال الشيخ : فدعا الناس اليها ؟ فسكت . فقال الشيـخ يا امير المؤمنين ثلاث فقال الواثق : نعم

ثم قال الشيـخ ، فاتسع لرسول الله ﷺ أن علمها ان يمسك عنها ولم يطالب أمته بها . فقال ابن ابي دؤاد نعم . فقال الشيـخ واتسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ذلك فقال نعم . فقال الشيـخ : أفلا وسعك ما وسعه ووسع الخلفاء بعده؟

وفي رواية للدميري في كتاب حياة الحيوان ، شيء لم يدع اليـه رسول الله ﷺ ولا ابو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي تدعو أنت الناس اليه ، ليس يخلو ان تقول علموه أو جهلوه فإن قلت علموه وسكتوا وسعني وإياك من السكوت وأوسع القوم . وان قلت جهلوه وعلمته انت فيا كلع بن كلع يجهـل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئاً وأنت تعلمه ..

بهذا انتهت المناقشة فأمر الواثق باطلاق سراح الشيخ الادنى في الحـال ، ذلك من أسباب التخفيف ولكن التبني في الدولة كما ذكرنا لم يرفع وان رفع الاضطهاد وإنزال المحن بالمخالفين .

وما ان تولى المتوكل الحكم في الدولة بعد الواثق ومضت على حكمه سنتان (١) وهو يرى ما جر هذا التبني من سوء على الامة والدولة معـاً . فأمر بالغاء هذا التبني وهدد بانزال العقاب بمن يتحدث في هذه المسألة ، وفك المسجونين، وأكرم المتضررين وبذلك انتهت المحنة الى غير رجعة .

---

(١) تولى المتوكل الحكم سنة ٢٣٢ هـ .

قال السبكي : وقد طال امر الفتنة وطال شرها واستمر من سنة ثمان عشرة ومائتين ٢١٨ هـ الى سنة اربع وثلاثين ومائتين ٢٣٤ هـ فرفعها المتوكل في مجلسه ونهى عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك الى الآفاق [١].

---

(١) ص ١٤٣ الطبقات للسبكي .

توفي الامام احمد بن حنبل رحمه الله سنة ٢٤١ هـ وله من العمر ٧٧ سنة هـ .

الخروج على الحاكم بالثورة المسلحة قضية شدد الاسلام فيها وأحاطها العلماء بالعناية اللازمة ، من البحث والدراسة لما يحدث من نتائج سيئة بالغة الخطورة على كيان الدولة ووحدة الامة .

وصفوة القول فيها : ان الاسلام لم يجز الخروج على الحاكم لمجرد اساءة يرتكبها او مظالم يفعلها في البلاد :

فمعالجة هذه الناحية تكون بالموعظة والمناقشة والانكار باثارة روح الامتعاض عند الامة ضد مظالمه وسيئاته اذا اصر على تلك المظالم والاساءات بحيث لا تبلغ حد الخروج عليه .

اما اذا تعدى الحاكم فعل السيئات وارتكاب المظالم فنشر الكفر البواح وقام بأفعال الكافرين فأحل ما حرم الله وحرم ما احل الله . فمعالجة هذه تكون بطريقتين تنفذ بالتتابع .

الاولى : مناقشته من قبل علماء الامة وذوي الرأي فيها لعل شبهة دفعته الى عمل ما وان اصر بعد ازالة الشبهة واستكبر ولم تكن له اذن واعية فهنا تنفذ الطريقة الثانية وهي وجوب الخروج عليه ومنابذته بالسيف لانه يصبح حينئذ مرتداً خارجاً من حضيرة الاسلام ومثله لا يصح شرعاً ان يكون حاكماً على الامة الاسلامية . والدليل الشرعي على ذلك فقد روى البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعنا ، فقال فيما اخذ علينا ان بايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا واثرة علينا وان لا ننازع الامر اهله الا ان تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) .

قال العيني في عمدة القارىء شارح صحيح البخاري ج ٢٤ ص ١٧٨ وما بعدها .

(هذا الحديث اخرجه مسلم من المغازي عن احمد بن عبد الرحمن ... وقوله الا ان تروا كفراً بواحاً بايعنا قائلا الا تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه في قواعد الاسلام ، اذ عند ذلك تجوز منازعتهم بالانكار عليهم ، والمراد من النزاع القتال . قوله بواحاً اي ظاهراً بادياً من قولهم باح بالشيء يبوح به بوحاً وبواحاً اذا اذاعه وأظهره قوله (برهان) الى نص آية او خبر صحيح لا يحتمل التأويل أ هـ .)

والذي عليه جمهور العلماء ان حكام الجور من الذين فعلوا الكفر البواح الصراح وهو الفعل او الرأي المخالف لنصوص الكتاب والسنة القطعيتين ان قدر المسلمون على خلعهم بغير قتال ومنازعة حربية كان هذا السبيل هو الافضل حفظاً من اراقة دم معصوم او سلب مال او انتهاك =

وهكذا أثبت الأئمة من علماء المسلمين انهم دائماً المنار الوضاء والسراج المنير في مدلهم الاحداث ، والخريتون الماهرون في مجاهل الوقائع ، والصابرون المصابرون في المحن والنوائب من أجل دينهم واسلامهم .

دين الحق الذي اكرمهم الله بحمل لوائه وتحمل تبعاته .

ـ محنة الشافعي ـ

ان كان رفضاً حب اهل محمد فليشهد
الثقلان اني رافضي .
ـ الشافعي ـ

... ان تسعة من العلوية تحركوا واني اخاف ان يخرجوا وان هاهنا رجلاً من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي ، يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه [1] .

تلك هي قولة والي اليمن ، من كتابه الى الرشيد يستعديه فيه على اولئك النفر التسعة وعلى رأسهم الشافعي. وتلك بداية المحنة التي أنزلت بإمامنا الشافعي العظيم رضوان الله عليه .

= عرض واذا لم يقدروا من التخلص من هؤلاء الحكام الا بالقتال ، فيجب القتال والخروج عليهم ومنازعتهم ، ولو ادى الى قتله ونحوه و (قالوا يجب الخروج على الحاكم الكافر) .

لأن ظهور الكفر اعز عند الله وأكرم من الدمـاء والاموال اذ بازالته وتنصيب غيره من الرجال العدول يقام الشرع وتنفذ احكام الاسلام .

ولان الحاكم اذا عمل الكفر وأصر عليه كان مرتداً ومن اصبح مرتـداً لا يجوز ان يبقى لحظة واحدة بحكم المسلمين .

ولان ظهور الكفر في البلاد وطغيانها على احكام الاسلام تجعل هذه البلاد دار كفر ومتى اصبحت ذلك يحرم على المسلمين ان يبيتوا فيها ليلتين لقوله صلى الله عليه وسلم :

(لا يحل لمؤمن ان يبيت ليلتين في دار الكفر) .

(١) ص ٢٢ الشافعي للاستاذ ابي زهرة وقـد ذكر في الهامش ان صاحب توالي التأسيس والرازي في مناقب الشافعي ابن عبد البر في الانتقاء وصاحب معجم الادباء قد اتفقوا على ان هذا (اتهام بالعلوية) هي سبب المحنة .

ان الرواة جميعاً قد اتفقوا على ان سبب هذه المحنة هي ولاؤه لإمام الهدى سيدنا علي وأولاده رضي الله عنهم وأرضاهم ، فكان هذا الولاء هو الجريمة الكبرى ، وكان هذا الحب هو الخيانة العظمى ، التي يجب ان يعاقب عليها الشافعي بالاعدام ضرباً بالسيف ...

وان كان النفر التسعة قد عاقبهم الرشيد بالاعدام لمجرد التحرك لا الخروج فعلا ان صدق الوالي بقوله فما ذنب الشافعي الذي لم يتحرك ؟ ولم يشرع في الخروج ؟ ولكن الاهواء اذا سيطرت على القلوب أعمتها عن رؤية الحق ، وإقامة العدل .

والشيطان — نعوذ بالله من شره — اذا اتخذ إماماً ووليا ساق اولياءه بعصاه السحرية الى الاجرام ، ودفع اتباعه الى الفساد في الارض ، وبطانة السوء الذين فقدوا التقوى ، تجعل من البريء مجرماً ، ومن الحب والولاء .. خيانة .

ان حقيقة هذا الامر : هي ان الامام الشافعي ، عندما كان بمكة زادها الله شرفاً ، مع والدته لم يكن له عمل يعتاش به . فأشار بعض القرشيين على والي اليمن الذي مر بمكة ان يشغل الشافعي في ولايته ويستعين به في امره هناك .

يقول الشافعي : (ولم يكن عند امي ما تعطيني ما اتحمل به فرهنت داراً فتحملت معه (اي مع الوالي) فلما قدمنا عملت له على عمل) .

وفي عمله باليمن بمدينة نجران ، أقام الحق ونشر العدل فكان شخصية اسلامية بعقليتها الرائعة ونفسيتها المستقيمة حتى شاع ذكره الطيب في بطاح مكة وأطراف نجران ، ورأوا فيه مثلاً صالحاً لمن يتولى أمراً من أمور الناس .

يقول الشافعي : (وليت بنجران وبها بنو الحارث بن عبدالله المدان وموالي ثقيف وكان الوالي اذا اتاهم صانعوه فأرادوني على ذلك فلم يجدوا عندي) [1] .

---

(١) ص ٢١ الشافعي لأبي زهرة .

ولما لم يقبل مصانعة ، ولم يداهن واليه ورئيسه ، بل وقف له بالمرصاد يمنعه من أية مظلمة يريد ايقاعها بمن يتولى امرهم ، ولم يكتف إمامنا بذلك بل يحاسبه في كل أمر وينكر عليه كل سوء ، وهو الذي يملك لساناً كما يقول الوالي الغشوم الظلوم : (يعمل بلسانه مـا لا يقدر عليه المقاتل بسيفه) وبهذا وحده ضـاق صدر هذا الوالي وأبت نفسه إلا أن يسيء الى الشافعي ، وكيف يستطيع ان يصيبه بسوء او يلحق به اذى ، وهو قد ملك القلوب حباً وأسر النفوس ، فدبر له أمراً بأن أشركه مع النفر التسعة بالتهمة الخطيرة المعروفة .. التي يفتح لهـا الرشيد أذنيه بل حواسه جميعاً ، لينزل به عقابها الصارم .

وبهذه المكيدة يتخلص الوالي من هـذا الذي وقف في طريق تنفيذ اهوائه وإشباع نزواته .. وحال دون تسلطه على رقاب الامة .. أوثق التسعة وعاشرهم الشافعي ، وصفدوا بالآسار وأيديهم مغلولـة الى اعناقهم ، وساروا من اليمن السعيد متوجهين الى بغداد لملاقاة الرشيد ، بصحبة ثلة من الجند للتحقيق معهم في هذه التهمة الخطيرة ؟؟ تهمة الخيانة العظمى ، ليأخذ المـارد الخائن نصيبه من العقاب !!

دخل العشرة على الرشيد وهم مصفدون بالاغلال ، والنطع والسيف بـين يديه ، والجند شاكي السلاح قد اخذوا اماكنهم في قاعة المحكمة بقصر الخلافـة ينتظرون ايماء الرشيد لهم ، لا يعصونه في أمر ويفعلون ما يأمرون .

بهذا الجو الارهابي الفظيع الذي ينطق بقطع الرؤوس عن اجسادها ويصرخ بأن النصر للقوي !! جرت المحاكمة فقتل التسعة رحمهم الله .

أما الشافعي : فقد انجاه الله ونصره . وهو الضعيف الذي طلب المـدد من الحي القيوم فامـده وانقذه في ساعة عسرته واستجاب له فكان من الناجين وحيث اتاه الله من براعـة اللسان وذربه وقوى الحجة ومنطقها السليم المقنع ، وبمـا قذفه في قلب قاضي القضاة محمد بن الحسن من شفقة وطلب شفاعة وتقديم شهادة ..

قال الشافعي وهو بين النطع والسيف والموت يفغر فاه . وقد وجهت اليه التهمـة .

(يا امير المؤمنين ما تقول في رجلين احدهما يراني اخاه والآخر يراني عبده ايهما احب اليّ . قال الرشيد الذي يراك اخاه . فقال ذلك انت يا امير المؤمنين انكم ولد العباس وهم ولد علي ونحن بنو المطلب ، فانتم ولد العباس تروننا اخوانكم وهم يروننا عبيدهم) [1] .

أما شهادة قاضي القضاة وشفاعته ، فقد حضر محمد بن الحسن محاكمته وكان بين الشافعي وابن الحسن التقاء سابق في بغداد والتقاء العلماء يكون دائماً للعلم ومدارسة الفقه وبحث في المسائل الشرعية وادلاء كل منهم بدلوه .

فبعد ان قال الشافعي مقالته تلك . اخذ يبين ان له حظاً من العلم والفقه انه عند ذلك قال ان محمد بن الحسن يشهد على ذلك . فسأله الرشيد فأجاب (له من العلم حظ كبير) .

ثم اتبع قائلاً (وليس الذي رفع عليه من شأنه) .

وتلك شفاعته . فقال الرشيد (فخذه اليك حتى انظر في امره) [2] .

---

(١) لا شك ان امامنا ذكر هذا من باب شرح واقع موجود اقتضت الحاجة الى بيانه وليس هو من قبيل مدح النفس .

(٢) ص ٢٣ الشافعي لأبي زهرة .

توفي رحمه الله سنة ٢٠٤ هـ وله من العمر ٥٤ سنة .

كثير من التهم الباطلة والاراجيف الظالمة تكون سبباً لانزال المحن ورفع الرقاب على مقاص الجلادين . وحوادث التاريخ قديماً وحديثاً شهادة ناطقة . ولكن الحاكم المسلم الذي ولي امر المسلمين ليقيم عليهم العدل ويحكم بالقسطاس المستقيم ، عليه ان يحقق في تلك التهم ويكشف صدق الاراجيف من كذبها .

وان وجد شبهة ادرأ العقوبة مصداقاً لقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (ادرأوا الحدود بالشبهات) .

وبهذا تخلص الشافعي من ذلك الاتهام الخطير ، ونجا من عقوبته ..

وتلك محنة الشافعي ، الايـــدي مغلولة الى الاعناق بمعية جند الرشيد من اليمن الى بغداد ، ثم الموت يقترب منه . وقـــد لاح بين عينيه لولا عناية الله وحسن توفيقه . السبب الحقيقي هو قيامه بالواجب الملقى عليه باعتباره عالمـــاً اخذ الله منه الميثاق لبيان احكام الشرع والوقوف في وجه الظالمين الطغاة ومن ثم قيامه بعمله في نجران الذي احسن فيه وقطع بـــه الطريق على واليه وحال دون شهواته ونزواته .

ذلك السبب الذي افرغه الوالي الغشوم الظلوم بقالب آخر له دافع في حياة الشافعي هو ولاؤه للامام علي وابنائه البررة وحسبه بذلك جريمة يعاقب عليها في دنيا الحكام اللئام ..

لقد كانت هذه المحنة محنة ساقها الله لامامنا، ليختبره في ايمانه. ولينصرف الى العلم ومدارسة الفقه واستخراج الاحكام لمعالجة مشاكل الحياة . وليأخذ مـــا عند محمد بن الحسن من عـلم وفقه وهو صاحب الامام العظيم ابي حنيفة ورفيق الامام ابي يوسف . بدل تلك الولاية في اليمن .

وقد كان ذلك والحمد لله . ولئن ولت محنة الشافعي ونجا منها فـــان المحن الاخرى باشكالها لا زالت بانتظار رجالها من السادة العلماء .

ـــ محنة البخاري ـــ

ليس في دنيا الاسلام مثل الامام محمد بن اسماعيل البخاري في زمانه ، فهو امير المؤمنين في حديث سيد المرسلين ﷺ كما لقب به .

ذاك ما شهد به شهود عدول من اقرانه الذين يعرفون فضله وعلمه ، ولنسمع الى شهادة أحدهم فيه :

(قال احمـــد بن حمدون الصفار ، رأيت مسلم بن الحجاج – وهو الحافظ المحدث صاحب صحيح مسلم – جاء الى البخاري فقبل عينيه وقـال : دعني أقبل رجليك يا استاذ الاستاذين وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث في علله .. ثم سأله عن حديث كفارة المجلس ... فذكر له علته فلما فرغ قـــال مسلم لا يغضبك إلا حاسد واشهد ان ليس في الدنيا مثلك) [١] .

نعم ليس في الدنيـا مثله ، فقد وهبه الله تعالى قوة من الحظ ، وضبطاً في النقل وقدرة في فهم العلل . والتمييز بين الصحيح والسقيم . وكتابـه الجامع الصحيح الذي اتفق عليه جمهور علماء المسلمين . بأنه أصح كتاب بعد كتاب رب العالمين سبحانه وتعالى ، دلالة صدق على ذلك .

وكيف لا يكون كذلك . وهو الحجة الثبت والحافظ الاعظم لسنة سيدنا رسول الله ﷺ قولاً وفعلا وتقريراً والذي لا يستطيع احد ان يجاريه في الضبط والاتقان ، سنداً ومتناً .

(دخل مرة الى سمرقند فاجتمع باربعمائة من علماء الحديث بها. فجعلوا متون الاحاديث على غير اسانيدها وخلطوا في الاسانيد فادخلوا اسناد الشام في اسناد العراق. ثم قرؤوها على البخاري يقصدون امتحانه فرد كل حديث الى اسناده، وقوم تلـك الاحاديث والاسانيد كلها ، ولم يقدروا ان يأخذوا عليه سقطة في اسناد ولا متن وكذلك وضعوا له في بغداد فاذعنوا له بالفضل والسبق) [٢] .

لقد عرف امامنا البخاري في طيلة حياته . بانـــه كان رضي الله عنه كثير الورع على درجة عظيمة من الزهد . الامر الذي كان يرى في ابتعاده عن الحكام وفي زهد الاتصال بهم . سلامة لدينه واماناً من تجريح تقواه . ولانـــه اراد التفرغ اللازم للاشتغال في جمع احاديث الرسول الاعظم ﷺ . والاعتناء بهـا

---

(١) ٣٥٤ وما بعدها من كتاب الحديث والمحدثون لابي زهرة .

(٢) المصدر السابق .

عناية تليق بمكانها . وهي بـلا ريب المصدر الثاني للاسلام . لذلك انصرف اليها بكليته ، يجوب أقطار الاسلام على راحلته وفي بعض الاسفار مشياً على الاقدام. ليأخذ الحديث من ثقاة رواته . قـال رضي الله عنه (دخلت الى الشام ومصر والجزيرة العربية – مرتـين والى البصرة اربع مرات . واقمت في الحجاز ستة اعوام ولا احصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين) وانصرافه هـذا جعله لا يفكر إلا بالحديث حتى في ساعات الجهاد حـين كان حارساً مع صاحب له لحماية ثغر من ثغور المسلمين ، كما سيأتي في فصل قادم [1] .

ومن كان هذا حاله فأنى له ان ينشىء علاقة مع الحكام أيـاً كانت العلاقة سلباً او ايجاباً . لذا فقد اصبح هو في واد والحكام في واد آخر .

ولكن الظلمة من الحكام لا يرضون سلوك مثل هذا السبيل ، لأنهم يريدون من عالم المسلمين ان يكون معهم في كل حين في سرائهم وضرائهم ، يجلس مجالسهم ، ويستمع الى قولهم ، يسبح بحمدهم ويقدس أمرهم .. امـا ان أبى ، منكراً لاحوالهم الشاذة ، محاسباً لأعمالهم الخاطئة واقفـاً بالمرصاد ، ينصح ويرشد ، لا يقبل ظلمهم ولا يرضى سوء صنيعهم فـانهم يغضبون ويحمقون ، شافين غليلهم بإنزال عـذاب المحن بهم ، ليستريحوا منهم ، ولن تستريح ضمائرهم ان كانت عندهم ضمائر .. اما ان يرفض قرباً طلبوه ، واتصالاً ارادوه ، جالساً على التل لا يريم ، مكباً على درسه وتدريسه ، وعلمه وتعليمه، يستقبل الدارسين ويجيب سؤال السائلين، لا يرفض متعلماً يأتيه ، ولكنه لا يأتي هو اليه ، لأن العلم يؤتى ولا يأتي اكراماً للعلم وعزة لحامليه ، ان فعل ذلك العالم ، ثارت ثائرة الظلمة من الحكام ، وغضبوا عليه ، منتقمين لأنفسهم كيف يرد طلبهم ..؟

وطلب الحكام مهما كان لا يرد كما يزعمون ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، ومحنة إمامنا البخاري من هذا النوع الاخير . وقد يرى البعض ان هـذه المحنة سهلة

---

(١) فصل العلماء والجهاد .

بسيطة ، عند قراءتها للوهلة الاولى . وربما حسبوها من قبيل الاضطهاد الخفيف او المضايقة التي ما كان ينبغي ان تقع او تصيبه ، لا من قبيل محنة اولئك الأئمة الكرام التي مر ذكرها .. ولكن الحقيقة انها محنة وانهـا نكبة بالنسبة لرجل تجاوز الستين عاماً ، إذ هو شيخ عاش لا لذاته ، وإنما من اجل حديث رسول الله ﷺ ،حيث قضى عمره وأفنى زهرة حياته يلتمس الحديث الشريف ويجمعه ، ناذراً نفسه لخدمة الحديث الشريف منذ كان عمره عشر سنين : (أفهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب . قلت : وكم أتى عليك إذ ذاك ؟ فقـال : عشر سنين او اقل) (١) . في اسفار بعدت فيها الشقة ، فلا طائرات ولا سيارات انما دواب وأقدام ليسهل فهم الشريعة الاسلامية لمن يجيء بعده ، وليأخذوا من معين مـا جمع ، وهو معين لا ينضب ، ويروون من بحره العذب النمير ويرتعون من ربيع رسول الله ﷺ في روضة وغدير . فرجل يعيش في أفق السنة المحمدية ، ويسعى لتنقيب الأحاديث النبوية ، بمشقة وعناء ، لا يعرفها إلا من ذاق طعمها ، ثم يقدم انتاجه هدية مسداة لطلاب الحديث في حلقة درسه او غيرها ..

وبعد هذا او ذاك يجازى مثل ما جوزي .

حقاً انهـا محنة ذات اهانة بالغة ، لا يتقدم على انزالها إلا من حرم طعم الايمان ، ولم يعرف لرسول الله ﷺ قدراً . ولنسمع قصة المحنة : (فقد حدث الرواة ان امير خراسان خالد بن احمد الذهلي طلب من الامام البخاري وهو في بلده بخارى أن يحضر اليه ليسمع اولاده منـه ، فأبى ان يذهب قائلاً : في بيتي يؤتى العلم . فأراد الامير أن يعزف الناس عن السماع منه فلم يقبلوا من الامير ، فأمر بنفي البخاري من بلده الى بـلدة (خرتنك) على فرسخين من سمرقند . وهناك مرض وعلى أثره مات في ليلة عيد الفطر عن اثنين وستين سنة .

ولكن الله وهو العليم الخبير سبحانه وتعـالى ينتقم من الظالمين ويثـأر للمظلومين ، ولو بعد حين فهو يمهل ولا يهمل .

---

(١) ص ٣٥٣ الحديث والمحدثون .

قال رسول الله ﷺ (ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته)[1] .

وصلت أنباء المحنة الى بغداد ، فقامت بغداد وقعدت وعم الاستياء ، لمحنة التقي الورع العدل الثبت . فأسرها الموفق بن المتوكل وهو اخو الخليفة المعتمد في نفسه ، متحيناً الفرصة لينتقم لرسول الله ﷺ ويثأر لإمام المحدثين وأمير الحفاظ أجمعين .

وها هي الفرصة قد دنت فاستعد لها الموفق ، وماذا عمل ...

فقد حدثنا به ثقات المؤرخين .

حان موسم الحج ، فوصل امير خراسان خالد بن احمد الذهلي الى بغداد . وما ان سمع الموفق بقدومه ، حتى اصدر امره باعتقاله مخفوراً ... ثم طرح في السجن حتى يذوق الموت [2] ليأخذ جزاءه فيه فمات هناك وذلك جزاء الظالمين ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون .

— محنة العز بن عبد السلام —

من آثر الله على نفسه آثره الله والمخاطرة
بالنفوس مشروعة في اعزاز الدين .
— العز بن عبد السلام —

انعقد اجماع كل المصادر للسير من كتب الطبقات والتراجم التي ذكرت سلطان العلماء العز بن عبد السلام على انه رحمه الله تعالى ، اشتهر بصفة عالية سامية فوق صفات هديه وسلوكه المبارك ، بل غلبت على جميع تلك الصفات . هي صفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) تراجع ترجمته في وفيات الاعيان ص ٣٢٩ جـ ٣ وتاريخ ابن كثير ص ٢٤ وما بعدها جـ ١١ ومفتاح السنة ص ٣٨ — ٣٩ ومقدمة فتح الباري ص ١٩٣ جـ ٢ .
مات رضي الله عنه سنة ٣٥٦ هـ وله من العمر ٦٢ سنة هـ .

حتى قال السبكي مفتتحاً ترجمته (القائم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه) [1] .

وقال الكتبي (وكان اماراً بالمعروف نهاء عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم) [2] .

وقال ابن العماد الحنبلي (وهـذا مع الزهد والورع والامر بالمعروف والنهي عن المنكر) [3] .

وهـل يستطيع مسلم ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون ان يعرف ماهيتها وحقيقتها ومعناها . نوجز هذا المعنى بكلمات .. المعروف مـا عرفه الشرع والمنكر مـا نكره ، ومن هنا جاء علمه الغزير حتى لقب بسلطان العلماء ومن كان هذا شأنه وتلك صفته لا ينجو من محن واضطهاد في حياته علماً بأن انكار منكر الحكام هو محاسبتهم . لذلك فقـد تتابعت عليه المحن واصابه الاضطهاد المرير .

ان الواجب الشرعي يدعونا ان نقر هنا اقراراً متأسفين فيه ، محزونين على وقوعه . هي ان المحنة الاولى التي نزلت بهذا الشيخ الجليل والمحن التي نزلت بعده على الشيخ الجليل ابي تيمية رحمهما الله تعـالى ، كان سببها الاختلاف الفكري في المسائل الفقهية والقضايا الكلامية المعتمدة على النصوص الظنية في ثبوتهـا ودلالتها ، ذلـك الاختلاف الذي رقي من رتبـة الاختلاف الاجتهادي الذي يخطىء ويصيب صاحبه فيه ، فـله اجران ان اصاب ، واجر واحد ان اخطأ وهو ما يقره الاسلام ، بـل هو الدليل الاعظم على الحيوية الفكرية في الشريعة الاسلامية وعلى طاقـة اتساعها في الامور والمسائل ، والتي ابعدت الضيق

---

(١) ص ٨٠ جـ ٥ الطبقات .
(٢) ص ٩٥ جـ ١ فوات الوفيات .
(٣) ص ٣٠٢ جـ ٥ شذرات الذهب .

والاحراج عن الامــة الاسلامية في مختلف العصور . اقول رقي هــذا الاختلاف برحمته من هــذه الرتبة الى رتبة التعصب المذهبي المقيت بشؤمه ومقته ، الذي نهى عنه الاسلام ، والذي ادى الى الفتن والاذى بين المختلفين وتفسيق وتبديع بعضهم البعض مستعينين بالحكام في بعض الاحيــان ، لايــذاء الخصوم وانزال المحن بالمخالفين . ممــا ادى الى اضطهاد شيوخ العلماء ، والى الاضطراب الفكري والنفسي بين الامة ، في الوقت الذي كانت الامــة الاسلامية بعلمائها وعامتها في غنى عن ذلك .

ولكن قاتل الله التعصب المذهبي المقيت ...

اعود فأقول: ان اول محنة نزلت بشيخنا الجليل كانت بفتنة الحنابلة الواقعة في زمن السلطان الاشرف بن الملك العادل الايوبي بدمشق .

يقول الذهبي : (كان للاشرف ميل الى المحدثين والحنابلة وفي عصره حصلت فتنة بــين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد وتعصب عز الدين بن عبد السلام على الحنابلة وجرت خبطه) [1] .

ويقول الكتبي (ولما كان في دمشق سمع من الحنابلة اذى كثيراً رحمه الله) [2]

وكان هذا الأذى الذي أصاب شيخنا بسبب الاختلاف في مسألة كلاميــة ليست من اصول العقيدة الاسلامية ، أن فرضت عليــه الاقامة الجبرية في داره ولا يفتي احداً من الناس ولا يجتمع بأحد منهم [3] .

وبقي الشيخ رحمــــه الله في هذه (الاستراحة ؟) الجبرية برهة من الزمن وتحدث اهل الشام بما حل بشيخهم المفضل ، وتهامس العلماء بينهم وتلاوموا على

---

(١) ص ٢٨٤ ج ٢ سيرة اعلام النبلاء .
(٢) ص ٥٩٦ ج ١ فوات الوفيات .
(٣) ص ٨٠ ج ٥ طبقات الشافعية للسبكي .

تفريطهم في نصرة الشيخ ومعتقده ، حتى قيض الله من ينتصر له عند السلطان ذلك هو شيخ السادة الحنفية في زمانه الشيخ جمال الدين الحصيري رحمه الله . وهناك في دار السلطنة قال السلطان للشيخ الحصيري بعد مناقشته في المسألة .

« ونحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفارط في حقه والله لاجعلنه اغنى العلماء ، وأرسل الى الشيخ واسترضاه وطلب محاللته ومخاللته » .

ولما فاز السلطان باجتماعه به في مرض اصابه طالبا محاللته قال له : « أما محاللتك فاني في كل ليلة احالل الخلق وأبيت وليس لي عند احد مظلمة وأرى ان يكون اجرى على الله ولا يكون على الناس » ..

ثم قدم له مائة دينار مصرية وهدية فردها قائلا : (هذه اجتماعة لله لا اكدرها بشيء من الدنيا) .

وقبل هذه الاجتماعة امر السلطان بالامساك عن الكلام في مسألة (الكلام) وان لا يفتي فيها احد بشيء سداً لبـــاب الخصام . والسلطان الاشرف يردد (لقد غلطنا في حق ابن عبد السلام غلطة عظيمة) .

وما أن مرت السنون ، واذا بالشيخ العز يمتحن مرة اخرى لأنه أنكر على سلطان الشام وحاكم دمشق خيانته السياسية للأمة الاسلامية .

وفيما يلي موجز المحنة وسببها كما يحدثنا بهـــا الامام السبكي في طبقاته ، والمقريزي في سلوكه [1] .

ان خلافـــا نشأ واشتد ، وخصاما طفق منذرا بالكيد والحرب بين الأخوين ، سلطان الشام الملك الصالح اسماعيل ، وسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب .

---

(١) يراجع ص٣٠٣ وما بعدها ج ١ للسلوك وص ٥ وما بعدها – ٢٠٠ الطبقات للسبكي.

في سنة ١٣٨ هـ أوجس اسماعيل خيفة من نجم الدين، فاستعان بالصليبيين أعداء الاسلام ، وتحالف معهم على قتال أخيه ، وأعطاهم مقابل ذلك مدينة صيدا على رواية السبكي وكذلك قلعة صفد وغيرها على رواية المقريزي وغيره، وأمعن اسماعيل في هذه الخيانة فسمح للصليبيين ان يدخلوا دمشق ويشتروا منها السلاح وآلات الحرب وما يريدون ، وأثار هذا الصنيع المنكر استياء المسلمين وعلمائهم . فهب الشيخ العز واقفاً بوجه الخيانة والخائنين ، وأفتى بتحريم بيع السلاح لهم . وصعد على منبر جامع الأموي بدمشق في يوم الجمعة حيث كان خطيبه الرسمي وأعلن الفتوى ، وشدد في الانكار على السلطان وفعلته المنكرة وخيانته الفظيعة للأمة الاسلامية . وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان اسماعيل وهو بمثابة الاعلان بنزع البيعة ورفع الولاء عن السلطان يومئذ وصار يدعو بدعاء منه : (اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياؤك وتذل فيه أعداؤك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك ...) .

والمصلون يضجون بالتأمين على دعائه ، ولم يكن السلطان حاضراً تلك الخطبة اذ كان خارج دمشق ، ولما أعلمه رجاله بذلك أمر بعزل الشيخ من خطبة الجمعة ، واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الانكار .

وكان أنصار الشيخ العز قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد السلطان ، وأعدوا له وسائل الهرب ، ولكنه رحمه الله تعالى أبى ذلك وألحوا عليه ، فأصر على الإباء ، فعرضوا عليه أن يختبىء في مكان أمين لا يهتدي اليه السلطان ورجاله، فرفض هذا العرض ايضاً وقال(والله لا أهرب ولا أختبىء وانما نحن في بداية الجهاد ، ولم نعمل شيئاً بعد . وقد وطنت نفسي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل . والله لا يضيع عمل الصابرين)[1].

---

(١) يراجع ص ١٠٠ والإسلام للاستاذ احمد بكثير .

(ثم لما قدم اسماعيل الى دمشق أفرج عنها بعد الاعتقال . ولكن العز أبي عبد السلام أمر بملازمة داره وأن لا يفتي ولا يجتمع بأحد البتة، فاستأذنه في صلاة الجمعة – مؤتماً بامامها – وأن يصير اليه طبيب او مزين (حلاق) اذا احتاج اليهما وأن يدخل الحمام فأذن له في ذلك) ..

ومرت الأيام ، والشيخ في إقامته الجبرية ، وقد منع من الافتاء والاتصال بأحد من اخوانه او طلابه ، وتعطلت هوايته المفضلة ، وواجبه المقدس – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – فطلب الهجرة من دمشق قاصداً مصر.

وأفرج عنه بعد محاورات ومراجعات ، فأقام بدمشق ثم انتزع منها الى بيت المقدس . فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق. وأخذه وأقام بنابلس مدة . وجرت له معه خطوب ثم انتقل الى بيت المقدس حيث أقام مدة . ثم جاء الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم الى بيت المقدس .. يقصدون الديار المصرية ، فسير الصالح اسماعيل بعض خواصه الى الشيخ بمنديله ، وقال له : تدفع منديلي الى الشيخ وتتلطف به غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعودة الى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك فتدخل به عليّ ، وإن خالفك فاعتقله في خيمته الى جانب خيمتي . فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ثم قال له: بينك وبين أن تعود الى مناصبك وما كنت عليه زيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير! فقال الشيخ والله يا مسكين ما أرضاه ان يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده . يا قوم أنتم في واد وأنا في واد . الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به . فقال الرسول : يا شيخ قد رسم لي ان توافق على ما يطلب منك ، وإلا اعتقلتك ، فقال الشيخ : افعلوا ما بدا لكم ، فأخذه واعتقله في خيمة الى جانب خيمة السلطان . وكان الشيخ يقرأ القرآن – في معتقله – والسلطان يسمعه . فقال يوماً لملوك الفرنج تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ فقالوا نعم . قال هذا اكبر قسوس

المسلمين ، قد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء الى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم !! فقالت له ملوك الفرنج : (لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها) .

تلك إجابة الفرنج الى السلطان الخائن التي كانت سهماً في قلبه وإنكاراً متضمناً لفعله ، والفضل ما شهدت بـه الأعداء . وذلك قول السلطان العبد لأسياده الفرنج يفتخر بخيانته !!.

ثم وقعت الحرب بين الأخوين وكانت الدولة والنصر للسلطـان نجم الدين ايوب على رغم قلة جيشه في العَدد والعُدد بالنسبة لجيش اسماعيل وخلفائه . وتلك عاقبة الخائنين ... في كل حين .

وبذلك نجا الشيخ من أسر السلطان الخائن ، ووصل الى مصر مكرمـاً معززاً ، وتولى فيها منصب قاضي القضاة .

وثالثة الأثافي من محنه تعرضه للقتـــل بسبب أمره ببيع أمراء الدولة في المزاد العلني .. ولكن الله تعالى حفظه وخذل خصومه .

.. كان لمماليك الأتراك نفوذفي الدولة الاسلامية في اواخر حكم العباسيين. وامتد نفوذهم حتى أصبحوا أمراء في الدولة ايام حكم نجم الدين ايوب في مصر وكان الشيخ العز قاضياً للقضاة فيها ، وقام رضوان الله عليه ، مصلحاً لأمر القضاء ، منفذاً بحزم أحكام الشرع لا تأخذه في ذلك لومـة لائم ، فنظر في حقيقة قضية اولئك الامراء التي أثارها هو ، ثم أصدر قضاءه الآتي :

قال السبكي[1] : (ذكر كائنـــة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك ... وهم جماعة ذكروا أن الشيخ لم يثبت عنـــده انهم أحرار وان حكم الرق

(١) ص ٨٤ جـ ٥ الطبقات .

مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين . فبلغهم ذلك : فعظم الخطب فيه ، واحتدم الأمر ، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً . وتعطلت مصالحهم بذلك . وكان من جملتهم نائب السلطنة فاشتاط غضباً ، واجتمعوا وأرسلوا اليه ، فقال : نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعي ، فرفعوا الأمر الى السلطان ، فبعث اليه فلم يرجع ، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة ، حاصلها الانكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر ، وانه لا يتعلق به . فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمير أخرى ، ومشى خلفهم من القاهرة قاصداً نحو الشام ، فلم يصل الى نحو نصف بريد ، حتى لحقه غالب المسلمين ، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه له يتخلف ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له متى راح ذهب ملكك فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه ، فرجع واتفقوا معهم على أن ينادى على الأمراء ، فأرسل نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه ، فانزعج النائب فقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ؟ والله لأضربنه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء الى بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده فطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، فعاد الى أبيه وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك ولا تغير وقال : يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ ان يدعو له ، وقال يا سيدي خير أي شيء تعمل ؟

قال أنادي عليكم وأبيعكم : قال ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين ، قال : من يقبضه ؟ قال: أنا ، فتم له ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً وغالى في ثمنهم ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير . وهذا لم يسمع قبله أحد ، رحمه الله ورضي عنه .

نعم لم يسمع بمثله ، ولم يقع شبيه له بعد ، فلله رجال ، وللاسلام أنصار وللمسلمين قادة هم العلماء ، وللقضاء قضاة يقيمون الحق ويحافظون على حدود الله ويقضون بالقسطاس المستقيم . لا يرهبون حاكماً ظالماً ولا يخشون سلطاناً جائراً . ولكن كيف نرى خلفاءهم وهم معظم قضاة اليوم يقضون بغير ما أنزل الله ... ويدعون أنهم مسلمون .

فيا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ...

ـ محنة ابن تيمية ـ

قال ابن الحريري: (إن لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن هو؟؟) [1].

تلك شهادة عدل هو قاضي القضاة ابن الحريري رحمه الله .

حقاً انه شيخ الاسلام ، لأنه رحمه الله تعالى ، كان جبلاً في العلم ، إماماً في الفقه ، فقه الكتاب والسنة ، مجاهداً بقلمه ولسانه ، سهماً سلطه الله تعالى على المبتدعين وأصحاب الأهواء ، فضلاً عن جهاده بنفسه وسنانه في حروب التتار والكسرويين .

وله القدح المعلى في تثبيت الأمة ايام البأساء والضراء وحين البأس ، وهو في مقدمتها للذود عن كرامتها وعزها ، كلما ادلهم الخطب ونزلت نازلة بالمسلمين .

يقول ابن سيد الناس [2] : (.. الى ان دب اليه اهل بلاده الحسد ، وأكب اهل النظر منهم بما ينتقد عليه لتبديعه سهاماً ، وزعموا انه خالف طريقتهم وفرق فريقهم ، فنازعهم ونازعوه ، وقاطع بعضهم وقاطعوه) .

---

(١) ص ٢١ حياة شيخ الاسلام ابن تيمية للشيخ محمد البيطار .
(٢) ص ٧١ جـ ١ فوات الوفيات .

وانتهت بـــه هذه المنازعات وتلك المقاطعات الى المحن الشداد ، تحملها صابراً مصابراً محتسباً .

وان قلنا في محنة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ان محنته الاولى كانت بسبب الاختلاف الفكري المشوب بالتعصب المذهبي المقيت ، فان جميع محن شيخ الاسلام كانت بنفس السبب مع اختلاف موضوعية الفكر والمعتقد .

والذي يهمنا من محن شيخ الاسلام هو ذكر مواطنها مع ايجاز اسبابها ، محتفظين برأينا الخاص في هذه الاسباب، لأن موضوعنا هنا ليس تحقيقاً فقهياً ولا دراسة كلامية عقائدية ، حتى نبين صحة الاسباب او خطأها .

إلا أن الذي نود ان نؤكده ثانية، هو ان هذه الأسباب القائمة على الخلاف الفقهي والعقائدي، لم تكن من اصول الشرع ولا من اركان العقيدة الاسلامية التي يكفر منكرها او منكر اصل منهـــا ، كما لم تكن من نصوص الشرع القطعية في ثبوتها ودلالتها ، التي لا اجتهاد فيها ولا خلاف .

ولما لم تكن كذلك ، فليس من التصرف الصحيح ، ان يستغلها المخالفون له في الرأي والاجتهاد ، فيغرروا بها قلوب الحكام ويكبروها عندهم بالقدر الذي أغضبهم ، فاستعملوا نفوذهم لإنزال المحن بالشيخ .

والمخالفون يعرفون ، كما يعرف غيرهم ، ان حكامهم يومئذ ليس لهم حظ كبير في العلم والفقه ، حتى يحكموهم في هذا الخلاف ، وانما الحكام هم جنود من الاتراك ، أهلتهم شجاعتهم وبسالتهم في الحروب ان يتولوا أمر المسلمين حيناً من الدهر .

ولكن المخالفين له ، لم يأخذوا بأقوال الأئمـة المأثورة عنهم ، ومن ذلك مثلاً: قولنا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب. وقولهم: اذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط . وقولهم : ڪل

رجل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة . ولم يسلكوا نهج هؤلاء الأئمة من اصحاب المذاهب الاسلامية رحمهم الله تعالى ، في خلافاتهم في المسائل الفقهية والأمور الكلامية مع بعضهم بل ومع اصحاب المذهب الواحد وانما سلكوا ، عفا الله عنهم ، مجتهدين ، غير هذا السبيل ، فوقعت المحن ، وذلك ما قرره شيخ الاسلام في مخالفيه ، فقال :

(ولا يخلو الرجل – اي من هؤلاء المخالفين – اما ان يكون مجتهداً او مخطئاً أو مذنباً ، فالأول مأجور مشكور ، والثاني مع اجره على الاجتهاد معفو عنه ، والثالث الله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين) .

ومن محنه رحمه الله تعالى ما نقله صاحب الكواكب الدرية : (.. انه في شهر ربيع الاول سنة ٦٩٨ وقع بدمشق محنة للشيخ الامام تقي الدين ابن تيمية وكان الشروع فيها من اول الشهر وكان سببها ترجيحه مذهب السلف في الصفات على مذهب المتكلمين) .

هذا هو السبب للمحنة الاولى ، أما مواطنها هي ورفيقاتها من المحن فقد ذكر المؤرخون لها [1].

انه رحمه الله تعالى ، بعد أن أجاب على سؤال ورد من حماه في مسائل العقيدة ، وذاع امرها بين الناس وقف بعض علماء الشام ، من ذلك : موقفاً غير حميد ، اذ اتصلوا بنائب السلطان في دمشق ، وحدثوه بسببها مستعظمين امرها ، حاكمين عليها بالزوغان ، ومخالفة ما عليها اجماع المسلمين ، فدعاهم شيخ الاسلام لعقد جلسة المناقشة بحضور (نائب السلطنة الاقدم . وظهوره –رحمه الله– عليهم بالحجة والبرهان ورجوعهم الى قوله طائعين ومكرهين).

---

(١) يراجع ص ٤٣ وما بعدها جـ ١٤ تاريخ ابن كثير .
وص ٧١ وما بعدها جـ ١ فوات الوفيات .

وقد تبع هذا المجلس ، واستدعاؤه من قبل السلطان في مصر ، لوصول انباء الخلاف اليه وسار رحمه الله في صحبة قاضي الشافعية عقد له مجلس حين وصوله بحضور القضاة واكابر الدولة .

وفي هـذا المجلس امتنع الشيخ من التحاكم الى زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية ، والسبب في ذلك ، ان ابن مخلوف جمع بين الادعاء والقضاء في هذه القضية . فقال الشيخ :

« من الحـاكم في ؟ فقيل له : القاضي المالكي ، فقال الشيخ : كيف تحكم في وانت خصمي ، فغضب غضباً شديداً وانزعج : وحبس الشيخ رحمـه الله تعـالى وال امره الى الحبس المعروف بالجب وشاركه في حبسه اخواه شرف الدين وزين الدين » .

نزل الشيخ في الحبس في شهر رمضان سنة ٧٠٥ ومكث فيه سنة ونصف السنة ، وفي خلال هـذه المدة ، حاول نائب السلطان في القاهرة ، ان يوفق بينه وبين المخالفين له ، لضغط الناس في الشام . الذين يعرفون للشيخ مكانته ومنزلته . ورجاه بحضور المجلس للمناقشة ، ولكن الشيخ امتنع ، وصحب بدله اخويه ، وانعقد المجلس للمناقشة واشتد فيه النقاش ، ولم يحصل الاتفاق ثم جاء الامير الشامي ، عيسى بن مهنا ، الى الشيخ في حبسه ، واقسم عليه ليخرجن وليذهبن معه الى دار نائب السلطان في القاهرة ، فخرج معـه ، وانعقد المجلس وحصلت المناقشة مـع الفقهاء ، وامتنع القضاة من الحضور ، وانتهى المجلس على خير ، فاوضح لهم معتقده ، مؤيداً ذلـك من الكتاب والسنة حسب فهمه لهما .

بقي الشيخ في مصر ، معلماً ومرشداً ، وقد صفح عن كل من اذاه قائلاً :

« لا احب أن ينتصر من احد بسبب كذبه عليّ ، او ظلمه او عدوانه ، فاني قـد احللت كل مسلم ، وأنا احب الخير لكل المسلمين ، واريد لكل

مؤمن من الخير ما اريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا هم في حل من جهتي) وبذلك انتهت هذه المحنة ، ولكن القضاء – قضاء الله تعالى – لا زال مخبئاً له محناً أخرى، وعليه ان يصبر ، لينال ثواب الصابرين ، وهكذا كان .

استمر الشيخ في دروسه وارشاده في القاهرة ، واستطاع أن يوجد له في هـذه الاقامة المؤقتة ، انصاراً ومريدين يحاكون رأيه ومعتقده ، وأخذ كعادته يبين رأيــه في مسائل الكلام ، ومدى مخالفة بعضها لعقيدة السلف التي يعتنقها ، وانتقد الشيخ محيي الدين بن عربي رحمــه الله تعالى في بعض افكاره، حتى ضج مخالفوه من اتباع ابن عربي ولم يتحملوا هذا النقد الفكري وحسبوا ذلك طعناً وتجريحاً للشيخ الاكبر ابن عربي ، فذهبوا بجموعهم الى دار السلطنة يشكون منه ، فأمر السلطان لحل هــذا النزاع ، بعقد مجلس للمناظرة (بدار العدل) .

فانعقد المجلس وحصلت المناقشة ، وخرج المخالفون منــه لا يلوون على شيء ، بعد نصرة الفقهاء له وسكوت القضاة عنه .

وليت الأمر انتهى بذلك ، ولكن استمرت (المنازعات والمقاطعات) حتى ضاقت الدولة ذرعاً ، وضجر السلطان ولم تجد الدولة وسيلة لحسم هـذه (المنازعات والمقاطعات) إلا أن تتجه نحو شيخ الاسلام .

فخير بين ثلاث . إما أن يخرج من القاهرة ذاهباً الى الشام مسقط رأسه، وإما الى الاسكندرية بشرط أن لا يثير مثل هذه المسائل ، ولا يتعرض بهـا بالنقد ، وإما العودة الى السجن ، فاختار السجن متمثلاً بقول الله تعـالى حكاية عن قول يوسف الصديق عليــه السلام : (السجن أحب اليّ مما يدعوني اليه) .

ولكن إلحاح طلابه ومريديه دفعـه الى الرضا بالذهاب الى الشام وقبول الشرط . فركب خيل البريد في اليوم الثامن عشر من شوال سنة ٧٠٧ هـ ،

وما ان سار مرحلة ، حتى جاءه أمر السلطان بالعودة الى القاهرة ، وهنـاك بلغه قاضي القضاة ، بأمر الحبس (قال بعضهم له : مـــا ترضى الدولة إلا بالحبس ، وقال : قاضي القضاة : وفيه مصلحة له) .

وطلب من شمس الدين التونسي المالكي ، أن يحكم ، فقال : ما ثبت عليه شيء ، ثم طلب من نور الدين الزواوي المـالكي ، فتوقف ولم يحر جواباً ، وهنا أنقذ الشيخ موقفهم ، وقال : أنا أمضي الى السجن ، واتبع المصلحة.. فأرسل الى حبس القضاة ، وأذن بأن يكون عنده من يخدمه) .

فأي مصلحة هذه سواء أكانت للدين او للمسلمين ، أن يحبس عالم ، وهو غير متهم لا في أمر ديني او دنيوي ؟؟. هل العلماء وجدوا في هذه الدنيا ، من أجل حمل الاسلام ونشر علومه بين الناس ، أم في السجن يرقدون ؟

وبسجن القضاة مكث سنة ونصف السنة ايضاً . ولكن هذا الحبس كان بمثابة إقامة جبرية ، سمح للفقهاء والعلماء أن يزوروه فيه . كما سمح للطلاب أن يأخذوا عنه . ولاعيان الدولة أن يستفتوه ، وبقي على هذا الحال حتى خرج من سجنه هذا ، بقرار من مجلس القضاة والفقهاء ، عقد في المدرسة الصالحية ، وألزموا به الدولة ، وبهذا تظهر قوة العلماء انهم إن اجتمعوا – في كل حين – على شيء وقرروا فيه رأياً نفذ ، وخضعت له الدولة مجبرة ، وإن خالف رأيها .

وعاد الشيخ الى دروسه وتعليمه ، وفي ذلك الوقت عزل السلطان الناصر ابن قلاوون نفسه ، وتولى عنه الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، وكان هـذا الملك مريداً للشيخ نصر المنجي ، وهو من اتباع الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى ، لذلك فقـد استطاع ان ينفي شيخ الاسلام الى الاسكندرية ، ولكنه سمح له هناك بالتدريس والافتاء ، وبقي في نفيه هذا ، حتى عاد الناصر بن قلاوون بعد سبعة أشهر الى حكم الشام والقاهرة . ومـا

ان وصل الى القـاهرة وجلس على دست الحكم في يوم مشهود ، هو يوم عيد الفطر المبارك ٧٠٩ هـ ، حتى فكر في أمر هذا الشيخ ، فاستدعاه في اليوم الثـاني من العيد مكرماً معززاً ، ولم يكتنف السلطان الناصر بهذا التكريم ، بل طلب منه الفتوى ، في من آذوه وأوردوه المهالك .

وهم بنفس الوقت قـد مالأوا خصمه في السلطان والحكم : ممـا أدى الى عزل نفسه .

وطلب منه أن يقول كلمته في القوم ، ومنهم ابن مخلوف المـالكي الذي أمر بحبسه الاول ، فأصدر شيخ الاسلام هـذه الفتوى في خصومه . (بأن دماءهم حرام عليه وانه لا يحل انزال الأذى بهم . فقال له السلطان انهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً . فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل . ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه وأنا لا انتصر لنفسي) .

ولم يكتنف الشيخ بهذا الحكم الذي ارضى الله ورسوله وجماعة المسلمين . بل شفع لهم طالباً العفو عنهم قائلاً للسلطان : « وإذا قتلت هؤلاء لا تجـد بعدهم مثلهم » .

وحين سمع ابن مخلوف المالكي ما قاله الشيخ فيهم قال : (ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر ، وقدر علينا ، فصفح وحاج عنا) .

لله درك رحمك الله وأرضاك . ولا غرابة في ذلك فقد كنت العالم التقي الذي يبتغي بعمله وجه الله والدار الآخرة .

وبهذا انتهت هذه المحنة ، ولكن بقي لها ذيول ، ومن ذيولهـا : أنه في اليوم الرابع من شهر رجب ٧١١ هـ (امتدت اليـه أيدي أثيمة بالضرب ، فتجمع أهالي الحسينية سكان محلة سيدنا الحسين رضي الله عنه بالقاهرة – وفيها محل سكناه ..) ليثأروا للشيخ ، فردهم ، فألحوا عليه فمنعهم قائلا : (إما

أن يكون الحق لي او لكم او لله ؟ فإن كان الحق لي فهم في حلّ مني. وان كان لكم فان لم تسمعوا مني ولم تستفتوني فافعلوا ما شئتم ؟؟ وان كان لله فالله يأخذ حقه إن شاء)

وعاد الشيخ الى دمشق ، ولكن عودته لها ، لم تكن للراحة والاستجمام في مصايف بلودان ودمر ، بعد ما اصابه من شدة وبأس في مصر وانما عاد اليها مجاهداً يحمل السيف وهو قد تجاوز الخمسين عاماً .

نعم عاد مجاهداً ، فقد صحبه السلطان الناصر وهو على رأس جيش المسلمين لملاقاة التتار ، وفي الطريق وصلت أنباء هذا الجيش المظفر الى التتار، فرجعوا خائبين لا يلوون على شيء .

قال ابن كثير (ثم ان الشيخ بعد وصوله الى دمشق ، واستقراره بها ، لم يزل ملازماً للاشتغال في سائر العلوم ، ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطلوبة ، والاجتهاد في الاحكام الشرعية . ففي بعض الاحكام يفتي بما أدى اليه اجتهاده ، من موافقة أئمة المذاهب الاربعة ، وفي بعضها يخالفهم[1] او يخالف المشهور في مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة).

وكان من جملة مخالفته للقول المشهور من اصحاب المذاهب الاربعة ، مسألة الحلف بالطلاق ، فهو رحمه الله يراه لا يقع الطلاق به ، ولا تنفصم به عقد الزوجية . وله دليله الشرعي في ذلك ، ولما أفتى بها وطار خبرها ، استنكر ذلك فقهاء المذاهب ، فاجتمع به قاضي القضاة واشار عليه بترك الافتاء بهذه المسألة فقبل الاشارة المتضمنة نصحه ، وما ان مرت الايام به ، حتى عاد الى الفتوى بها ووجد ان عموم البلوى يدفعه الى الجهر بها . ولما علم

---

(١) انه رحمه الله حين يخالفهم ، يعتذر عنهم باعذار مختلفة ، وهكذا شأن العالم الثبت ، يراجع في معرفة ذلك رسالته المسماة : (رفع الملام عن الائمة الاعلام) .

السلطان الناصر ، ان ابن تيمية عاد الى فتواه هذه ، كتب اليـه كتاباً في ١٩ رمضان ٧١٩ هـ يؤكد عليـــه اشارة قاضي القضاة ، ولكنه رحمه الله رفض هذه الاشارة ، رغم تأكيدات المنع واشارات القضاة ، عند ذاك قرر نائب السلطنة في دمشق حبسه في القلعة ، وبقي محبوساً فيهـــا خمسة اشهر وثمانية عشر يوماً . ولمـا يئس الجميع من رجوعه وامتناعه ، امر السلطان الناصر باطلاق سراحه ، وكان ذلك في ١٠ محرم الحرام ٧٢١ هـ ، وخرج من السجن ، متمسكاً بفتواه تلك .

وانتهت بهذا محنته هذه ، ولكن بقيت في انتظاره محن اخرى ، كانت هي الاخيرة والتي مات فيهـا . الفقهاء والقضاة من ذوي الشأن ، لم يتحملوا نقده ، كما لم يطيقوا صبراً على فتاويه ، فهو يفتي بما يراه صواباً وان خالف من خالف من الفقهاء والعلماء ، لأنه ينظر الى الدليـل الشرعي ، وقول الصحابة الكرام ، ويسوقه هذا النظر الى رأي معين يعتقد بصوابه فيعلنه بجرأة ، ولا يلزم الناس بما يقول من فتوى إذ ما كان قاضياً ، وانما كان مفتياً، يسأله السائل فيجيب ، ولا يملك اي فقيه او مجتهد مهما بلغ في العلم ، ان يلزم الناس بآرائه الاجتهادية ما دام الرأي معتمداً على نص ظني الدلالة والثبوت ، وهو يحمل اكثر من رأي واحد ، وانما الالزام يكون في الرأي الذي يعتمد عـلى نص قطعي الدلالة والثبوت ، ولا موضع للاجتهاد فيـه ، كما يكون الالزام فيما تتبناه الدولة من آراء وأحكام . وسار الشيخ على هذا النهج (ولم يزل كذلك الى ان ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحـال الى قبور الانبيـــاء والصالحين)[1] .

وكان قد اجاب به نحو عشرين سنة فشنعوا عليه بسبب ذلك .

---

(١) مات رحمه الله تعالى في سنة (٧٢٨) هـ وله من العمر ٦٧ سنة .

وكبرت القضية[1] وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ستة وعشرين (وسبعمائة) بجعله في القلعة (محبوساً) فأخليت له قاعة حسنة ، واجري اليها الماء ، وأقام فيها ومعه اخوه يخدمه ، وأقبل في هـذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب ، والرد على المخالفين وكتب على تفسير القرآن ..

وظهر بعض مـا كتبه واشتهر ، وآل الامر الى أن منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا مـا عنده من الكتب ولم يتركوا له دواة ولا قلماً وكتب عقيب ذلك بفحم يقول: ان اخراج الكتب من عنده من اعظم النقم.

ويحسن بنا أن نختم محنته بل محنه ، بذكر بعض مـا كتبه بالفحم وهي تصور نفسيته ، وتبرز شخصيته . معبرة عما يجول في خاطره في تلك المحنة التي كانت عليه من اعظم النقم).

يقول رحمه الله : « كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ، ان ربي لطيف لما يشاء ، انه هو القوي العزيز العليم الحكيم ، ولا يدخل على احد ضرر إلا من ذنوبه ، ما اصابك من حسنة فمن الله ومـا اصابك من سيئة فمن نفسك ، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال ، ويستغفر من ذنوبـه ، فالشكر يوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفع

---

(١) يرى شيخ الاسلام رحمه الله عـدم جواز ذلك للحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم . حيث قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تشد الرحال الا الى ثلاثـة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدي هذا) والذي عليـه جمهرة الفقهاء وهو الذي نعتقده صوابـاً ان شد الرحال الى زيارة قبور الانبياء والصالحين الزيارة الشرعية جائزة ولا تدخل في نهي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هذا وانما النهي منصب على شد الرحال الى غير هـذه المساجد الثلاثة بقصد الصلاة فقط لان الصلاة في المساجد كلها سوى المساجد الثلاثة المذكورة — ذات اجر واحد لا فضل لمسجد على آخر كما ثبت ذلك في الاحاديث الصحيحة ومن ذلـك قوله عليه الصلاة والسلام (صلاة في مسجدي هـذا افضل من الف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام . وصلاة في المسجد الحرام افضل من مائة الف صلاة في مسجدي) رواه الامام احمد وبهذا المعنى روى البخاري ومسلم .

النقم ، ولا يقضي اللـه للمرء من قضاء الا كان خـيراً له ، ان اصابته سراء شكر ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

مكث شيخ الاسلام بسجنه هـذا خمسة اشهر قاضياً ايامه الاخيرة ، في (التلاوة والعبادة والتهجد) .

فلازمه المرض عشرين يومـاً وفي اثنائها زاره وزير دمشق لعيادته (فلما جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يحلله مما عساه يكون قد وقع منه في حقه من تقصير ، فأجابه : « اني قد لحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم اني على الحق واحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه اياي لكونه فعل ذلك مقلداً معذوراً ولم يفعله لحظ نفسه ، وقد احللت كل احد مـا بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله ﷺ » .

وبهذا الصفح الجميل ، وبتلك النفس الصابرة ، انتقل الى جوار ربـه الكريم ، وقد روى عنه ابن القيم وهو رفيقه في الحبس ان آخر ما تلاه من القرآن العظيم وفاضت روحه : عند قوله تعالى : (ان المتقين في جنـات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) ..

ـ محنة السرهندي ـ

... تولى حكم الهند سنة ٩٦٣ هـ رجل من ملوك المغول من احفاد تيمور ، يدعى جلال الدين اكبر ، وما أن تربع على كرسيه ، حتى سام مسلمي الهند سوء العذاب ، اضطهد علماءهم ، وآذى رجالهم ، وضيق على عامتهم قتـلاً وتشريداً واعتقالاً ، وعاث في البلاد الفساد ؛ هذا حاله مع المسلمين ، اما مع الاسلام ، فقد اعلن الحرب عليه ، حرباً شعواء لا هوادة فيها ، مبتدئاً فسخ نبوة سيدنا محمد ﷺ ، مدعياً بأن عصر النبوة قد انتهى الى هـذا الالف

من الاعوام : وبدأ عصر الالف الثاني ، بإمامته العظمى ، وانــــه صاحب الكلمة ، لا يعصى في امر ، ولا يرد له حكم ، حسب (المحضر) الموقع عليه من رجالات الهند،ومن العلماء الذين زلت بهم القدم في هذه (الفتنة الاكبرية) ومن خالف أمره ، وأعرض عن حكمه ، كان السجن المؤبد، او القتل الزؤام جزاءه وعقابه ، فحرم ذبح البقر وكتابة التاريخ الهجري ، كما حرم تسمية رجالات قصره وأعوان حكمه بأسماء النبي ﷺ، وأباح ذلك لعبيده وخدمه، تحقيراً وامتهاناً للنبي الكريم ﷺ .

وحلل الخمر والقمار والخنزير والزواج من بنــات الهندوك الوثنين ، ثم لم يكتف بهـــذا الكفر الصريح ، بل شرّع ديانة جديدة ، وابتكر طقوساً وشعائر متعبداً وآمراً بها .

فكانت صلاته على طريقة براهمة الهند، مولياً وجهه شطر الشمس، ومثل هذا الكفر والزيغ والالحاد كثير وكثير .. حتى وقعت الامة الاسلامية بهذا القطر العزيز ، بمحن ونكبات ومصائب جمة يتشقق منها القلب ويضيق عنها نطاق النطق، وألحقها من الاضطهاد ما لم تره البشرية في تاريخها ، إلا في عهد التتار والمغول .

في هذا الواقع الاليم، الذي يعج بالكفر والالحاد والاضطهاد،عاش الشيخ احمد بن عبد الاحد الفاروقي السرهندي رحمه الله تعالى (١) .

ورأى تلك الحالة وهو في زهرة شبابه ، ولمس هذا الشر المستطير ، وهو في مرحلة طلبه للعلم .

وما ان تخرج عالماً ، اصبح في عداد المشائخ : الذين يتأثر الناس بكلامهم

---

(١) ولد رحمه الله سنة ٩٧١ هـ ، اقرأ ترجمته في نزهة الخواطر ، طبع دائرة المعــارف ، حيدر اباد .

ويستمعون الى ارشادهم ، عرضت له اسنى المناصب في هذه الدولة ، فرفضها بآباء وشمم ، لأنها خسة ومهانة . وما كان لمثله ان يشارك في تثبيت هـذه الدولة الكافرة، ويوطد اركان حكمها الفاسد، وانما دعوته -- دعوة الاسلام -- بجرأة وشجاعة ، انـه يريد تقويم حكام هذه الدولة ، والقضـاء على الدولة وإزاحتها من الوجود ، لتحل محلهـا دولة الاسلام ، تحفظ الشرع ، وتقيم الحدود ، ويرعى ابنـاء الامة على اساسه ، لا يرضى بذلك بديلاً ، ولا يقبل عن الاسلام تحويلاً . ولقد تم له ما اراد -- الحمد لله -- وحقق ما عزم عليه ، مستلهماً التوفيق من الله وطالباً النصر منه : (وكان حقـاً علينا نصر المؤمنين) .

ولكن هل يحصل له ما يريد ؟ وهل يحقق مـا عزم عليه ، دون محنة واضطهاد ؟ فلننتظر ..

استمر الشيخ رحمه الله تعالى ، بدعوته التي أوقف نفسه عليها ، وهكذا شأن العلماء الرجال، فأخذ يجمع الناس على ما عزم عليه ، فاستجاب له خلق كثير ، فكثر اتباعه ومريدوه ، فازداد ، رحمة الله عليه ، همـة ونشاطاً ، لا يعرف السأم والملل ، وفي تلك الاثناء ، هلك هـذا الطاغية الجبار الملحد سنة ١٠١٤ هـ وانتهت بهلاكه فكرة الإمامة العظمى المزعومة ، وخلفه ابنه جهان كير .

أما الشيخ فانتبه للأمر ، وأخذ له عدة،واتخذ من اصلاح الحاكم الجديد، نقطة ابتداء ، فبصلاح الحاكم وصلاح العلماء من امثال شيخنا الكريم ، تصلح البلاد ، ويصلح النـاس ، وتلك نظرة مقررة في الشرع ، ولذلك قـال رحمه الله :

« ان الملك -- الجديد -- قد افسده المفسدون فثار على الدين وانحرف عن الجادة ، ولكن ليس هو الدولة كلها ، وليس هو الشعب كله ، وقد كتب عليه الموت ، وهو خاضع للسنن الإلهية ، فيموت ويخلفه غيره ، فلا بـد ان

اؤدي رسالتي وأتصل ببلاطه وأركان دولته ، ولا موجب للقنوط من الفطرة الانسانية، فالصلاح فيها اصيل، والفساد عليها طارىء ، فلاجرب ولأحاول، وإن الله ناصر من نصره ، وخاذل من خذله [1] » .

بتلك الروح العالية وبهذا الفهم الصحيح ، اخذ يتصل ويكاتب (امراء الجيش ورؤساء الدوائر الحكومية ، ممن آنس فيهم رشداً ، ينبههم من نوم الغفلة ، ويلفت انظارهم الى ما اتت به الفتنة الكبرية ، من مصيبة وبلاء للدين الحق ، وما جرته من وبال على المسلمين[2]) .

ولنقرأ رسالته الى قائد (من قواد الجيش الركن الأعظم للدولة في عهد جهان كير – خانخانان – .. ان ميدان البطولة الاسلامية لا يزال خالياً ينتظر فارساً من فرسان الاسلام. فهل تسبق الى هذه السعادة ، وتحرز قصب السبق ، وتنصر هذا الدين المظلوم ، وتغضب لهذا الحق المهضوم ، وتبلغ بجهادك الى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمون القائمون . فمهلاً يا اهل الغيرة والفتوة ويا اهل الشهامة والمروءة [3]) .

وما ان سمع رجال حاشية الملك جهان كير ، بتلك الرسائل ، حتى اخذتهم العزة بالاثم ، ورأوا في وجود الشيخ رحمه الله خطراً عليهم وان اتصالاته المريبة يخشى منها على الدولة ، وعلى الملك نفسه ، فأوغروا صدر الملك عليه وهمسوا في اذنه ، خطر دعوة الشيخ واتصالاته ، وأشاروا عليه – كائدين – ان يطلبه الى البلاط ، ويمتحنه بذلك تكون المحنة ... وبهذا يقضي عليه وعلى دعوته : تلك هي المكيدة . وهذه هي المؤامرة .

---

(١) مجلة المسلمون ص ٦٢٥ و ٦٢٧ . مقال للاستاذ ابن الحسن الندوي .

(٢) ص ٢٤ نظرة اجمالية في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند والباكستان . للاستاذ مسعود الندوي .

(٣) مجلة المسلمون ص ٦٢٥ و ٦٢٧ . مقال للاستاذ ابن الحسن الندوي .

لأن رجال الحاشية الملكية ، وجلاوزة الملك ، يعرفون حقـــا ، صلابة الشيخ في ايمانه وقوة عوده في يقينه ، وجرأته في مخالفته لما عليه الملك في احواله الخاصة والعامة ، فلا تلين له قناة ، ولا يجامل أحداً ، ملكاً كان او مملوكاً ، راعياً ام رعية ، وسوف لا يسجد للملك عنـد المقابلة ، كما يقتضي العرف الديبلوماسي المقيت ، وان سأله الملك ، فستكون اجوبته جريئـــة صريحة ، ولن ترضي الملك ، فتقع المحنة ، ويصيبه شررها من اضطهاد ونحوه .

وافق الملك على اشارة رجـــال حاشيته ، واستدعى الشيخ الى قصره وبلاطه فاستجاب الشيخ ، ولكنه رحمه الله كما قال الكائدون ، عندما دخل قصره ، نبهه الى السجود ، فامتنع : ودخل مسلماً بتحية الاسلام ، فاستشاط غيظاً وغضبـاً وقام هائجـــاً . وسأل منكراً ما هذا ؟ اخرجوه ، وأمر باعتقاله في الحال . وأخذ مخفوراً ، وطرح في سجن حصن كواليار في قلب مدينة الهند .

لبث الشيخ في السجن بضع سنين يشتغل بالعبادة ويدعو المسجونين معـه الى الاسلام . فأسلم على يـده كما جـاء في دائرة المعـــارف الاسلامية مئات المسجونين (١) .

(وصار الجناة من السارقين وقطاع الطريق ، يؤدون العبادة ويسجدون للحيّ القيوم سبحانه وتعـالى ، وأصبحوا يأتمرون بأوامر الشيخ ، وظهرت عليهم الصفـــات الخلقية الكريمة . فتنبه لذلك مـــدير السجن ، وكتب الى الملك رسالة خاصة يخبره فيهـا ان المحبوس الشيخ السرهندي ، ليس من شأنه ان يحبس ، وإنمـــا هو ملك قلما ينجب الدهر مثله ، فان رأى الملك اطلقنا سراحه وأكرمناه بما يستحقه ، فندم الملك على ما ظهر منه من بوادر الشدة في شأن الشيخ ، وأمر باحضاره الى مقر المملكة ، ولما بلغه خبر دنوه

---

(١) المصدر السابق للاستاذ ابن الحسن الندوي .

من العاصمة ، بعث الأمير (خوم) ولي عهد المملكة .. لاستقباله والترحيب بقدمه[1]) ..

كل ذلك فعل لأنه تحرى أخبار الشيخ بنفسه ودرس حياته ، فوجد به العالم العامل والشيخ الصادق ، فأخذ يكسب وده ، ويتقرب اليه .

عاد الشيخ منصوراً ، فقد أدى واجبه في السجن ، وهـــا هو يؤدي واجبه الشرعي عند الملك .

دخل الشيخ عليـه ، وأعاد التحية بالسلام : فرد الملك التحية وتلقـاه بالترحاب .. والاعتذار ..

كان يوم هذه المقابلة في ليـلة رمضان المبارك ، وأبى الملك إلا أن يضيف الشيخ عنده في هذا الشهر الكريم . ورجاه ان يسمعه ما يدور في خاطره ، وأن يحدثه عما يريد ، وان يخبره بحقيقة دعوته ، فاستجاب الشيخ مستبشراً بذلك ، فهذا يوم طالما تمناه ..

قضى الشيخ شهر رمضان في ضيافة الملك ، وفي بلاطه ، محدثـاً إياه عن الاسلام وعدله ، شارحاً له واقع الخلفاء ، والصالحين الذين تولوا حكم المسلمين. وقد وهبه الله صدقاً في اللهجة وحسناً في التعبير ، وسلامة في العرض والملك ينصت له ، فبدأ الصلاة خلفه ، وأقام صلاة التراويح ، وأخذت أصداء آيات القرآن الكريم تجلجل في رحـــاب القصر ، وعاش الملك في جو روحي عبق ، حتى استطاع الشيخ بفضل الله وتوفيقه ان يغير قلب الملك وفكره . فأحب الاسلام واعتقد به ، وأعلن ذلك للأمة بمرسوم أصدره يحمل الأوامر التالية :

١ ــ تحريم السجود للملك .
٢ ــ الإذن بذبح البقر .
٣ ــ تعيين القضاة ورجال الحسبة في كل بلد .

---

(١) ص ٢٥ النظرة الاجمالية للاستاذ مسعود الندوي .

٤ – إعادة بناء المساجد المهدمة .
٥ – إبطال القوانين المعارضة للشريعة الاسلامية (١) .

وهكذا أخذ الولد الصالح المؤمن ينقض ما أبرمه الوالد الكافر الفاسد ، حسب قول الشيخ وأمره ، ولقد صدق من قال :

ان الملوك لتحكم على الورى   وعلى الملوك لتحكم العلماء

استأذن الشيخ الملك الصالح ، بالرجوع الى بلده فأذن له معززاً مكرماً، فعاد الشيخ الى زاويته بسرهند ، مستمراً على النصح والارشاد ، يعلم أتباعه ومريديه ، وليحملوا رسالته ، وليواصلوا من ارتقاء سلم الكمال بالدولة نحو الإسلام ، بعد ان تركها الشيخ في وضع حسن ، أمن المسلمون فيها على دينهم وزال عنهم ما أصابهم من هم وغم ، ومحن واضطهاد .

وقد حمل الشيخ أمانة الاسلام ، في حمل دعوته وتحكيم شرعه في أعناق خلفائه وأولاده الذين تولوا الامر بعده . مات الشيخ وعمره عمر نبيه ﷺ راضياً مرضياً وسيكون ان شاء الله معه في جنة الخلد : والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله لمع المتقين .

خاتمة الفصل

لم تعقم الأمة الاسلامية ، وهي الودود الولود ، من إنجاب علماء عاملين ، او شخصيات اسلامية، جمعوا بين العلم الغزير والرجولة الحقة، بعد اولئك الذين امتحنوا في دينهم، وعذبوا من اجل اسلامهم، الذين أحبوا الموت في سبيل الله، كما أحب غيرهم الحياة ، من علماء السلف الصالح رضوان الله عليهم ، بل لم يضن الله سبحانه وتعالى ، وهو الجواد الكريم ، على عباده المؤمنين ، بأن جعل منهم

---

(١) ص ٢٥ المصدر السابق .
مات رحمه الله سنة ١٠٣٤ ، وله من العمر ٦٣ عاماً .

صفوة طيبة ، من اهـل العلم والمعرفة في كل حين ، تنذر وتبشر ، وترشد وتعلم ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، تمنع الظلم ، وتنصر المظلومين ، وتبين طريق الفلاح والنجاح ، طريق الاسلام المستقيم ، سالكة درب اولئك العلماء الرجال ، في طريق حمل الدعوة الاسلامية ، وتحكيم شرع الله في كل علاقات المجتمع ، علاقـات الدولة ، وعلاقات الافراد والجماعـات ، محاسبين الحكام ناصحين الرعاة ، واقفين بشجاعة بوجـه الكافر المستعمر ، وعملائه واذنابـه ، من حكام الظلم والسوء ، من الذين فرطوا في جنب الاسلام ، وساموا امته عذاب الهون .

واني حين ذكرت محن اولئك السادة العلماء ، من أئمـة الدين ، ومشايخ الاسلام ، لم اقصد بذلك حصرها فيهم ، ووقوفها عند حدهم ، وانما قصدت الاستشهاد والتمثيل ، للعبرة والاتعاظ ... فقـد تتابعت المحن تترى ، نازلة بالعلماء ، على اختلاف نوعية تلك المحن ، في كل عصر : وفي كل مصر ، مـن ارض الاسلام المباركة ، وستبقى المحن تنزل بالعلماء الرجال ، مـا دام هناك حكام تركوا الحكم بما انزل الله . وتضيق صدورهم في المطالبة بـه ، وحمل الدعوة اليه ، وما دام هناك علماء يؤدون واجبهم الشرعي ، وينطبق عليهم وصف العلماء الذين يريدهم الاسلام .

العلماء في سجون الحكام

رب السجن احب إلي مما يدعونني اليه .

— قرآن كريم —

... من سنّة الله تعالى في خلقه : ان يقع النزاع بين الفجور والتقوى ، وان تكون الغلبة للتقوى في نفس من هدى الله ، والخسران للفجور في نفس من أضل الله . ولذلك ومنذ القدم كان ولا يزال التنازع يقع بين الخير والشر والعدل والظلم والحق والباطل ، فمنذ ان عصى ابليس أمر ربه في السجود لآدم ، بدأ الشر المتمثل بإبليس يتنازع مع الخير المتمثل في أمر الله تعالى ، ولكن مهما طال النزاع واشتد ، ومهما كسب الشر من نصر ، فالبقاء للخير لأنه الاصلح ، ولأن سنة الخالق العظيم قضت بذلك :

(وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً) (١) (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) (٢) ، اي فلولا رفع الله بعض الناس عن المنكرات والمعاصي بسبب البعض لفسدت الارض .

ولا ريب ان الدافعين هم العلماء والفقهاء القائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وان امر الله هو الحق والعدل والخير ، وان هوى ابليس هو الباطل والظلم والشر ، ومن اتبع هوى ابليس كان من جنده وأنصاره وعبيده ، لذلك وقع النزاع بين العلماء والحكام : وقع النزاع بين من يحمل أمر الله وبين من يتركه وراء ظهره، وكلما اشتد النزاع ثبت العلماء والسائرون

---

(١) آية ٨١ سورة الاسراء .

(٢) آية ٢٥١ سورة البقرة .

على هديهم، وتفنن الحكام الظالمون في وسائل الكيد بهم، لإخماد صوت الحق والخير والعدل وابتدعوا مختلف الوسائل لتحقيق مـــا يريدون، ومن ذلك فرض الاقامة الجبرية او سجنهم او نفيهم او الحكم عليهم بالموت.

وان استطاع الحكام ان يحبسوا أجسام العلمـاء فان قلوب تلك الاجسام وعقولها، كانت منطلقة تعرج تارة وتحط اخرى في ساحات التفكر ومواطن التأمل، ولم وان يستطيع الحكام ان يعرقلوا عروجها او ينكبوا سيرها، مهما أوتوا من براعة وخبث في ثقل القيود والاصفاد.

اذن فلتكن السجون للعلماء، ما داموا يحملون قلوبها خاشعة لرب العالمين، وعقولاً مفكرة في آلاء الله ونعمه. وأعظم تلك النعم على الاطلاق -الدين- الاسلام الشريعة، التي يحملون رايتها.

أمـا العلماء فقد كانوا يتلقون تلك الاوامر الجائرة بصـدر رحب راضين بقضاء الله تعالى، صابرين على هذه المحن وتلك الابتلاءات التي ترفع درجاتهم نحو الفردوس الاعلى، او تمحوا لهم سيئاتهم:

(يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وَانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور) [1].

ان تلك السجون كانت للعلمـــاء عملية صهر وسبك خرجوا كالكبريت الاحمر. ولنقرأ جميعاً قول سلطان العلماء العز بن عبد السلام وهو يتلقى امر الحكم، حين بلغه بـــه الوزير بالاقامة الجبرية في داره، وان لا يفتي ولا يجتمع بأحد.

(يا غرز ان هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ، الموجبة للشكر على الدوام، اما الفتيا فقد كنت والله متبرماً بهـا وأكرهها، واعتقد ان المفتي

---

(١) آية ١٧ سورة لقمان.

على شفير جهنم ، ولولا اعتقادي ان الله اوجبها عليّ في هذا الزمان لما كنت تلوثت بها ، والآن قد عذرني الحق ، وسقط عني الوجوب ، وتخلصت ذمتي، ولله الحمد والمنة ، واما ترك اجتماعي بالناس ولزومي البيت ، فما انا في بيتي الآن ، وانما انا في بستان ومن سعادتي لزوم بيتي ، وتفرغي لعبادة ربي ، والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطيئته ، واشتغل بطاعة الله تعالى ، وهذا تسليك من الحق وهدية من الله إلي ، اجراها على يد السلطان وهو غضبان ، وأنا بها فرحان ، والله يا غرز لو كانت عندي خلعة تصلح لك هذه الرسالة ، المتضمنة لهذه البشارة ، لخلعت عليك ، ونحن على الفتوح ، خذ هذه السجادة وصلّ عليها فقبلها وقبّلها) (١) .

ثم لنقرأ ايضاً قول شيخ الاسلام ابن تيمية ، حين ورد الأمر بسجنه في قلعة دمشق ، بعد ان اظهر السرور ، (اني كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير عظيم ، ما يصنع اعدائي بي أنا جنتي ، وبستاني في صدري ، اين رحت فهي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة واخراجي من بلدي سياحة) ولما دخل القلعة متوجهاً الى السجن الخاص به . ورأى اسوارها ، قال مستشهداً ومتمثلاً بقول الله تعالى .

(فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) (٢) .

تلك من اجوبة العلماء الرجال . حين يستلمون اوامر الحكام الظالمين ، وهي اجوبة يكفي ذكرها بدون تعليق : وهي تعبر عن نفسياتهم عند الشدائد والمحن .

---

(١) ص ٨٠ ج ٥ طبقات السبكي .

(٢) ص ٣٦ حياة شيخ الاسلام للاستاذ البيطار نقلاً عن صاحب الكواكب الدرية .

ان هؤلاء السادة رحمهم الله تعالى: كانوا اذا حلوا ضيوفاً في قلاع السجون او جدران البيت جبراً عنهم ، فانهم يقضون ايامهم . وينهون مدة محكومياتهم بالعبادة والتأليف ، حيث ان معظم الحكام ، كانوا يقتصرون بعقوبة العلماء على حبس اجسامهم ، فيكون الفكر طليقاً والعقل حراً ، يقرأ ويؤلف ، إلا أن هناك حكاماً كانوا لا يكتفون بحبس الاجساد ، بل يزيدون ظلماً واضطهاداً ، بالضرب المبرح والتعذيب الشديد كما حدث للامام احمد بن حنبل وامثاله .

فيحبس العقل مع الجسم ، وانما يكون التأليف والقراءة ، لأمثال هؤلاء ، وهم مكبلون بالحديد والسلاسل او يتقلبون تحت السياط ، او يعالجون الجروح !!

اننا نجد اولئك الذين حلوا في سجون الحكام ، كانوا يؤلفون ويكتبون بافق فكري عال ، وفي ارتقاء وسمو فجاءت مؤلفاتهم قيمة ، وكتاباتهم جليلة ، كما كانت نفسياتهم صافية عالية ، في الاتجاه الى الله تعالى . وحسن عبادته ، أما وعظ الذين معهم وارشادهم ، فقد كانت على درجة عظيمة من الإهتمام والرعاية .

ومن هنا كانت سجون الحكام للعلماء نعمة وخيراً كثيراً ، سيقت اليهم ، وان فاتهم هذا وذاك ، فانه لم يفتهم ذكر الله في نفوسهم تضرعاً وخفية ، حيث ان قلوبهم مستغرقة بالاتجاه الى العلي الاعلى ، لطلب عفوه ورضاه ، وذلك الخير العميم ، الذي لا يبلغ شأوه الكثيرون .

وها اني اذكر وقائع من احوال العلماء في سجون الحكام .

هذا فقيه جليل من فقهاء السادة الحنفية ، شمس الائمة السرخسي (املى كتابه المبسوط في الفقه وهو المطبوع بثلاثين مجلداً وهو في السجن (باوزجند) اذ كان محبوساً في الجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان وكان يملي من خاطره

من غير مطالعة في كتاب وهو في الجب وتلاميذه في اعلى الجب . وقال عند فراغه من شرح العبادات . هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات املاه المحبوس عن الجمع والجماعات .. وقال في آخر شرح الاقرار . انتهى شرح الاقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الاسرار، باملاء المحبوس في مجلس الاشرار ، وله كتاب في اصول الفقه وشرح السير الكبير املاه وهو في الجب ولما وصل الى باب الشروط حصل له الفرج) [1] .

وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية : فانه لما حل في سجن القلعة الذي مات فيه (اقبل على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين، وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة ، تشتمل على نفائس جليلة ، وهو ما ظهر له من بعد في تفسير القرآن العظيم ، وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الامر الى ان منع من الكتابة والمطالعة واخرجوا ما عنده من الكتب ، فصار يكتب بأعقاب الخشب التي صارت الى الفحم) [2] .

قال ابن قيم الجوزية ، وهو الذي حبس مع شيخ الاسلام بسجن القلعة ، قال لي مرة – يعني شيخ الاسلام – المحبوس مَن حبَس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسر هواه، وسمعته يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . وهذا الامام الفقيه ابن رشد ، فإنه لم يمتنع عن التأليف حتى في اثناء نكبته التي عوقب فيها ، وهو في اقصى درجات الشيخوخة ألف في حبسه كتابه الشهير « المنطق » [3] .

وهذا القاضي بكبار بن قتيبة (لما اختلف مع اصحاب احمد بن طولون في ولاية العهد وأراد حبسه ، استأجر له داراً ، وحبسه فيها ، وكان فيها

---

(١) ص ١٥٨ الفوائد البهية في تراجم الحنفية .
(٢) تذكرة الحفاظ لابن عبد الهادي ذكر هذا البيطار من حياة شيخ الاسلام ص ٤١ .
(٣) ص ٢٧٤ ابن القفطي .

طاق (نافذة) يجلس يتحدث فيها ، ويكتب عنه وهو في السجن) [1].

وهذا الامام الاعظم ابو حنيفة : عندما أدخل السجن بعد ان ضرب بالسياط بين أيدي أبي جعفر المنصور ، وابن هبيرة ، كانت أمه تزوره في السجن .

وفي يوم قالت له (يا نعمان ان علما ما افادك غير الضرب والحبس لحقيق بك ان تنفر عنه – فأجابها – يا امه لو أردت الدنيا لوصلت اليها ، ولكني أردت ان يعلم الله اني صنت العلم ولم اعرض نفسي فيه للهلكة [2]) .

وهذا ابن نجيم ... وهذا ابن القيم ، وهذا وهذا فكلهم في سجون الحكام يقضون مدة محكومياتهم في التأليف والعبادة . تلك امثلة حية ، من احوال العلماء في سجون الحكام . وهي تعبر عن الروح القوي الذي يتقمصها السادة العلماء كما تصور العقلية الاسلامية السامية ، التي كانوا يتصفون بها ، وتبرز النفسية الاسلامية الرائعة التي كانوا يعيشون بها ، حتى كانوا شخصيات اسلامية ممتازة . يشار اليها بالبنان ويقتدي بها جميع المسلمين .

وبقيت هذه الاحوال وأمثالها واقعة على من بعدهم من العلماء في كل العصور والأمكنة . ولم يخل من ذلك عهد ولا حصر حتى اليوم ..

---

(١) ص ٥١٤ رفع الاصور وص ١٩١ ابو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام .

(٢) ص ١٨٥ المصدر السابق .

.. ارايت يا اخي كيف عد ابو حنيفة طلب الدنيا بالعلم انه هو التهلكة ، فتأمل .

العلماء والجهاد

افضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله .

— حديث شريف —

لقد فهم العلماء الجهاد ، بأنه الدعوة الى الاسلام ، والقتـــال في سبيل الله تعالى .

فكان الجهاد بذلك حرباً هجومياً على كل من يقف حجر عثرة في سبيل نشر الاسلام في العالم،وعلى كل من يحول دون سيادة الشرع الاسلامي الحنيف في الارض .

قال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين[1]) .

وهنا يحسن بنا بيان معنى الآية الكريمـة ، وتوضيح مفهوم الجهـــاد ، معتمدين على العلماء انفسهم في تفاسيرهم الجليلة .

حين امر الاسلام بقتال الأعداء ، ممن كانوا خارج دولته ، وليس بينهم وبين الدولة الاسلامية ، ميثاق ولا معـاهدة بقوله تعالى (وقاتلوهم) فـانه امر ان يسبق هذا القتال ، دعوة هؤلاء الاعداء ، للدخول في دين الاسلام ، دعوة تعطيهم فكرة عامة وواضحة عن هـــذا الدين ، وعن حياتهم الـــتي سيعيشونها بظله وتحت رايته،فان هم استجابوا وصاروا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

---

(١) الآية ١٩٣ البقرة .

وان لم يستجيبوا لدعوة الاسلام والدخول فيه ، دعوا الى اعطاء الجزية ، وهي ضريبة مالية تؤخذ من القادرين عليها ممن بلغوا الحلم من الرجال دون النساء (وهي مقابل الزكاة التي تؤخذ من المسلمين) مع ضمان حق القيام بعباداتهم ، وإجراء عليهم كل ما يتعلق بأحوالهم الخاصة ، من مطعومات ومشروبات ومن طلاق وزواج وميراث ، وهي التي تسمى اليوم (بالأحوال الشخصية) حسب دينهم ، ولا يكرهون على الدخول في دين الاسلام استجابة لأمر الله تعالى : (لا اكراه في الدين) [١] .

ولهم في هذه الحالة ، من حقوق إقامة العدل والانصاف والرعاية ، كالمسلمين ، لقوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرّوهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) [٢] .

كل ذلك مقابل ان يرضوا بحكم الاسلام ، وان يستظلوا تحت رايته ، ويحملوا التابعية للدولة الاسلامية ، اما اذا لم يستجيبوا لهذه الدعوة ايضاً ، فأبوا الرضا بسلطان الاسلام وحكمه ، فان الله تعالى أمر بقتلهم ، قتالاً اشترط فيه ، ان لا يتخلله غدر ولا إفناء ، ولا تدمير او تخريب ، كما ليس فيه قتل لمن لم يقاتل من المدنيين ، ولا يد له في تعويق نشر الاسلام وعرقلة سيادة الشرع ، كالنساء والاطفال والعجزة ، مع إطعام اسراهم ، وعدم تعذيبهم ، فكان القصد من هذا القتال (حتى لا تكون فتنة) والفتنة لها معان متعددة منها التعذيب والاضطهاد ، ومنها الصد عن الدين والاعراض عن الاسلام ، ومنها الفساد والمنكر والإضلال والشرك ، ونحو ذلك ، وكل هذه المعاني ، لها سند من الكتاب الكريم والسنة المطهرة .

---

(١) الآية ٢٥٦ البقرة .
(٢) الآية ٨ الممتحنة .

أما معنى الفتنة في هذه الآية الكريمة ، فانهـــا تعني الكفر والاشراك ، ويوضح هذا المعنى ، سياق الآية الكريمة ، فلنعد الى قراءتها ثانية : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان على الظالمين) .

وحين امر سبحانه وتعالى بقتال هؤلاء الكفار والمشركين حتى لا يكون كفر او اشراك (فتنـــة) في الارض فانه أمر بقتـــال هؤلاء لقصد ثان وهو أن (يكون الدين لله) من اجل ان يسود الاسلام العالم وتعم كلمته الارض.

وبعبارة اخرى، كما يقول الرازي في تفسيره (وقاتلوهم حتى يزول الكفر ويثبت الاسلام... وهو نظير قوله تعالى (ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون) [1] .

اما قوله تعـــالى : (فان انتهوا) فالمعنى فان انتهوا عن الكفر فأصبحوا مسلمين او تمسكوا بـــدين غير دين الاسلام . ولكنهم رضوا بسلطان الاسلام وخضعوا لدولته ، فلا يجوز قتالهم .

ومعنى الانتهاء هنا مثل قوله تعـــالى : (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف[2]) اما قوله تعالى : (فلا عدوان إلا على الظالمين) .

فالمعني ان انتهوا عن ذلك – كما مر – فلا قتال إلا على الذين لا ينتهون عن الكفر : ولا يقبلون بسلطان الاسلام ، وإصرارهم على هذا الامتناع وعدم الانتهاء هو الظلم لأنفسهم ، كما قال تعالى : (ان اشرك لظلم عظيم) .

وقد سمى الله تعالى هذا القتال – وهو قتال حق – عدونا لأنه كان جزاء العدوان ، فصح اطلاق اسم العدوان عليه، وهو كقوله تعالى (وجزاء سيئة

---

(١) الآية ١٠ الفتح .

(٢) الآية ٣٨ الانفال .

سيئة مثلها [1]) وقوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم [2])

ويؤيد هذا المعنى لهذه الآية الكريمة: آيات الله تعالى العديدة ، وأحاديث الرسول الاعظم ﷺ المستفيضة ، التي دعت الى الجهاد وبينت غايته ومقصده السامي النبيل ، ويؤكده ايضاً عمل الرسول الأعظم وعمل خلفائه ، الذين تولوا الحكم والسلطان بعده .

أما الآيات الكريمة ، فمنها قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[3])

وقوله : (انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) [4] . وقوله : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) [5] .

أما الاحاديث النبوية فمنها قوله ﷺ : (امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) . وقوله : (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله ، فان قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله[6]) .

---

(١) الآية ٤٠ الشوري .
(٢) الآية ١٩٤ البقرة .
(٣) الآية ٢٩ التوبة .
(٤) الآية ٤١ التوبة .
(٥) الآية ١٠ الصف .
(٦) رواه البخاري ومسلم .

وأما عمله ﷺ فقـــد قضى حياته في المدينـــة المنورة ثلاث عشرة سنة مجاهداً ، يقاتل الكفار والمشركين . حتى تم له فتح الجزيرة العربية ومـــا جاورها استجابة لأمر الله تعالى (يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير[1]) .

وأما عمل الخلفاء المسلمين،او نقول عمل الدولة الاسلامية التي تولى رئاستها الخلفاء ، فان الجهاد والفتح للبلدان امتد الى ثلثي العالم .

وان جهادهم هذا مـــا كان الا تنفيذاً لمـــا عليهم من واجب وهو تبليغ الاسلام للناس اجمعين ، على وجـــه يلفت الانظار ، وذلك بتطبيق احكام الاسلام على سكان البلدان المفتوحة ، ونشر أفكاره بين صفوف اهلهـــا لأن عقيدة الاسلام عقيدة عالميـــة ، إذ هي عقيـــدة لكل انسان ، ولأن نظام الاسلام ، نظام عالمي ، وهو نظام لكل انسان ، بغض النظر عن القوميـــة واللغة والبلاد . (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين[2]) .

وقال تعالى: (وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)[3]. لذلك لم تكن الفتوحات الاسلامية ، القائمة على الجهـــاد ، من اجل استغلال الشعوب واستعمارها ، ولا من اجل نهب خيرات البلاد واستثمارهـــا كما يصور الكافر المستعمر ، ويزعم المضبوعون بثقافته الاستعمارية الخبيثة .

وإنما كان الجهاد وفتوحاته من اجل شيء واحد وواحد فقط ، هو حمل الدعوة الاسلامية وإنقاذ شعوب العالم من حياة الشقاء والتعاسة . واخراجهم من الظلم والظلمـــات التي يعيشونها بسبب فساد انظمتهم وضلال أفكارهم ، وخطأ عقيدتهم ، إخراجهم من ذلك كله ، الى نور الاسلام ، وضياء القرآن،

---

(١) الآية ٧٣ التوبة .
(٢) الآية ١٠٧ الانبياء .
(٣) الاية ٢٨ سبأ .

وإلى العبادة الكاملة والطمأنينة الحقة ، من تطبيق نظام الاسلام ، ونشر عقيدته الصافية النقية .

تلك آيات الله تعالى : وأحاديث رسوله ﷺ ، وعمله والخلفاء ، والذين جاءوا بعده ، بينت الغاية من الجهاد ، والقصد من الفتوحات ، من انها لإعلاء كلمة الله في الارض ، وحمل الدعوة الى الاسلام ، ورفع راية التوحيد في العالم خفاقة بالنصر المبين .

فلما فهم العلماء ذلك ، وأدركوه ، بل وعلموه ، وقاموا بهذا الجهاد المقدس وهم يعرفون انه فرض كفاية : اذا أتمه البعض سقط عن الباقين ، ومن أولى من العلماء في القيام بأفضل الاعمال ، وأجل القربات ، وأعظم الطاعات وأكرم العبادات وهو الجهاد في سبيل الله ؟.

بل من أولى منهم لنوال الشهادة في الجهاد ، والشهيد كما يعلمون من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وله درجة تدنو من درجة الانبياء والمرسلين ، بل هو معهم في جنات النعيم .

أما اذا هاجم العدو بلاد المسلمين ، او احتل ارضهم ، فإن الجهاد يصبح فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، من القادرين على حمل السلاح ومقاتلة العدو ، والعلماء في مقدمتهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم . وتلك شواهد محسوسة ، من قيام العلماء بالجهاد المقدس ، بنوعيه العيني والكفائي ، ضاربين صفحاً عن ذكر علماء الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، لأنهم جميعاً مجاهدون ، وقد جاهدوا في سبيل الله بدون استثناء ، حتى وصل الينا هذا الدين العظيم عن طريق جهادهم المبرور .

أما علماء التابعين وعلماء العصور التي تلتهم ، فنمسك عن ذكر اولئك الذين جاهدوا بأموالهم ، او الذين حرضوا على الجهاد بلسانهم ، فلسنا نريد شاهداً من ذلك .

وانما نقتصر على اولئك الذين حملوا السيف ، وخاضوا ميدان المعارك الحربية ، وهم بين الأسنة والرماح وتحت ظلال السيوف ، وبين صهيل الخيل وقعقعة اللجم ، او مرابطين على الثغور في القيظ والريح والبرد الشديد ، ساهرين على حماية ثغور المسلمين ، حارسين عليها ، وقد جمعوا بين الأفضلين العلم والجهاد .. وهؤلاء بلغوا من الكثرة حداً لا يحصرهم العد ، ويكفينا أن نذكر بعضهم ، لأننا لا نريد تسجيل فهرست بأسمائهم لأن ذلك يطول ، ولا يحصل المقصود ، ولذا يكفينا ان نضرب المثل لبعضهم : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ..

ـ عبد الله المبارك ـ

فهذا الامام الجليل كان يحج سنة ويجاهد أخرى ، حتى انه مات بعد انصرافه من الجهاد فتوفي في هيت في رمضان سنة ١٨١ هـ .

قال الحسن بن الربيع : (خرج فارس من المسلمين ملثم فقتل فارساً من العدو كان قد فعل بالمسلمين ، فكبر له المسلمون ، فدخل في غمار الناس ولم يعرفه أحد فتتبعته حتى سألته بالله ان يرفع لثامه فعرفته . وقلت : أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم ، الذي يسره الله على يدك ؟. فقال: الذي فعلت له لا يخفى عليه [١]) .

وخرج من الشرك فارس ، فانتدب له : فاذا وقعت الصلاة فسأله التنحي وصلى ركعتين [٢] . فلما ذهب اليه ، قال الفارس المشرك حتى أصلي أنا :

---

(١) ما اروع هذه الكلمة وما اعظمها وما اجدرها بالكتابة والتعليق . ليعلم اولئك الذين شغفهم حب الظهور وما دروا انه قاصم للظهور ..

(٢) لما كان الجهاد من السفر لذا فان الصلاة الرباعية فيه تصلى ركعتين . وهي الصلاة المعروفة بصلاة المسافر .

وجعل يصلي الى الشمس ، فلما خر ساجداً ، قال ابن المبارك هممت ان أغدر به فإذا قائل أسمعه (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا) ، فتركت الغدر، فلما قال لي — الفارس المشرك — لِمَ تحركت ؟ قلت أردت الغدر بك ، قال فلم تركته ؟

قلت لاني امرت بتركه : قال : الذي امرك بترك الغدر امرني بالايمان والتحق بصف المسلمين) [1] .

يقول ابن خلكان عن هـذا الامام الجليل . (هو الحافظ شيخ الاسلام المجاهد . التاجر . صاحب التصانيف والرحلات . جمـع الحديث والفقه والعربية وايام العرب والشجاعة والسخاء .. وله كتاب في الجهـاد وهو اول من صنف فيه) داعياً له بحماس لذلك يقول في الدعوة الى الجهاد :

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا ... لعلمت انك في العبادة تلعب
او كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الاطيب
ولقـد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبـار خيل الله في ... أنف أمرىء ودخان نار تلتهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

— محمد بن ادريس الشافعي —

وهـذا الامام الفقيه المجتهد العظيم (لمـا قدم مصر سافر الى الاسكندرية ليرابط بثغرها وبقي سبعة ايام ووجهه الى البحر في مراقبة الخطر) [2] .

---

(١) النور السافر ذكره صاحب من اخلاق العلماء .

(٢) ص ٢٤٥ من اخلاق العلماء .

وكيف لا يرابط في ثغور المسلمين هـــذا الامام الجليل وهو يعلم قول نبيه ﷺ .

(عينان لا تمسها النار عـــين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله)[1] . وقوله (كل ميت يختم على عمـله إلا المرابط في سبيل الله فانه ينمى له عمله الى يوم القيامة ويؤمن فتنة القبر)[2] .

ــ اسماعيل بن محمد البخاري ــ

وهذا امام الحديث : يحدثنا عنه صاحبه في الثغر الحربي المسمى بـ (فربر)

(كان البخاري يقضي الليل في التيقظ لجمـع الحديث واصلاة السحر . ثم قلت له يوماً : انك تحمل نفسك كل هذا ولا توقظني ؟ فأجابني : انت شاب فلا احب ان افسد عليك نومك .

وفي يوم كان البخاري قد تعب في تصنيف كتاب التفسير . فاستلقى على قفاه فقلت له : سمعتك تقول يوماً : اني مـا اتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت . فاي علم بهذا الاستلقاء . فأجابني : اتعبنا انفسنا في هذا اليوم .

وهذا ثغر من الثغور خشيت ان يحدث حدث من امر العدو ، فأحببت أن أستريح واخذ اهبه لذلك . فاذا غاصنا العدو كان بنا حراك)[3] .

ــ احمد بن تيمية ــ

وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية . فان حوادث جهاده كثيرة . فقد كان العالم المجاهد الذي جمع بين السيف والقلم ومن حوادث جهاده :

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) رواه احمد والترمذي .

(٣) ص ١٤ جـ ٢ تاريخ بغداد .

ان التتار حين جاءوا بجموعهم الى الشام سنة ٧٠٢ هـ ارجف المرجفون ، وخرجت القلوب من جنوبها ، حيث استمدت الجيوش من مصر والشام لملاقاة تلك الجموع، وقد اخذ دعاة الهزيمة والتردد ينشرون الفزع في القلوب، اما ابن تيمية فكان يثبت القلوب ويعدهم بالنصر والغلبة، تالياً عليهم قول الله تعالى : (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور)[١] .

حتى انه كان يحلف بالله : انكم لمنصورون ، فيقول بعض الامراء له : قل ان شاء الله ، فيقول : اقولها تحقيقاً لا تعليقاً ، فاطمأنت القلوب وسكنت النفوس ، ولكن دعاة الهزيمة أتوا الناس من ناحية اخرى متذرعين بقولهم : كيف نقاتل المسلمين ؟؟ ان ذلك ليس بجائز شرعاً . يقولون هذا الزعم وكأنهم مهاجمون وليسوا مدافعين. عندئذ تقدم ابن تيمية مبيناً بجرأة الحقيقة الشرعية في هذا القتال والمقاتلين . فيقول : هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية ، ورأوا انهم أحق بالأمر منهما .

وهؤلاء يزعمون انهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والمظالم ، وهم متلبسون بما هو اعظم منه بأضعاف مضاعفة .

ثم قال مصرحاً : (اذا رأيتموني في ذلك الجانب – اي مع التتار – وعلى رأسي مصحف فاقتلوني)[٢]،فتحركت القلوب وثارت نخوتها الاسلامية،

---

(١) ٦١ سورة الحج .
(٢) هذا هو الفقه ولب المعرفة:فما يغني المصحف في الراس او على الراس اذ لم يمنع صاحبه عن محارم الله ولم يوقفه عند حدوده ويدفع جوارحه الى خدمة دينه .
وقديماً حورب الخوارج وكانت قراءتهم للقرآن الكريم لها دوي كدوي النحل ولكن لم تتجاوز حناجرهم .

ثم امتطى ، رحمه الله تعـالى ، صهوة جواده وخرج الى ميدان القتال محارباً ومحرضاً، فما كان لمثله ان يدعو الى الثبات في الجهاد،وهو ينكص على عقبيه، بل يتقدم الجموع لينـال الشهادة في سبيل اعزاز كلمة الدين وراية الاسلام . وذهب الى (مرج الصفر) وهو قريب من دمشق وابتدأت الموقعـة الحربية التي تسمت في التاريخ بوقعة (مشقجب) وذلك في شهر رمضان سنة ٧٠٢ ﻫ وتلاقى الجمعان . ووقف العالِم المجاهد موقف الموت ، مقاتـلا ، وهو يثبت القلوب من حوله بقتاله وفعاله، وقد اجتمع بالسلطان قبل الموقعة ، يحثه على الجهاد والقتال ورد المعتدين الآثمين ، حيث بلغه ان السلطان متردد في القتال فما كان من السلطان إلا ان تحمس وطلب منه ان يقف بجـانبه في المعركة . فقال شيخ الاسلام : (السنـّة ان يقف الرجل تحت راية قومه ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معه) .

وقد حث الجند وأمراءهم على الافطار ليتقووا على القتال ، وكان يروي لهم قول النبي ﷺ للصحابة الكرام في غزوة الفتح : (انكم ملاقو العـدو والفطر اقوى لكم) .

وكان رحمه الله يدور على الاجناد يأكل معهم من شيء معـه ، ليبين أن افطارهم افضل ليقووا به على القتال .

ووقعت الواقعة واشتد القتال، واشترك فيه ابن تيمية ووقف هو وأخوه موقف الموت، وأبلوا بلاء حسناً ، وصدق اهل الشام وجند مصر ما عاهدوا الله عليـه ، فاستمر القتال طوال اليوم الرابع من رمضان ، حتى اذا جـاء العصر أذن الله تعالى بالنصر، فظهر جند مصر والشام ، وانحسر جند التتار، فلجأوا الى اقتحام الجبـال والتلال ، وجند السلطان النـاصر ، او بالأحرى جند ابن تيمية ، وراءهم يضربون أقفيتهم ، ويرمونهم عن قوس واحدة حتى انبلج الفجر ، ونادى المنادي: الله اكبر، حي على الصلاة . وبذلك الاعلان ، انكشفت الغمـة ، وزال خطر التتار ، فكانت هزيمة منكرة ، منوا فيهـا

بالخسران المبين، ولم تقم لهم بعدها قائمة ، فأمن الشرق والغرب عاديتهم[1] .

ــ القاضي اسد بن الفرات ــ

وهذا القاضي الشيخ اسد بن الفرات . قاد جيشاً عظيماً لفتح صقلية . فخرج على رأس الجيش في ربيع ٢١٢ هـ وكان يوماً مشهوداً . حيث خرج وجوه اهل البلد يشيعونه . لم يبقَ احد من رجال الدولة إلا شيعه .

ولما ركب هذا العالم المجاهد . وسار في حفل عظيم من الناس . تحفه حملة الاعلام والسيوف. قال وهو في هذا الموضع منوهاً بفضل العلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ، ما ولي لي اب ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما ترون إلا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكابروا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

ثم ركب البحر سنة ٢١٢ هـ ونزل في مدينة (فأزر) من بلاد صقلية ، والتقى الجمعان ، فحمل المسلمون على اعدائهم : حملة شعواء . وهو على رأس النفيضة ، يحرض المؤمنين على القتال قولاً وفعلاً ، فدارت الدائرة على جيش الروم . ودك حصوناً واستولى عليها : وحاصر (سركوسة) وفي اثناء الحصار . اصيب بجراحات بالغة سال منها الدم على اللواء الذي يحمله حتى فاضت روحه الى ربها راضية مرضية .

وحين رأى الجنود استشهاه قائدهم استبسلوا مجاهدين الروم . حتى ارغموهم على الهروب لا يلوون على شيء ، وكتب زيادة الله والي افريقية الى الخليفة المأمون : بأن الله تعالى اتم فتح صقلية على يد القاضي اسد بن الفرات.

---

(١) اعتمدنا في هذه الاخبار كلها البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٤ ص ١٥ وكتاب ابن تيمية لابي زهرة او ابن تيمية للشيخ عبد العزيز المراغي ص ٨ .

ـــ احمد بن عرفان[1] ـــ

تتابعت الاخبار من مقاطعة (بنجاب) في الهند . بان السيك اضطهدوا المسلمين شر اضطهاد وتفننوا في تضييق الحياة على اتباع الاسلام، فتجاسروا على هتك اعراضهم ، وقتل الابرياء منهم ، والفتك بالشيوخ والعجزة . وتجرأوا على تعطيل الشعائر الدينية ، فاغلقوا المساجد . كل ذلـــك حدث لضعف الحكومة المغولية واشتداد وطـــأة السيك حيث تولوا الامر في (بنجاب) وما جاورها .

وصلت اخبـــار الاضطهاد الى مسامع السيد احمد بن عرفان : فاستشاط غيظاً . وأبدى ألمـــاً وحزناً . فجمع اصحابه واتباعه ومريديه . فحدثهم بتلك الاخبار المؤلمة التي اصابت اخوانهم المسلمين في (بنجاب) ودعاهم الى الجهاد ، فاستجابوا لدعوته . واعلن الزحف نحو البنجاب. فتحرك المجاهدون زرافـــات ووحداناً الى الحدود الشمالية الغربية حتى استقروا هنـــاك ، حيث جعلوها قاعـــدة حربية لهم ، ومركزاً لدعوتهم . وهناك بايع العلمـــاء وفيهم الشيخ عبد الحي ختن الشاه عبد العزيز والشيخ اسماعيل بن عبد الغني ابن ولي الله بايعوا السيد احمد بالامارة وتبعهم المجاهدون . (وكان ذلـــك في جمادى الآخرة يوم ١٢ من سنة ١٢٤٢ هـ وبدأت المناوشات ونشبت المعارك . واضطرمت نيران الحرب ، وتتابعت زهـــاء اربع سنوات ، كان النصر فيها حليف المجاهدين بقيادة السيد احمد على قلة عددهم وعددهم . حتى استولوا على مدينة بشاور العظيمة فاعلنوا فيها حكم الاسلام. وطبقوا الشريعة السمحة عليها وعلى القرى المجاورة لها .

وقـــد ازداد المجاهدون مهابة واجلالاً في عيون الاعداء ، وفرح المسلمون

اعتمدنا في كتابة هذا الموقف على مجلة الجزيرة السعودية .

(١) ولد الامام احمد بن عرفان في الهند سنة ١٢٠١ هـ وتربى في بيت من بيوتات العلم .

وعظم رجاؤهم بهذا النصر العظيم حيث سيكون فاتحة امـــل بعود الاسلام ثانية الى ربوع الهند .

ولكن مما يتألم القلب لسماعه .. ما كان من مقاومة علماء السوء وغـــدر رؤساء العشائر وفتكهم بالابرياء وتوددهم الى اعـداء الاسلام – عند ذاك – غادر السيد – احمد – ومن معـه من المجاهدين الى الحدود الشمالية الغربية ، وقصدوا بلاد (كشمير) وأرادوا اللجوء الى جبالها وكهوفها،الى ان(استمرت معركة شديـدة ، بين الفريقين في طريقهم اليها في (بالاكوت) – موضع بين كشمير والحدود الشمالية الغربية –استشهد فيها الامامان المجاهدان،السيد احمد ابن عرفان والشيخ اسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله ، وذلك في يوم الجمعة ٢٤ من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ رحمهما الله تعالى) .

— عز الدين القسام —

كان الشيخ القسام رحمه الله تعالى ، إمامـاً وخطيباً لجامع الاستقلال في مدينة حيفا بفلسطين . وقد عرف رحمـــه الله بشجاعته وصلابته في الحق وتفانيه في خدمـــة الاسلام ، وحين رأى حالة المسلمين في بلاده ، وسيطرة الكفار المستعمرين الانكليز عليهم ، وهم الذين يوالون اليهود ويمدونهم بالسلاح والعتاد ، اختار جماعة من اخوانه المؤمنين ، وأخـذ يدربهم سراً على حمل السلاح ، وينفث فيهم روح المصابرة على جهاد الاعداء ، حتى استطاع رحمه الله ان يكوّن منهم كتيبة .

(ولما رأى وعلم حاكم لواء حيفـا وهو من الانكليز بمـا يفعله الشيخ ، أرسل اليه وقال له : يا شيخ انك متحرك وذو نشاط مناوىء لنـا ، فرد عليه قائلا ، بعد ان اخرج المصحف الشريف من جيب جبته ، هذا الكتاب العظيم يأمرنا بالجهاد ولا نخالفه ، ثم ان الشيخ اعلن الجهاد عن طريق الفتك

بالانكليز ، فخرج هو يقود كتيبته يترصدون العدو ، فقتل افراداً منهم في مدينة بيسان . ثم سار بمن نجا حتى وصل احراش يعبد بالقرب من مدينة جنين . فاتخذها مقراً له، وفي ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٥ م استشهد احد افراد الكتيبة عندما كان يراقب الطريق ، وفي فجر اليوم التالي طوقت قوات بريطانية ضخمة ، تلك الاحراش تساعدها طائرات استكشافية وبعد قتال استمر حتى العاشرة صباحاً انتهت المعركة باستشهاد الشيخ القسام وأربعة من كتيبته وأسر الباقون . وقد قتل جندي بريطاني وجرح اثنان جراحاً بالغة(١) . (فأصدرت السلطة بلاغاً بالحادث نعتت به الشيخ القسام وصحبه بالاشقياء . ورغم خطورة الموقف وارهاب الانكليز استطاع المسلمون ان يشيعوا المجاهدين الشهداء باحتفال عظيم ، جرت في اثنائه مع قوة بريطانية مناوشة ، ادت الى ارتدادها وتحطيم نوافذ دائرة البوليس وأبوابها . وقد هز هذا الحادث البلاد هزاً عنيفاً فيصح اعتباره مقدمة لثورة ١٩٣٦ م (٢) .

استمر الجهاد بمده ... ودخلت الجيوش ... الثانية المعروفة . ولم يترك بعض العلماء الجهاد (٣) ، ولكن كانت النتيجة المخزية...بإنشاء دولة اسرائيل لتكون رأس جسر للاستعمار ، ثم حولت قضية هذا الوطن المقدس ، من قضية اسلامية بين المسلمين جميعاً ، وبين اليهود ومعهم الكافر المستعمر الى قضية محلية بين العرب واليهود ، ثم انتقلت من قضية سياسية عسكرية الى قضية لاجئين وحدود وتعويضات .

مع ان هذه القضية في الحقيقة والواقع ، قضية المسلمين اجمع والنزاع فيها

---

(١) موجز ما حدثني به الاخ الشيخ علي محمد الحانوتي من علماء فلسطين ونزيل بغداد اليوم . اعاده الله واخوانه اليها في تمام النصر وكمال الغلبة .

(٢) (٩٧) (٩٨) القضية الفلسطينية اكرم زعيتر .

(٣) منهم الشهيد الشيخ حسن البنـا والشهيد الشيخ محمد فرغلي وغيرهما من حملة الاسلام وحاملي لواء الشريعة الغراء راجع ـ المقاومة السرية لكامل الشريف .

نزاع بين حق المسلمين وباطل اليهود ومعهم الاستعمار ، وفي مقدمته امريكا وبريطانيا ، وانها قضية سياسية عسكرية ، وليس لها الا حل واحد . هو النزول للجولة الثانية ، والعودة الى مواصلة القتال ولو كلف تحرير هذا الوطن المقدس من رجس الكفار والمستعمرين ، استشهاد ملايين المسلمين . لأن هذا جهاد في سبيل الله ، وهو فرض على جميع المسلمين .

ـ عبد القادر الجزائري ـ

تبوأ الشيخ عبد القادر بن الشيخ محي الدين الحسني اكبر مركز بين العلماء في المغرب ، فقد كان رحمه الله فقيهاً ذا عبقرية اسلامية فذة .

.. وفي السنة الثانية من احتلال الكفار المستعمرين الفرنسيين لأرض الجزائر سنة ١٣٤٨ هـ اجتمع علماء الجزائر وأصحاب الكلمة فيها . وأبدوا الرأي في مسجد مدينة مسكر. وبايعوا الشيخ عبدالقادر على الامارة والجهاد لتحرير ارض الجزائر من الغاصبين المعتدين ، وإقامة الشرع الاسلامي الحنيف في البلاد ، فأنشأ رحمه الله حكومة اسلامية، برئاسته ، لتحقيق هذه الغاية .

وحين علم الكافر المستعمر الفرنسي، بظهور الشيخ عبد القادر وحكومته الاسلامية ، تملكه الفزع والهلع . فشن حرباً هجومية مسعورة ، للقضاء على كل استعداد عسكري لها . ولإبادة المجاهدين وحكومتهم ، إلا ان الشيخ عبد القادر ، رد هذا الهجوم ، بشكل عنيف جداً ، مما أرغمهم على بقائه ، معتصماً في داخل الحصون والقلاع .

ولما عجز الجنرال (دي ميشال) (ولم يتمكن من فك الحصار المضروب حول رجاله في وهران وستغانم ، وكادت الجيوش المجاهدة ، تسحق القوات الاستعمارية داخل الحصون ، لو لم يمل القائد الفرنسي الى المراوغة ، فأرسل

الى الامير الشيخ عبد القادر ، يطلب منه التماس الصلح من فرنسا ودس بين سطور رسالته عبارات التهديد والتخويف ، بقوة فرنسا الهائلة التي تعد اكبر قوة في العالم) [1] .

ولكن الشيخ عبد القادر أجابه إجابة القائد المؤمن ، الواثق بنصر الله ، الفاهم للاسلام العالم بأحكام الشرع المتعلقة بالجهاد ومقاتلة الكفار .

فقال رحمه الله تعالى : (ان ديننا يمنعنا من طلب الصلح ابتداء ، ويسمح لنا بقبوله اذا عرض علينا .. وإن المفاوضة التي تطلبونها يجب ان تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم ..) .

والشيخ بقوله هذا يشير الى قوله تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) ، ثم استطرد الامير الشيخ قائلاً في جوابه : (كيف تفاخرون بقوة فرنسا ولا تقدرون القوة الاسلامية ، مع ان القرون الماضية أعدل شاهد على قوة المسلمين وانتصاراتهم على اعدائهم . ونحن وإن كنا ضعفاء على زعمكم ، فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو لا شريك له . ولا ندعي بأن الظفر مكتوب لنا دائماً ، بل نعلم ان الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا . غير ان الموت سر لنا وليس لنا ثقة إلا بالله وحده لا شريك له . لا بعَدد ولا بعُدد وان دوي الرصاص وصهيل الخيل في الحرب لآذاننا خير من الصوت الرخيم [2] . ثم يتحدى الجنرال دي‌ميشال وقواته قائلاً (متى خرجتم من وهران مسافة يوم او يومين يظهر للعيان من يستحق الفخر بنا) [2].

تلك إجابة العالم المجاهد ؟ فكان جوابه كالصاعقة التي أذهلت هذا القائد الكافر الغر النزق ..

---

(١) ص٥٥ و ٥٦ الثورة الجزائرية للاستاذ احمد الخطيب .

(٢) ص ١٠٩ وما بعدها . الاسلام في القرن التاسع عشر ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي .

إن هذا العالم الرجل ، ليس من اولئك الرؤساء الذين تخور أعصابهم للتهديد والوعيد . كما لم يكن من اولئك الذين يتربعون على كراسي الحكم شهوة للحكم . فاذا هُددوا وأُنذروا ركعوا وخروا ساجدين .. متمرغين على الأعتاب ، بل على الأقدام ، في سبيل المحافظة على تلك الكراسي الزائفة والزائلة . عند ذاك ، أعلن الشيخ الجهاد ، فاستجاب لندائه الأبرار من جند الرحمن وأنصار الاسلام ، وحزب الله ، على جند الكفر وأنصار الاستعمار وحزب الشيطان ، فدام جهاده المبارك هذا سبعة عشر عاماً ، وكان هذا الاعلان الخالد أول شرارة لاشعال نار الحرب المقدسة ضد الباغين المعتدين ، فدخل المعارك الحربية ، وكانت سجالاً بين الفئتين يوم لنا ويوم علينا، ثم استمر العلماء المجاهدون من اهل الجزائر، كلما استشهد عالم قام آخر وأخذ العلماء يتولون القيادة في الجهاد ، من الشيخ بومعزي الى الشيخ بو بغلة الى الشيخ الحداد الى الشيخ محمد المقراني الى الشيخ ابي عمامة ، وهكذا حتى استلم راية الجهاد قادة جبهة التحرير الجزائري ، وكانت نهاية هذا الجهاد على الشكل القائم اليوم في ارض الجزائر المسلمة .

ـــ الشيخ محمد المهدي ـــ

... أقرت بلاد السودان الدعوة الاسلامية التي يقود لواءها الشيخ محمد ابن عبد الله المهدي ، وهو الفقيه بأحكام الاسلام ، الشيخ المربي في الطريقة السمانية[1] المنتشرة يومئذ في القطر السوداني حيث اخذت هذه الدعوة تسري بين الناس ، وقد انضوى تحت لواء دعوته جمهرة كبيرة من المسلمين .

---

(١) الطرق الصوفية حقيقتها مدارس اسلامية لتربية المريدين تربية شرعية عملية ، يقوم بها فقهاء عالمون يعملون بما علموا ، يدل على ذلك قول شيخ الطائفة الجنيد رحمه الله .
(طريقتنا مقيده بالكتاب والسنة) فكانت تجمع بين الفقه والعمل ، وعلى تربية الروحية والفقه باحكام الاسلام .

ان الشيخ رحمه الله تعالى حين رأى تسلط الكفار المستعمرين الانكليز على مصر والسودان ، اصدر فتواه المشهورة باعلان الجهاد ضدهم ، وكان ذلك سنة ١٨٨١ م ، اما الانكليز فقد سيروا جيشاً عظيماً تعداده عشرة آلاف مقاتل (بقيادة هيكس باشا الى السودان ، فاشتبك مع قوات المهدي في البركة الواقعة على نحو سبعة وثلاثين ميلاً من جنوب شرقي الابيض .

وكان النصر في هذه المعركة للشيخ المهدي ، اذ استطاع ان يبيد هذه القوات عن بكرة ابيها . واستمرت انتصارات الشيخ في مقاتلة القوات البريطانية ، مما جعل السودان كله يخضع لسلطان الشيخ ، وقد اضطرت بريطانيا العظمى ان تستسلم بعد تلك الحروب .

وكانت الحكومة البريطانية قد استعدت للتنازل نهائياً عن السودان وبعثت بالجنرال غوردن قامع ثورة (تايينج) في الصين ، الى الخرطوم لكي ينقذ الاوربيين الذين ما انفكوا يعيشون هناك ويعود بهم الى مصر .

وفي الحال بعث هذا القائد بكتاب الى المهدي ، ليبدي فيه استعداده للاعتراف به سلطاناً على كردفان ... فأجابه المهدي طالباً اليه الاستسلام .

وبعد ذلك اي في سنة ١٨٨٤ م ، تقدم جيش بريطاني في النيل وهزم قوات المهدي المعسكرة في المراكز الامامية عند المتحة ، ولكن ام درمان استسلمت في ١٥ كانون الثاني ١٨٨٥ م ، وفي ليل ٢٥ - ٢٦ كانون الثاني شن المهدي على رأس اتباعه هجوماً عنيفاً على المدينة وقتل غوردن في قصره .

انتقل المهدي وحكومته الى الخرطوم بعد ان خضعت السودان له ، وبذلك حرر هذا العالِم المجاهد بلاده من رجز الكفر والاستعمار حتى توفاه الله تعالى على أثر مرض في سنة ١٨٨٥ م .

رحم الله المهدي واجزل ثوابه وأنعم عليه برضوانه .

ـــ السيد احمد الشريف السنوسي ـــ

الامام احمد بن السيد محمد السنوسي من المشايخ الاربعة الكبار للطريقة السنوسية الذين تولوا امرها بالتعاقب ، ونشروا تعاليمها القائمة على الكتاب والسنة .

فكانت مدرسة تعلم المسلمين الجهاد ، والتجرد لله سبحانه وتعالى ، وعدم الركون الى الدنيا والشجاعة في الحق وقد اندفع اتباعها بتوجيه من مشايخها، يجاهدون الكفرة المستعمرين بقلوب امتلأت ايماناً ، وبجرأة قل نظيرها ، وبنظام دقيق وهو بعض ما تعلموه في زواياهم المبثوثة هنا وهناك .

والسيد احمد كما يقول شكيب ارسلان . (حبر جليل وسيد غطريف واستاذ كبير ، من انبل الناس جلالة قدر وسراوة حال ، ورجاحة عقل قاتل الايطاليين اذ انضم الى الدولة العثمانية فحمل لواء الجهاد وحده وسارت برقة وطرابلس تحت لوائه [1] .

وهو من قادة المجاهدين والعلماء العاملين ، قد أوقف نفسه لنشر الاسلام ولعادة مجده وسلطانه . ووقف في وجه الكافر المستعمر الفرنسي احدى عشرة سنة من ١٩٠٢ م الى ١٩١٣ م والكافر المستعمر الايطالي ما يزيد على السبع سنين .

لقد عرف عن السيد المجاهد ، المصابرة على الجهاد ، والاستماتة في مقاتلة الاعداء ، فهو في الوقت الذي كان يجمع الجموع للجهاد ويحرضهم على القتال مبيناً فضله وعظيم اجره وجزيل ثوابه ، كان يقود المجاهدين في ساحات الوغى . ومن ذلك :

---

(١) ص ١٣٢ جـ ١ الاعلام للزركلي .

قاد السيد الجليل رحمه الله المجاهدين في الموقعة المعروفة يوم الجمعة التي حدثت من يوم ١٦ ايار ١٩١٣ م قرب درنة ، فأبلى السيد والمجاهدون بلاء حسناً ، وكانت الدولة والنصرة من نصيب السيد المجاهد المصابر (بحيث اعتقد الكثيرون ان النصر جاء كرامة لوجود السيد) (١) .

نصرهم الله تعالى في هذه الموقعة والمواقع الاخرى ، في الوقت الذي كان سلاحهم السيف وامثاله وهو المعروف بالسلاح الابيض . اما سلاح الاعداء فالمدافع والرصاص مع تفاوت كبير في العدد والعدد بين الفئتين ، ولكن صدق الله تعالى حيث يقول (كم فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين) (٢)

ــ عمر المختار ــ

... ومن التلاميذ النجباء والمريدين الصادقين للامام احمد السنوسي ، الشيخ عمر المختار الذي سطع نوره ولمع نجمه في الانتصار الساحق الذي حققه الله تعالى على يده ، في معاركه ضد اعداء الله الايطاليين ، بعد ان تولى قيادة المجاهدين في برقة على أثر انسحاب القائد عزيز المصري ، (فشكل جيشاً وطنياً جعل من خطته الدفاع والتربص بالعدو حتى اذا خرج الطليان من مراكزهم انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم شر مقتلة وغنموا منهم اسلاباً كثيرة امدتهم في الحقيقة بأكثر الأسلحة والعتاد ودواب النقل مما كانوا في حاجة ملحة اليه جميعه ، وظل الحال على هذا المنوال حتى نشبت الحرب

---

(١) ٨٥ من تاريخ ليبيا للدكتور نقولا زيادة .

(٢) الآية ٢٤٩ البقرة .

يراجع كتاب السنوسية دين ودولة للدكتور محمد فؤاد شكري .

« العظمى » العالمية الاولى في اغسطس ١٩١٤ م[١]) .

واستمرت المعارك بعد ذلك بينه رحمه الله وبين الاعداء وكتب الله تعالى له النصر والظفر كلما دخل معركة (حتى ادخل تغييراً على الموقف في برقـة وأحيى آمال السنوسيين في القدرة على مواصلة الكفاح بنجاح ضد ايطاليا [٢]) .

وفي يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ وقع اسيراً بيد الاعداء بعد ان جرح واستشهد من معه من المجاهدين .

وقال كلمته التي خاطب بها الاعداء :

« إن القبض عليّ ووقوعي في قبضة الطليان انمـا حدث تنفيـذاً لارادة المولى عز وجل وانه وقد اصبحت الآن اسيراً بأيدي الحكومة فالله سبحانه وتعالى وحده يتولى امري . وأما انتم فلكم الآن وقد اخذتموني ان تفعلوا بي ما تشاؤون وليكن معلوماً اني ما كنت في يوم من الايام لأسلم لكم طوعاً [٣] !) .

لله در هذه الروح الايمانية العالية التي لم تعرف الخور ولا الجبن وأنى للخور والجبن ان يدخلا في ذلك القلب الطاهر الذي يشهد الله في كل حالة ومقالة .

ثم حوكم على طريقة الكافر المستعمر ونصبت المشنقة قبل المحاكمة وأمام الجموع الغفيرة التي اجبرت على الحضور ، نفذ حكم الاعدام ولسانه وقلبه وحاله يردد اشهد ان لا إله الا الله وأشهد ان محمداً رسول الله[٤] .

---

(١) ص ٤٦ عمر المختار للسيد محمود شلبي .

(٢) ص ٤٧ عمر المختار للسيد محمود شلبي .

(٣) ص ٨٨ و ٨٩ عمر المختار للسيد محمود شلبي .

(٤) نفذ حكم الاعدام شنقاً بالسيد المجـــاهد في الساعة التاسعة من صباح يوم الاربعاء ١١ سبتمبر ١٩٣١ م في مدينة « سلوق » وله من العمر ٦٩ عاماً .

علماء العراق في ثورة العشرين

لما أعلن الحسين بن علي شريف مكة المكرمة ، ثورته بعصيانه وتمرده على الدولة الاسلامية (الدولة العثمانية) في تسعة شعبان المشؤوم ١٣٣٤ هـ ١٠ حزيران ١٩١٦ م . عمل الانكليز على دعم ثورته - عصيانه - كثيراً . فقد امدوه بالمــال والسلاح والعتاد . ومهدوا للاسرى العرب الذين كانوا يقاتلونهم في صفوف الجيش العثماني للالتحاق بالثورة المذكورة [١] .

ثم ان الكافر المستعمر الانكليزي .-خان العهود - وهو خوان العهد دائماً - التي قطعها للحسين بن علي .. واحتل بغداد على يد رأس من رؤوس الكفر والاستعمار الجنرال مود في صبيحة ١١ آذار ١٩١٧ م واخذ يفرض سطوته وجبروته واستعماره على العراق . واحتل البلاد العراقية شيئاً فشيئاً فنجم عن ذلــك (تفسخ في الاخلاق واضطراب في الاحكام وامتهان لكرامات وأنات في الصدور بحيث اصبح سوء الادارة عاملاً قوياً من العوامل التي ادت الى نشوب نار الثورة) [١] .

وقد شهد جميع المؤرخين بلا استثناء سواء اكانوا من المسلمين ام غيرهم : ان فتاوى العلماء والاعلام في النجف وكربلاء وبغداد وسامراء والكاظمية ، وغيرها ، التي اعلنت الجهاد ومقاتلة الانكليز : لأن الجهـاد اصبح فرضاً على كل مسلم ومسلمة اذا احتل العدو بلاد المسلمين .

نعم كانت هــذه الفتاوى هي التي دفعت العشائر العراقية الى القتال لتحرير ارض العراق من رجس الكفر والاستعمار ولم يكتف بعض العلماء بفتواهم هذه . وانما حملوا السلاح واشتركوا في الحرب . فقادوا المجاهدين

---

(١) ص ٧٢ الثورة العراقية للسيد عبد الرزاق الحسني .

في بعض المعارك . وكان منهم السيد محمد سعيد الحبوبي حيث قاد المجاهدين في واقعة (الشعيبة والبرجسية) وابلى بلاء حسناً . (حيث بقي في مقدمة المحاربين وعلى رأس المجاهدين في الشعيبة حتى عـــاد الجميع فعاد معهم [1] ومنهم الامام الشيخ مهدي الخالصي حيث جمع الجموع وشكل كتائب الجند في مدرسته بالكاظمية وقـــاد المجاهدين ودخل المعارك الحربية ، ومات بالسم [2] كما حدثني ولده الشيخ محمـد الذي اشترك معـه بعد ان ابعـد عن العراق في ايران حين استقام الامر للانكليز وتشكل الحكم الوطني) .

الحمد لله اولاً وآخراً

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ومن دعـا بدعوة الاسلام الى يوم القيامة .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) توفي سنة ١٣٤٣ ﻫ وعمره ٦٧ عاماً .

الفهرست

صفحة

مصادر الكتاب

فهرست بمصادر الكتاب كما جاءت في حواشيه

١ – القرآن الكريم : طبعة مطبعة حنفي بمصر
٢ – الأحاديث النبوية : البخاري ، مسلم ، والترمذي ، أبو داود ، ابن ماجة والبيهقي ، البغوي ، الطبراني ، أبو نعيم الحاكم أحمد .
٣ – سراج الملوك : للطرطوسي
٤ – تاريخ الطبري
٥ – الكامل لابن الاثير
٦ – تفسير الرازي
٧ – تفسير البيضاوي
٨ – نهج البلاغة: شرح محمد عبده
٩ – نهاية الأرب : للنويري
١٠ – العقد الفريد لعبد ربه
١١ – البيان والتبيين : للجاحظ
١٢ – الاحياء : للامام الغزالي
١٣ – العدالة الاجتماعية : لسيد قطب
١٤ – المسند : تحقيق احمد محمد شاكر
١٥ – من اخلاق العلماء : للشيخ سليمان
١٦ – قلائد الجواهر : للشيخ أبي بحر التادفي
١٧ – طبقات : للسبكي
١٨ – السلوك : للمقريزي
١٩ – مختصر منهاج السنة : للذهبي

٢٠ – تذكرة الحفاظ : للذهبي
٢١ – الفتوحات المكية : لابن عربي
٢٢ – المخزون
٢٣ – المناقب : لابن الجوزي
٢٤ – ضحى الاسلام : احمد امين
٢٥ – مالك : لابي زهرة
٢٦ – ابو حنيفة : لابي زهرة
٢٧ – احمد بن حنبل
٢٨ – الشافعي
٢٩ – ابن تيمية
٣٠ – الصادق
٣١ – الخراج : لابي يوسف
٣٢ – بحار الانوار : للشيخ عباس القمي
٣٣ – الامام الصادق : للشيخ المظفري
٣٤ – رجال الدعوة في الاسلام : للندوي
٣٥ – فوات الوفيات : للكتبي
٣٦ – المحاسن والمساوىء : للبيهقي
٣٧ – تلبيس ابليس : لابن الجوزي
٣٨ – المدارك
٣٩ – الرحمة الغنية
٤٠ – ابو حنيفة بطل الحرية والتسامح : للجندي
٤١ – حلية الاولياء : لابي نعيم
٤٢ – طبقات : لابن سعد
٤٣ – وفيات الاعيان : لابن خلكان
٤٤ – تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي

٤٥ – المناقب : لابي طالب المكي

٤٦ – المناقب : لأبي البزازي

٤٧ – تاريخ ابن كثير

٤٨ – الانتقاء – لابن عبد البر

٤٩ – الامامة والسياسة : لأبي قتيبة

٥٠ – المقفى للمقريزي

٥١ – طبقات الشافعية

٥٢ – تاريخ الذهبي

٥٣ – تاريخ اليعقوبي

٥٤ – تاريخ ابي الفداء

٥٥ – تاريخ الخلفاء للسيوطي

٥٦ – التنبيه والاشراف للمسعودي

٥٧ – النجوم الزاهرة : للأتابكي

٥٨ – الحديث والمتحدثون : لأبي زهو

٥٩ – فتح الباري : للعسقلاني

٦٠ – مفتاح السنة : للبغوي

٦١ – شذرات الذهب : لابن العماد الحنبلي

٦٢ – سير اعلام النبلاء لاحمد بن عثمان الذهبي

٦٣ – واسلاماه لابا كثير

٦٤ – حياة ابن تيمية للبيطار

٦٥ – نزهة الخواطر

٦٦ – نظرة اجمالية في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند والباكستان للندوي

٦٧ – الفوائد البهية في تراجم الحنفية

٦٨ – رفع الاسر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني

٦٩ – الفخري في الآداب السلطانية لابن الطغطقي

٧٠ – النور السافر في اخبار واعيان القرن العاشر للشيخ العيدروسي
٧١ – ابن تيمية للشيخ المراغي
٧٢ – القضية الفلسطينية اكرم زعيتر
٧٣ – الاسلام في القرن التاسع عشر – كارل بروكلمان ترجمة نبيه امين فارس
٧٤ – الثورة الجزائرية لاحمد الخطيب
٧٥ – الاعلام للزركلي
٧٦ – من تاريخ ليبيا نقولا زيادة
٧٧ – منهاج الاسلام في الحكم لمحمد اسد
٧٨ – عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشي لمحمود شلبي
٧٩ – السنوسية دين ودولة للدكتور محمد فؤاد شكري
٨٠ – محاضرات تاريخ الامم الاسلامية للخضري
٨١ – المقاومة السرية لكامل الشريف



آثار المؤلف

١ – الاسلام ضامن للحاجات الاساسية .

٢ – حكم الاسلام في الاشتراكية .

٣ – الاسلام بين العلماء والحكام .

٤ – الاسلام حرب على الاشتراكية والرأسمالية (في طريق الطبع) .

٥ – كتاب الله الخـــالد – القرآن الكريم – (في طريق الطبع) .



منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة

تقريب التهذيب	للحافظ بن حجر العسقلاني	١ — ٢
تدريب الراوي شرح تقريب النوادي	للحافظ جلال الدين السيوطي	١
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى	للسيد السمهوري	١ — ٤
تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة	للعلامة المراغي	١
آثار المدينة المنورة	للاستاذ عبدالقدوس الانصاري	١
تسلية اهل المصائب	للحافظ محرر بن محمد المنبجي	١
شرح اهل احكام الاسلام	للشيخ عبد الغني النابلسي	١
القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع	للحافظ السخاوي	١
الاشارة الى الايجاز (انواع المجاز)	للعز بن عبد السلام	١
فضائل الاعمال	للحافظ المقدسي	١
التحفة السنية	للشيخ حسن المشاط	١
السياسة الشرعية	لشيخ الاسلام ابن تيمية	١
الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة	للسيد صديق حسن خان	١
معارج الوصول الى ان اصول الدين وفروعه قد بيّنها الرسول	لشيخ الاسلام ابن تيمية	١
الحسبة في الاسلام	لشيخ الاسلام ابن تيمية	١
رفع الملام عن أئمة الاسلام	لشيخ الاسلام ابن تيمية	١
الطريق الى المدينة	للسيد ابي الحسن الندوي	١
رسالة في حكم اوراق النقود	للشيخ السيد ابي بكر الشطا والشيخ الفا هاشم	